

النقد الذي دار حول شعر المتنبي
(في القرن الرابع الهجري)

بقلم
منصور عجمي

=====

وهي رسالة قدمت للدائرة العربية بجامعة بيروت
الاميركية لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها .

ايلول - ١٩٦٨

مقدمة

في النقد كما في الشعر اعتبارات خاصة توجي بالثقة كما توجي بالحدز .
واخصها تلك التي تفترض نوعا من الجهد يندرج في اطاره الوعي والصبر . لان عبقرية
الشعر تفتح عظمة النقد او يتساويان في الفعل والاثارة . ولعل ابرز ما يميز النقد
الذي دار حول شعراي الطيب المتنبي ، تفاعله الحي مع هذا الشعر لخلق حركة
دينامية مستمرة خاصة ، ركزت لنفسها اصولا عامة وخطوطا مميزة توكل عليها كل
عمل ادبي لاحق سايرها او احتذاها .
ونحن نعتقد ان كل تركيز شامل واع على هذه الاصول والخطوط سيفرد
لنفسه تصورا واضحا للموضوع واستقصاء ناجحا لمفهوم هذا النقد وطبيعته واهميته .
وبهذا يمكننا تتبع خط التأثير النقدي الواحد ، وبيان التطور الحاصل خلال هذه
الحركة المستمرة ، فتتضح قيمة الشعر والنقد على السواء . وقد جاء اختيارنا
للموضوع على اساس هذا الاعتقاد ، اذ انا اعتبرنا ان المؤلفات النقدية التي تناولت
شعراي الطيب المتنبي في القرن الرابع الهجري ، على اختلاف اتجاهاتها —
واساليبها واغراضها وتعدد وجوهها ، قد تميزت بالشمولية والتخصص والتصور
الواضح ، فكادت تقع على مختلف القضايا النقدية والمشكلات الفنية التي اثارها
شعراي الطيب والتي توصل او انتهت اليها النقد في ذلك العصر .
ولذا جاءت الوقفات النقدية والمحاولات الفنية اللاحقة استمرارا
مخلصا او استجابة اخرى لنقد النقاد المتعديين وللشعر الواحد على الاخص .
وقد كانت الحاجة الى رصد هذه الحركة الديالكتيكية ، التي تميزت
بالفعل وردة الفعل والوسط المعتدل ، التي دارت حول شعراي الطيب ،

وتبين معالمها وغاياتها ومكانتها في النقد العربي عامة ، ونقد المتنبي خاصة ، كما أوضحنا ، أهم وأوضح ما دفعنا الى اختيار هذا الموضوع وتحديده في القرن الرابع الهجري بالذات .

وكنا قد لاحظنا ان محاولات بعض النقاد المحدثين في الوقوف على بعض هذه المؤلفات كان يهدف الى عرض نماذج نقدية مختلفة لموضوعات فنية دارجة ، او لتتبع منهجية معينة في النقد النظري والتطبيقي كما فعل الدكتور مندور او لاستلهاهم صور تاريخية للمشكلات الفنية التي تدور حول الشعر الواحد كما فعل الدكتور هدارة في كتابه عن السرقات او الدكتور طبانة في مختلف كتبه النقدية ، او كما فعل الاستاذان طه ابراهيم واحمد الشايب وغيرهما ممن المعنيين بالتراث النقدي الاصيل . وكل هذه المحاولات استقرائية عامة لم تخصص لهذا النقد او تتفرغ له ، سوى محاولة واحدة قام بها الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب في رسالته عن : " المتنبي بين ناقديه " (في القديم والحديث) حيث اطلال الوقوف وقصر عن اللحوق . وقد التزم الدكتور شعيب في دراسته هذه المنهج التاريخي في تقسيم الدارسين الى طبقتين :

(أ) طبقة القدامى .

(ب) وطبقة المحدثين .

ثم التزم الجانب الفني عند عرض آراء ومناقشة كل مجموعة من مجموعات هاتين الطبقتين الكبيرتين . فقسم البحث الى كتابين :

(أ) المتنبي بين ناقديه في القديم .

(ب) المتنبي بين ناقديه في الحديث .

والذي يعنينا من كل هذا ، الكتاب الاول الذي قسمه بدوره الى ابواب

تناولت :

(أ) الدراسة اللغوية .

(ب) الدراسة الادبية .

(ج) دراسة المآخذ الادبية والفلسفية .

ونحن نرى ان اعتماد المنهج الفني في تناول هذه الدراسات لا يفيد النقد مثلما يفيد الشعر . انه يتعرض للشعر من زوايا نقدية متعددة تتناول المآخذ دون تركيز على شخصيتها هي ، او تدعيم لموقفها النقدي من هذا الشعر المعروض . وهي تتعدى غرلة هذا النقد وتحليله وتصوره ، وبيان تطوره ، وملاحظة خطوطه العريضة واثره وتأثره ، ورصد موقفه من النقد السابق واللاحق ، الى الملاحظة الفنية الخالصة من خلال المآخذ الشعرية والمشكلات الهامة التي يقترحها كل شعرا صيل وكبير .

لقد وفق الدكتور شعيب ، على نضوج محاولته ووضوحها ، الى تشخيص وضع المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ، ولكنه فشل في تجسيد وتقييم حركة هذا النقد الذي دار حول شعرا بي الطيب في ذاك القديم على الاقل .

اما نحن فقد استفدنا من المؤلفات القيمة الخاصة التي غابت عن الدكتور شعيب وغيره من النقاد المحدثين ، والتي يتطلبها كل بحث علمي موضوعي يتفرغ لمثل هذا النقد ، فتميز لبحثنا نوع من الجهد والجدة ،

والتصور الواضح لطبيعة هذا النقد ، واستمرار حركته ، واصالة موقفه من التراث العربي النقدي العام . وكانت عودتنا الى " الرسالة الموضحة " ، التي تعتبر اصلا للدراسات النقدية التي تلتها ، والى " منصف " ابن وكيع الذي ضمن استمرار هذا الخط النقدي المعادي في البيئة المصرية - سوى تفرد وشخصية كل من هذين المؤلفين - ، والى ديوان الشاعر المخطوط كما شرحه تلميذه وصديقه وصاحب خط الفعل الموالي للشاعر ابو عثمان الفتح ابن جني ، والى مخطوط " الواضح في مشكلات شعر المتنبي " لابي القاسم الاصفهاني ،

والى ما استجد او ظهر من الدراسات الاخرى — على ما في تلك الكثرة من مشقات
— ارهاصا وايحاء • بهذا الشئ من وضوح الصورة والجدة والاصالة التي نقدر
وجودها في رسالتنا هذه •

يبقى ان كبير الفضل يعود الى ايضاحات وتوجيهات الدكتور محمد يوسف
نجم ، رئيس الدائرة العربية بجامعة بيروت الاميركية ، الذى تكرم فأشرف على
هذه الرسالة ، وكانت لارشاداته ومعاونته الادبية ، بما امدنا به من كتب
ومخطوطات وملحوظات ، فضيلة اخراج هذا البحث الذى نجزيه عليه عميق الشكر
وخالصه ، والذى نرجوا ان نكون قد ادينا فيه ما اقترحناه وافدنا منه ما رجونا •

منصور عجي

الجامعة الاميركية في بيروت • ايلول ١٩٦٨

فهرس الموضوعات العامة

صفحة		
٩٧	—	١
١٥١	—	٩٨
١٦١	—	١٥٢
١٨٣	—	١٦٢
٢٢٥	—	١٨٤
٢٥٥	—	٢٢٦
٢٥٨	—	٢٥٦

١ —	المقدمات
١ —	الموضحة
٢ —	الحاتمية
٣ —	الصاحب
٤ —	الوساطة
٥١ —	المنصف
٢ —	الخاتمة

مدخل الى دراسة الحركة النقدية التي ثارت حول المتنبي

مقدمات عامة

- ١ - مع الشاعر . .
 - أ - كتمان نسبته .
 - ب - نسبته .
 - ج - ادعائه النبوة - علاقة النبوة بالثورة .
 - د - بين الثورة والنبوة في السجن .
 - هـ - علاقته بالعلويين .
-
- ٢ - ربط كل ذلك بحركة النقد التي دارت حوله .

ابو الطيب المتنبي شاعر دائم الحركة في الحياة والشعر، يدفعه قلق
المصير والصراع الذاتي الى التنقل، فالحيرة فالغربة . ولعل هذا ابرز ما
يطبع نفسيته المتوثبة ويميز شخصيته الشعرية التي لونها ظروف حياته الخاصة
في مراحلها المتعددة . وقد يكون هذا اللون في المعتقد والهدف والمسعى
صورة حية لذلك التشتت الذاتي والغربة الاليمة التي اقلقت واذته . واكثر
ما يبرز هذا في الثورة المستمرة في شعره، وفي التوق الدائم للتصاعد، حتى
غدت معاني السمو والرفعة والالتفات الواعي الى فوق . الى كل سام وشريف،
احدى لوازم شعره وحياته على السواء . كما غدت هذه السمات واسطة العقد
في افتتاحيات قصائده واواسطها وخواتمها، بشكل حكمة عامة او وثبة خاطر،
او صورة شعرية لونها تجربة حية قاسية . يبقى ان الشعر الذي رافقته هذه
الحالات او التي صورها بوضوح تام هو الذي دفع الناس والنقاد الى الالتفات
الى هذا الشاعر ومحاسن شعره، ان يرفق او بتطرف او باعتدال . وظلت التساؤلات
الكثيرة حول ابي الطيب، الشاعر والانسان، تصدع افكار الذين يعالجون
شعره وحياته، دون الوقوف على اجوبة قاطعة تطمئن الناس وهو لا النقاد .
فالرجل كان يكتفون بنسبه لاسباب لم يستطع مؤرخو الادب كشفها او
حاولوا التغاضي عنها لامر ما، اولم يهتموا لها . فنزعوا الى شعره . والرجل
لقب بالمتنبي ولزمه هذا اللقب الخطير . ودخل السجن لسبب، وكانت له
علاقة بالعلويين، او كما قيل انه ادعى العلوية قبل النبوة وبعدها . وكان
يدعو الى الثورة وتقتيل الملوك ويترفع عن مدح غيرهم . وكانت له كبرياؤه
وطموحه وآماله، وثقافته واسعة ومعرفة باللغة استطاع بهما ان يتميز عن
الكثير من معاصريه من الادباء والشعراء . وكان له مع كل ذلك شعره الذي

فرض نفسه على الناس، بعد ان طوف في الازهان والاسماع . وسنقف عند هذه الظواهر البارزة في حياته لتلمس مدى ما افادته في توسيع دائرة النقد حوله وحول شعره ، وفي تشخيص الحسد والعداء والخصومات التي كثفت هذا النقد بالذات . ولنرصد طبيعة هذا الشعر وفاعليته امام تحديات الحركة النقدية المعادية التي فرضت عليه في الغالب اغراضها واتجاهاتها وظروف اصحابها .

كتمان نسبته :

ذكر علي بن المحسن التنوخي (١) عن ابيه انه سأل المتنبي عن نسبته فما اعترف له . وقال : انا رجل احيط القبائل واطوى البوادي وحدي . ومتى انتسبت لم آمن ان يأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي انتسب اليها ، وما دمت غير منتسب الى احد فأنا اسلم على جميعهم ويخافون لساني (٢) .

وجاء في "الصبح المنبي" انه كان يكتم نسبته . فسئل عن ذلك فقال : اني انزل دائما على قبائل العرب واحب الا يعرفوني ، خيفة ان يكون لهم في قومي ترة (٣) .

وعذر المتنبي في كلا الروايتين - والاصل واحد - سخيف ، حتى ولو كان ابو الطيب صادقا وكانت الرواية صحيحة . وهناك احتمالان :

- ١ . هو ابو القاسم علي بن المحسن التنوخي . ولد بالبصرة سنة ٣٧٠ هـ وكان ينفق على اصحاب الحديث كالخطيب البغدادي والصوري وغيرهما ، ويبيتون عنده ويأخذون عنه . وكان ادبيا فاضلا صاحب ابا العلا ، واخذ عنه كثيرا . توفي سنة ٤٤٧ هـ . انظر معجم الادباء ، ١٤ : ص ١١٠ . وفوات الوفيات ٢ : ٦٨ و ٦٩ .
والنجوم الزاهرة ٥ : ٥٨ .
- ٢ . البغدادي ، تاريخ بغداد ، ص ١٠٣ .
- ٣ . البديعي ، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، ص ٢٠ .

احدهما ان يكون ابو الطيب على ثقة من ان هناك ترة - او شيئا من هذا القبيل - بين قبيلته واحدى قبائل العرب ويخشى بالفعل عاقبة ذلك فلا ينتسب .

والاخر ان يكون المتنبي يحتمل وجود طائفة ، او هو على ثقة من انه ليس هناك شيء مما ذكر . وانما يكتم نسبه لامر خاص ، او لسبب وضعه هو نفسه وفي كلا الحالتين ليس المتنبي بحاجة الى كتمان نسبه . وهذا يستدعي التنبيه الى الفترة التي اجاب فيها المتنبي على هذا السؤال . اكان ذلك قبل ان يشتهر ام بعد ان دانت له الشهرة ؟

الرواية الاولى تؤكد الشق الثاني ، فهو يصرح انه يسلم على جميعهم ويخافون لسانه . والرواية الثانية تؤكد الشق الاول من سؤالنا . والتصريح في هاتين الروايتين مردود من اصله ، اذ كيف باستطاعة المتنبي او اى شاعر غيره بشهرته ، ان يحد من شهرته - اذا شاع ذكره ، او رد الناس عن معرفتهم به - اذا عرف ؟ وهل اسهل على اصحاب الثأر في حالة كهذه من طلب ثأرهم منه بعدما اشتهر ؟ فلا حاجة به الى ان يخاف . فكتمان نسبه وعدمه سواء عند اصحاب الثأر ان كان ذلك ، ولو كان يخشى طائفة ما ، حتى ولو كان صغيرا ، لما كان طوف في البادية مع الاعراب - او برفقة ابيه اذا صح كلام اليتيمة (١) - ليعود اليها بدويا قححا . كما انه يستطيع التسليم عليهم جميعهم وان يخافوا لسانه اكان منتسبا ام غير منتسب . هذا عدا الشك في امكانية حصول ثأر بين قبيلة فتى من كندة وبين القبائل العربية بعيدة عن الكوفة ، في البادية واطراف الشام . ولا يعرف عن والد الشاعر الا انه سقاء يبيع الماء في الكوفة ، وانه من اب يختلف في اسمه وليس له ذكر او حديث

١ . الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ١ ، ص ٧٩٠ .

يستحق في رأينا طلب الثأر والملاحقة ، وقد تنقل بابنه كثيرا وما قتل .
ونحن نعتقد انه كان يكتن نسبة لامر خاص بينه وبين نفسه ، وهو استحياءه
من نسبة الوضيع بعد ان دانت له الشهرة وشغل الناس به ويشعره .
فهذا الشعور بالنقص من ناحية وكون نفسه بطبيعتها عزيزة ، ابيه ،
طموحا ، من ناحية اخرى ، ساعده على كتمان نسبة تغطية لهذه الضعة ،
وارضا ، لكبريائه المكتسبة — لانه كان يتعاطى الكبرياء — فكان هذا الترفع ،
والطموح ، والتعالي ، والتحمل ردة فعل عنيفة لذلك الشعور بالنقص وضعف
الامل .

والاخبار التي وردت عنه وعن ابيه ، والشعر الذي هجي به قد يوضح حقيقة
هذا النسب على الرغم من ضعف الروايات وعدم دقتها .

نسبه :

هو كما ذكر البغدادي (١) احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد
ابو الطيب الجعفي الشاعر المعروف بالمتنبي ، واحمد بن الحسين بن عبد الصمد
الجعفي الكوفي الملقب بأبي الطيب كما يذكر البديعي (٢) ، واحمد بن الحسين
بن مره ابن عبد الجبار كما يقول ابن خلكان (٣) وفي رواية اخرى يورد النسب
نفسه الذي يورده البغدادي .

تتفق الروايات على ان اباؤه هو الحسين — ولن نعول على الخلط البادي
في نسب الوالد — وانه كما يقول البديعي كان يعرف بـ عبدان السقاء (٤) .

-
- | | |
|---|--|
| ١ | البغدادي ، تاريخ بغداد ، ص ١٠٢٠ . |
| ٢ | البديعي ، <u>الصبح المنبي عن حيشة المتنبي</u> ، ص ٢٠٠ . |
| ٣ | ابن خلكان ، <u>وفيات الاعيان وانباء ابنا الزمان</u> ، ج ١ ، ص ١٠٢٠ . |
| ٤ | البديعي ، ص ٢٠٠ . |

وكما يروى ابن خلكان^(١) انه كان سقاً بالكوفة ثم انتقل بولده الى الشام
ونشأ المتنبي هناك ، والى هذا اشار احد الشعراء في هجو المتنبي حيث قال :
أي فضل لشاعرٍ يطلّب الفضل من الناس بكرةً وعشياً
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ، وحيناً يبيع ماءً المحيا
وكما يروى ابو الحسن محمد بن يحيى العلوى الزيدى^(٢) انه كان يعرف
بعبدان السقا يستقي لنا ولاهل المحلة ٠٠٠ وان وراقا اخبره انه ما رأى احفظ
من ابن عبدان هذا ، ويروى قصة عن حفظه^(٣) .

ويضيف ابو الحسن قائلاً ان عبدان والد المتنبي كان يذكر انه من جعفي
وان جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا اشك فيها . وكانت جارتنا وكانت
من صلحاء النساء الكوفيات^(٤) ويذكر القاضي ابو الحسن ابن ام شيان الهاشمي
الكوفي لابي الحسن محمد بن يحيى العلوى الزيدى انه كان يعرف والد المتنبي
بالكوفة شيخا يسمى عبدان يستقي على بعير له وكان جعفياً صحيح النسب^(٥) .
فكون جدته همدانية صحيحة النسب ومن صلحاء النساء الكوفيات لا يمنع كون
ابيه سقاً ، يستقي على بعير له او يبيع الما في الكوفة . وكون والده سقاً لا
يمنع كونه صحيح النسب ومن جعفي ، فلا داعي لانكار ذلك . وكل هذا لم يمنع
المتنبي من ان يكون شاعراً كبيراً . وقد كان للشهرة التي حازها ابو الطيب

-
- ٠ ١ ابن خلكان ، المصدر ذاته ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
 - ٠ ٢ ولد ابو الحسن محمد بن يحيى العلوى الزيدى سنة ٣١٥ هـ وتوفي سنة ٣٩٠ هـ . كان من اهل الكوفة وسكن بغداد . ينتهي نسبه الى زيد بن علي . وكان المتقدم على الطالبين في وقته .
 - ٠ ٣ البغدادى ، ص ١٠٣ . والبديعي ، ص ٢٠ .
 - ٠ ٤ المصدر ذاته ، ص ١٠٣ .
 - ٠ ٥ المصدر ذاته ، ص ١٠٣ .

وللفضل الذى وجدته في نفسه ، الاثر البعيد في تيقظه الى اصله الوضع وكنمائه له تعظيما لنفسه وتبريرا لكبريائه . ولعل الشعور بهذه الضعة هو الذى اوقد في صدره جذوة الكبر والتعالي والتحامل .

ثم انه حين هجي لم يوفر الذين هجوه اصله الحقيق فوقع عليه ابن لنكك (١) وكان حاسدا له طاعنا عليه ، هاجيا اياه ، زاعما ان اياه كان سقا بالسقا ، فسمت به ، وقال :

قَوْلًا لَأَهْلٍ زَمَانٍ لَا خِلَاقَ لَهُمْ ضَلُّوا عَنِ الرُّشْدِ مِنْ جَهْلٍ بِهِمْ وَعُمُوا
لَكِنَّ بَغْدَادَ جَادَ الْغَيْثُ سَاكِنَهَا نَعَالَهُمْ فِي قَفَا السَّقَا تَزْدَحِمُ
ومن قوله فيه ايضا :

مَتَنَّبِيكُمُ ابْنُ سَقَا كُوفَا نِي يُوحِي مِنَ الْكَيْفِ إِلَيْهِ (٢)
واذا كان صحيحا ان ابن لنكك كان يزعم ان ابا المتنبي كان سقا فكونه شمت به - على حد قول الشعالي - قد يؤكده كون ابيه كذلك .

وهذا العميدى يتعرض لنسب المتنبي حين يوضح مذهبه في نقده له (٣) فيقول :

... ليس تغني المتنبي جلالة نسبه مع ضعف ادبه ولا يضره خلاف دمره مع اشتهار ذكره - وهنا قد يظن ان العميدى يؤكده جلالة نسب المتنبي مع انه يفترض العكس لانه يريد ادبه ، وهو ليس ضعيفا ، كما انه يسعى الى تبرئة نفسه ونقده من الهوى وسيطرة النظرة الاخلاقية على عمله - اذ يقول بعد ذلك (٤) :

- ١ . ابن لنكك هو ابو الحسن المعروف بابن لنكك البصرى الشاعر الاديب .
كان فرد البصرة وصدرا دباثها في زمانه ، ولكن المتنبي اخمل ذكره لذلك كثر شعره في الهجاء وشكوى الزمان . انظر البيهية ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
- ٢ . البيهية ، ج ١ ، ص ٨٦ .
- ٣ . العميدى ، الابانة عن سرقات المتنبي ، ص ٢٢ .
- ٤ . المصدر ذاته ، ص ٢٤ .

” . . . ولا اطعن ايضا في دينه ونسبه ، ولا اذمه لاعتقاده ومذهبه ، وكيف يسوغ لي ان اثلبه لالحاده او اعيبه لسقوط آبائه واجداده ، وانا اتحقق ان اكثر من يستشهد باشعارهم المشركون والكفار والمنافقون والفجار ومنهم اللكـ والفسحاء والهجناء والصرحاء ” . اما البديعي ، فإنه على غرامه بتصيد محاسن المتنبي يعقد عدة صفحات على تعاضمه مع دناءة نفسه ويورد على لسان ابي الفرج الببغاء (١) قصة مزاحمته الغلمان في حضرة سيف الدولة — بحضور ابي الفرج نفسه وابن خالويه — لالتقاط بعض الدراهم المنثورة واستحياءه بعد ان داسه الغلمان ما جعل سيف الدولة يقول لابن خالويه (٢) : يتعاضم تلك العظمة وينزل الى مثل هذه المنزلة لولا حماقته (٣) . ويورد له قصة اخرى في مجلس ابن العميد حين يقوم من مجلسه الفخم ليلتقط الدنانير المتبددة التي جربوا السيف في قطعها ، وكذلك حين يدمي يده لالتقاط درهم وقع خلال الحصار في مجلس سيف الدولة (٤) . واخبار بخله وشره الى المال كما يوردها ابن

١ . ابو الفرج الببغاء هو عبد الواحد بن نصر المخزومي الشاعر المشهور والكاتب المجيد . مات سنة ٣٩٨ هـ . كان صديقا لابي الطيب ومن كتاب سيف الدولة وشعرائه الذين يجيدون وصف المعارك الحربية .

٢ . ابن خالويه هو ابو عبد الله الحسين بن محمد بن خالويه النحوي اللغوي . من اهل همذان دخل بغداد وادرك اجلة العلماء بها مثل ابي باكر ابن الانباري والزاهد وابن دريد وقرأ على ابي سعيد السيرافي . وانتقل الى الشام وصحب سيف الدولة بن حمدان وادب بعض اولاده وكانت الرحلة اليه من الافاق . مات بحلب سنة ٣٢٧ هـ . (انظر انباء الرواة للقفطي ج ١ ، ص ٣٢٤ — ٣٢٧ ونزهة الالباء للسيوطي ص ٢١٤ — ٢١٥) .

٣ . البديعي ، الصبح المنبي ، ص ٩٢ .

٤ . المصدر ذاته ، ص ٩٣ .

فورجة (١) وابن زيد التكريتي الشاعر (٢) تنم عن دناءة نفسه وحقارة اصله — ولا اكاد اتخيل صاحب نفس شريفة الاصل ، سامية المرتبة ينزل الى هذه الدرجة من الشره والتهافت — وحاجته المبكرة الى المال ، ثم انه ليم على بخله ، واستشهد بشعره :

ومن يُنْفِقُ الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
وقيل له — على لسان التكريتي (٣) — ومعلوم ان البخل قبيح ومنك
اقبح لانك تتعاطى كبر النفس وعلو الهمة وطلب الملك ، والبخل ينافي سائر
ذلك . فقال : ان لبخلي سببا ، ثم يورد قصته مع بائع البطيخ . وهذا برأينا
لا يشفع له في هذه الدنائة العفوية التي كانت تغضخ تعاطفه وتعاطيه كبر
النفس . وقد كان قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب ، ويصطاد ما
بين الكركي والعندليب ، ويحكى ان علي بن منصور الحاجب لم يعطه على قصيدته
فيه التي اولها :

” يا أبي الشمس الجانحات غواريا “ الا دينارا واحدا فسميت الدينارية (٤)
ويحكى الاصفهاني ان المتنبي مدح بدون العشرة والخمسة في حال
عسره الاول وان اول قصيدة بيض فيها ايامه هي :

- ١ . ابن فورجة : هو محمد بن محمد بن فورجة البروجردى ، امام فاضل ، عالم كامل ، مطلع على انواع العربية ايما اطلاع ، قائم باللغة ومعنى الشعر . رحل الى المعرى واخذ عنه الادب واللغة . وصنف الكتابين المشهورين في الرد على ابن جنى في شرح شعر المتنبي ، احدهما : الفتح على ابي الفاتح والاخر : التجني على ابن جنى . وله شعر كذلك . (انباء الرواة ، ج ١ ، ص ٣٣٤) .
- ٢ . ابن زيد التكريتي هو ابو البركات محمد بن احمد بن زيد التكريتي المعروف بالمؤيد . اديب فاضل شاعر . توفي سنة ٥٩٩ هـ .
- ٣ . البديعي ، الصبح المنبي ، ص ١٥ .
- ٤ . البيئية ، ص ٨٢ .
- ٥ . ابو القاسم ، عبدالله الاصفهاني ، الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، مخطوطة ، ورقة رقم ٢ .

أَنَا لَا بُدَّ أَنْ كُنْتُ وَقْتُ اللُّوْائِمِ عَظِمْتُ بِمَا بِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فهذه الروايات المختلفة - حتى ولو امعنا الشك في صحتها ومبالغاتها -
تتفق على ان المتنبي كان يتعاطى كبر النفس والتعاضد ، وتشير بحوادثها الى
دناءة نفس وشربه للمال وبخل مفرط لا تتعاطاه نفوس اولاد الاشراف حتى ولو
اجاعها الفقر . كما انها لا تليق بهم في اية حال . عدا اننا لا نرضى بأن
تصدر عن المتنبي الشاعر الكبير الذي حمل نفسه عبء التعاضد والكبرياء ،
والترفع ، والطموح الزائد ، طوال حياته حتى ولو كان اصله كما هو عليه .
اما شعره الذي يدعي فيه الفضل ، وان فؤاده من افئدة الملوك ،
وان جدته " بنت اكرم والد " وفيهم " فخر من نطق الضاد " ، فهو حجة عليه .
انه احدى وسائل تعاطيه التعاضد ، اليس يقول غير ذلك :
ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وينفسي فخرت ولا بجدودي
اما خرافة علي بن حمزة البصري (١) انه يعلم عن المتنبي ثلاث خلال
محمودة وهي انه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وثلاث خلال ذميمة وتلك انه ما صام
ولا صلى ولا قرأ القرآن ، فمردودة اصلا ، لان الشاعر لا يسأل شيئا من هذه
الخلال . الم يكن المتنبي يكذب او يسرف في التخييل حين قال :
اي محل ارتقي اي عظيم اتقي
و " ما بقومي شرفت بل شرفوا بي " وحين رفع فؤاده الى مرتبة الملوك
امام عبد خصي كما يدعوه ؟ وحين كان يتملق سيف الدولة في انتصاره على
بني كلب وكلاب الذين ساروا معه في بادية السماوة ؟ حتى ان كافورا
الاخشيدي نفسه خافه وكان قد وعده بولاية بعض اعماله " فلما رأى تعاضده في
شعره وسموه بنفسه خافه ، وعوتب فيه فقال : يا قوم ، من ادعى النبوة مع محمد
(صلعم) لا يدعي المملكة مع كافور ؟ حسبكم (٢) .

١ . البديعي ، ص ٩٤ .
٢ . ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، ج ١ ، ص ٤٥ .

نشعره الذى يؤخذ منه انه من نسب شريف واصل عريق ، مرفوض وكاذب
كواقع . لان ذلك كان تغطية وردة فعل لشعوره العميق بضعف نسبه
وضاعته ، وهذا لم يضره كشاعر . بل افاده حين دفعه الى الطرف الاخر فراح
يثبت كبر نفسه وسموها ، بتوثبه الدائم ، وتحصيله الثقافى الواسع ، وثورته الشعرية
المتصلة وحكمته الخالدة . وهذا الحاتمي حين قصده للمناظرة ، وكان قد دفع
الى تحديه بعد ان ورد مدينة السلام ، اراد تخفيف غلوائه وهدم مجده
المصطنع ، برأيه هو وهذه مبالغة ، فاهتدى الى نسبه ، يقول : " هل هاهنا
نسب انتسبت الى المجده ، او شرف علق باذياله او سلطان تسلط بعزه ،
او علم تقع الاشارة اليك به ؟ (١) ولم يثبت له غير شاعرية متكسبة لا قدر لها
ولا سلطان . وهذا تحامل شديد اللهجة ، ولكنه لا يخلو من واقع صحيح -
ان سكوت ابي الطيب او هكذا صور الحاتمي ولا بأس بذلك - عن نسبه حين
يعاب به سكوت يخفي اشياء تعز على الشاعر . فكتمان نسبه لم يفده اجتماعيا
وسياسيا . مثلما افاده ذاتيا كحافز ودافع . فحين تألب الشعراء عليه لهجائه
لم يوفروا نسبه . ولو كان يضيره ذلك او لو لم يكن الا الواقع الذى لا يستطيع
طمسه ، لكان صرح به او دافع عنه ، فهو ليس من الغباء لدرجة الصمت المطبق
حتى ولو كان هناك ثأر يخاف ان يطاله ان صرح بذلك . وهو لم يوفر مناسبة ،
في الغالب ، الا ومدح نفسه وتعالى وسما ، ولو كان غير ذلك - كما يزعم الاستاذ
محمود شاكر (٢) - لا طنب في الفخر بابائه وماثرهم ، او لكان المح خفية
الى شي من هذا اذا اعتبرنا ان هناك سرا يخفيه فيخاف منه . فنفسية المتنبي
نفسية رجل يريد ان يحقق العظمة بالفعل وقد وجدها بالقوة في نفسه ،
فراح يجسدها في الحياة بتعاليه وترفعه عن مدح غير الملوك واحتقار الغير ،

١ . الحاتمي ، الرسالة الموضحة ، ص ١١ .

٢ . محمود محمد شاكر ، ابو الطيب المتنبي ، ص ٢٤ - ٤٣ .

وفي الشعر بالعودة الى ذاته الكبرى كلما عاوده هاجس الضعف والعظمة . وقد كان يعز عليه ان يلحظ عظمته كشاعر ، وضعته كأنسان ، من اصل وضع ، فيتهالك الى المجد يكتسبه ، مخفيا نسبه ، متبرما بنفسه فلا يتحقق له ذلك الا في الشعر " ومهما يكن فلا ريب ان شاعرنا كان عربيا قحا بل بدويا ، فلا يعيبه ان كان من بيت فقير . . . (١) " وقد ساقنا اليه كبرياؤه الحسد الذي ابتلي به طوال حياته ، فشاء تجسيده - كما نتخيل - لتخف اذيته وليرغب عن كرهه ، نسى ابنه " محسدا " ولكنه ما سلم من شماتة الشعراء الذين هجوه ومن عنف النقاد الذين دفعوا او اندفعوا الى اسقاطه ، بعد ان آذتهم كبرياؤه واذلهم غروره وتعاليه .

ادعائه النبوة :

ويحكي انه تنبأ في صباه وفتن شزيمة بقوة ادبه وحسن كلامه ، وحكى ابو الفتح عثمان بن جني ، قال : سمعت ابا الطيب يقول : انما لقبت بالمتنبي لقولي :

أَنَا تَرَبُّ النَّدَا ^{أَنَا} تَرَبُّ الْقَوَانِي
وَسِمَامُ الْعَدَا وَغِيظُ الْحُسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكُهَا اللَّهُ
غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُمُودٍ
وفي هذه القصيدة يقول :

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ خُطَلَا ^{كُمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ (٢)}
وَعَنْ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي حَامِدٍ (٣) أَنَّهُ أَخْبَرَ التَّنُوخِيَّ قَالَ : وَكَانَ الْمُتَنَبِّيُّ
إِذَا شَوَّغَ فِي مَجْلِسِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ - وَنَحْنُ إِذْ ذَاكَ بِحَلْبٍ - نَذْكُرُ لَهُ هَذَا
الْقُرْآنَ وَآمَالَهُ مَا كَانَ يَحْكِي عَنْهُ فَيَنْكُرُهُ وَيَجْحَدُهُ ، قَالَ : وَقَالَ لَهُ ابْنُ خَالُوهِ

- ١ . عبد الوهاب عزام ، ذكرى ابي الطيب بعد الف عام ، ص ٣٥ .
- ٢ . البيتية ، ص ٨٠ .
- ٣ . لم نعر له على ترجمة .

النحوى يوما في مجلس سيف الدولة : لولا ان الاخر جاهل لما رضى ان يدعى بالمتنبي ، لان متنبي معناه كاذب . ومن رضى ان يدعى بالكذب فهو جاهل ! فقال له : انا لست ارضى ان ادعى بهذا ، وانما يدعوني به من يريد الغضب مني ، ولست اقدر على الامتناع (١) .

ويسأله التنوخي الاب سنة اربع وخمسين وثلاثمئة بالاهواز في طريقه الى فارس عن معنى المتنبي ، وهل تنبأ ام لا ؟ فيجيبه بجواب مغالطه وهو ان قال : " هذا شيء " كان في الحادثة اوجبه الصورة ، فاستحييت ان استقصى عليه وامسكت (٢) .

فان يكون ابو الطيب لقب بالمتنبي لبيت قاله ، كما يحكي ابن جني - والنبوة ليست لقبا يعطى ولا فعلا توجهه ارادة خاصة - او لان " متنبي معناه كاذب " ويدعوه به من يريد الغضب منه ولا يقدر هو على الامتناع - في حال صحة الرواية - كثير على الواقع وعلى المنطق وعلى ابي الطيب نفسه كشاعر مسؤول عن عظمته الشعرية وعن نفسيته المتقدمة بالاباء والعزة والعنفوان . فالنبوة كلقب مرفوضة اصلا ، لانها حالة خطيرة وخاصة ، وكتهمة اشد دها وخطورة ، فلا يسهل على حاملها ترقب نتائجها وتحمل تبعاتها ، ناهيك بندرتها ، وتفرد ها في حال كونها ، والا لا تكون نبوة كما يراد لها . وان كانت في حال المتنبي ستشفع له بتفرد وشهرة فما نطن ان هذه الابيات التي فرهت اللقب هي التي اثبتت شاعريته الكبرى ودفعت الناس والنقاد الى الانشغال به ، وقد لزمته طوال حياته .

ومما لا شك فيه ان المتنبي لم يستطع رد هذا اللقب عنه - او هذه التهمة مؤقتا في حال اعتبارها كذلك - او هو لم يفكر بذلك لانه احب هذا

١ . البغدادى ، ص ١٠٤ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ١٠٥ .

اللقب الذي صار يعرف به ، والذي اصبح جزءاً منه بل هو كله . فهو لم يسع الى التكرار او التبرأ منه ، وليس ذلك عن ضعف حتى ولو كانت تهمة الصقت به ، وانما برأينا عن واقع مبكر لم يستطع ابو الطيب تجاھله او التخلص منه . وسنحاول ترجيح هذا الواقع ما استطعنا .

ونحن نرفض الظن ان يكون المتنبي - كما نعرفه انسانا وشاعرا - صبوراً طبعاً لهذه الدرجة التي يتقبل فيها تهمة انه كاذب - اذا صدقنا ابن خالويه - طوال حياته ، اذا ما اعتبرنا انه لفترة معينة لم يستطع الا الرضى في حال كون التهمة الصقت به عنوة ، وحتى لو رفضنا الاعتقاد بانه ما كذب ولا زنى ولا لاط . كما ان جواب المتنبي بحد ذاته جواب ذليل ضعيف ، لا يعقل ان يصدر عنه - كما نعرفه - هذا اذا سلمنا بصحة الرواية ككل .

والمتنبي يعترف للتخوي سنة اربع وخمسين وثلاثمئة ان " هذا شيء كان في الحداثة اوجبته الصورة " ، وهذا رد معقول نرتضيه على الرواية ، وعلى واقع المتنبي كما صورلنا وكما نتصوره ، فهو قد تنبأ في صباه - كما ذكر صاحب اليتيمة - وفتن شردمة بقوة ادبه وحسن كلامه ، " وبلغ من كبر نفسه وبعد همته ان دعا الى بيعته قوما من رائسي نبله على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له امر دعوته تأدى خبره الى والي البلدة ورفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده " (١) . وانما قيل لالمتنبي - كما يذكر ابن خلكان - لانه ادعى النبوة في بادية السماوة ، وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم فخرج اليه لؤلؤ امير حمص نائب الاخشيدية فأسره وتفرق أصحابه وحبسه طويلاً ثم استتابه واطلقه . وقيل غير ذلك ، وهذا اصح . وقيل انه قال : انا اول من تنبأ بالشعر . وهذا القول الاخير اورده صاحب

١ . اليتيمة ، ص ٢٩ .

٢ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ص ١٠٣ .

العمدة في جملة ما اورد من انه سي متنبئا لفطنته ، وانه ادعى النبوة في بني
الفصيص . ثم يقول : والاخبار في هذا النوع كثيرة جدا ، وانما جئت باقربها
عهدا واشهرها في كتب المؤلفين ، مما يليق بالموضع ذكره ^(١) ولن نعول على
روايات ابن رشيقي لانها ليست اصح ما اورد ولو كانت اقربها عهدا واكثرها
شهرة في كتب المؤلفين . وقد اثبت ابن خلكان الرواية المشهورة واعتبرها
اصح من غيرها . كل هذا نورد كظواهر متعددة للحقيقة الواحدة التي
نريد التحقق منها بالنسبة لنبوته .

والذي نستخلصه لان ان المتنبئ تنبأ في صباه — شي* اوجبه الصورة —
واراد الخروج على السلطان فوشي به وحبس* فالنبوة والثورة متلازمان عنده .
فقد كان يسعى بالاولى الى الثانية او كان يشركهما في الهدف الواحد .
ولعل التفكير بالثورة جاء قبل التفكير بالنبوة ، فظن انه بادعاء النبوة ،
ويخدع الناس ببعض الايات — وله من قوة ادبه وروعة كلامه ما يفيد —
والمعجزات والحيل الصبائية ، يستطيع ان يجمع حوله ما يعوزه من الرجال
فيخرج على السلطان . وهذا الربط بين النبوة والثورة توضحه اهداف كل
منهما بالنسبة له ، فقد عبر عن اهداف الثورة باهداف النبوة حين اجاب ابا
معاذ اللاذقي ^(٢) بانه مرسل الى هذه الامة الضالة المضلة ليملا الدنيا
عدلا كما ملئت جورا ^(٣) . وما نظنه كان يفكر بادعاء النبوة لغير هدف الثورة
والا لكان غبيا . فقد استطاع ان يخرق ويخدع الناس ببعض الحيل وان يجمعهم
بقوة لسانه فالتفوا حوله وحين شاع امره ارسل اليه الوالي من قيده وحبسه .

١ . ابن رشيقي .

٢ . لم نعثر له على ترجمة .

٣ . البديعي ، ص ٥٢ .

وحب الثورة لازمه طوال حياته - حتى ان كافورا كان يخشاه - وكان ابدا يهدف الى الحكم والسلطان ، ثم انه ما زال في برد صباه الى ان اخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره ، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضر من كامن وسواسه في الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الاطراف ، ويستكثر من التصريح بذلك (٢) . " وشعره ملي " بهذا الحب في مختلف مراحل . حتى ان الاستاذ بلاشير يعالج خروجه في بادية السماوة على اساس ثورة تأتي له بالاستقلال الذاتي وسعة العيش يقول : (٣) " فمن المحقق ان المتنبي فكر في ان يحوز الثورة ، بوضع نفسه في خدمة العظماء ، ومع ذلك شعر بثقل هذه العبودية ، بعد بضع سنوات ، نال فيها خيبة امل متلاحقة كما رأينا . واذا حدثت ثورة السماوة ، التي كان مفروضا فيها بالنسبة اليه ان تكون نتيجتها سعة في الحياة واستقلاا بوجه خاص " وقد اقتنع بعد ثورة السماوة بان الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن . .

كما ان الاستاذ محمود شاكر نفسه يعتقد ان دخوله السجن كان بسبب الثورة وليس بسبب النبوة (٤) . اما كيف تم له ان يدعي النبوة ، فالثورة ؟ فلعل في نشأته الاولى وفي نفسيته المتفردة وفي علاقته بالعلويين وظروف حياته الخاصة واحوال عصره ، ما يفسر هذا الاندفاع المستمر الذي لم يثمر مرة واحدة . فقد اختلف ابو الطيب في صغره " الى كتاب " فيه اولاد اشراف الكوفة وكان يتعلم دروس العلوية شعرا ولغة واعرابا ، فنشأ في خير حاضرة وقال الشعر صبيا ، ثم وقع الى خير بادية ، وباللاذقية حصل في بيوت العرب

-
- ٠١ ابن رشيق ، ج ١ ، ص ٤٥ - ٧٥ .
 - ٠٢ اليتيمة ، ص ٨١ .
 - ٠٣ بلاشير ، ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ، ص ١١٣ - ١١٤ .
 - ٠٤ محمود محمد شاكر ، المتنبي ، ص ٦٦ .

فادعى الفضول الذى نيزبه ، فني خبره الى امير بعض اطرافها فاشخص اليه من قيده وساربه الى مجلسه ، فبقي يعتذر اليه ويتبرأ مما وسم به في كلمتالتي يقول فيها :

فَمَا لَكَ تَقَبَّلَ زُورَ الْكَلَامِ وَفِي جُودِكَ مَا جَدْتُ لِي
وَقَدْ كُنْتُ أَشَقَى شُعُودٍ (١) بِنَفْسِي وَلَوْ كُنْتُ أَشَقَى شُعُودٍ

فشهود الوالي على المتنبي هم الذين وشوا به اليه ، وشهادتهم - زور الكلام - على قدرهم ، لانه يعرفهم ، واكاد اعتقد انهم من الذين درسوا العلوية معه شعرا ولغة واعرابا . فالتنبؤ حاصل للان ، وان تبرأنا من الحادثة - الرواية - فلن نتبرأ من الشعر الذى هجي به لادعائه هذا الفضول ، وقد هجاه شعرا وقته فقال الضبي (٢) :

أَلَمْ يَقَالَ الشَّعْرُ تَحْظُ بِهِ وَعَنِ النَّبِوءَةِ لَا أَبَا لَكَ فَاَنْتَرَحْ
تَرْجَحُ دَمًا قَدْ كُنْتَ تَوْجِبُ سَفْكَه أَنَّ الْمَتَعَ بِالْحَيَاةِ لَعَنَ زَيْجْ
فاجابه المتنبي :

أَمْرِي الْيَ فَإِنْ سَمَحْتَ بِمَهْجَةٍ كَرُمْتُ عَلَيَّ فَإِنْ مَثَلِي مِنْ سَخْ
وهجاه غيره ، فقال :
أَطْلَلْتُ يَأَيُّهَا الشَّقِيُّ دَمَكَ بِالْهَذْيَانِ الَّذِي مَلَأَتْ فَمَكَ
أَقْسَمْتُ لَوْ أَقْسَمَ الْأَمِيرُ عَلَيَّ قَتْلَكَ قَبْلَ الْعِشَاءِ مَا ظَلَمَكَ

فيجيبه المتنبي مخاطبة بهجا سفيه ، وفي كلا الجوابين لا يحاول ابو الطيب التنصل او التهرب من هذا الفضول - النبوة - دمه الواقع فاعترف ان امره اليه وحده .

- ١ . الاصفهاني ، مخطوطة ، ورقة رقم ٢ و ٣ .
- ٢ . المصدر ذاته ، ورقة رقم ٢ . الضبي : هو ابو العباس احمد بن ابراهيم الضبي ، اكبر تلاميذ صاحب بن عباد ، ولي الوزارة بعده . وكان قد تخرج عليه في البلاغة نظما ونثرا (البيتية ، ج ٣ ص ١١٨ .

وهذا ابن لنكك حين هجاه بالبصرة تعرض لنبوته فقال (١) :

ما أوقح المتنبي فيما حكى وأدعاه
يا سائلي عن غناه من ذاك كان غناه
أن كان ذاك نبياً فالجائليقُ الاله

حتى لو كانت النبوة فرضت عليه فرضاً او هدد بأن يلتزمها الى الابد ،
لما كان يصبر — على ابائه وغفوانه — امام هجاء الشعراء له ٠٠ اما كان يلج
الى هذا الضغط او السكوت المفروض ببيت شعر واحد ٠ ورغم هجائه للعلويين
في اكثر من قصيدة فهو لم يشر الى النبوة لا كتهمة ولا كواقع ٠ "وهو في الجملة
خبث الاعتقاد ، وكان في صغره وقع الى واحد يكنى ابا الفضل بالكوفة من
المتفلسفة فهو سه واضله كما ضل ٠٠ (٢) واما ما يدل عليه شعره فمتلون
وقوله (٣) :

هون على بصري ما شق منظره فانما يقظات العين كاللحم
مذهب السوفسطائية ، وقوله :

تمتع من جهاد او رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والنمام
مذهب التناسخ ، وقوله :

نحن بنو الدنيا فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
فهذه الارواح من جوه وهذه الاجسام من ترابه
مذهب الكفائية ، وقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقل تخلص نفسك المرء باقية وقيل تشرك جسم المرء في العطب

٠١ البيتية ، ص ٨٦ .

٠٢ الاصفهاني ، المخطوطة ، ورقة رقم ٢ .

٠٣ المصدر ذاته ، ورقة رقم ٢ .

- فهذا من يقول بالنفس الناطقة ويتشعب بعضه الى قول الحسيسية .
والانسان اذا خلع ريقه الاسلام من عنقه واسلمه الله جل جلاله الى حوله وقوته
وجد في الضلالات مجالا واسعا وفي البدع والجهالات مناديج وفسحا .
هذا ما يراه الاصفهاني في المتنبي ، وهو حصيلة الهوس الذي تقبلته نفسه
المفطورة على التوثب والانفتاح في طور الصبا . وقد فعل تهويس ابي الفضل
له فعله في نفسه فيقول في قصيدته له ، بعد المطلع الغزلي :
كَلِّىْ اَرَانِي وَيَكْ لَوْمَكَ اَلْوَمَّا هُم اَقَامَ عَلَى فَوَادٍ اُنْجَمَا
كصفات اوحدهنا ابي الفضل التي بَهَرَتْ فَاَنْطَقَ وَاَصْفِيَهْ وَاَفْحَمَا
وصفات ابي الفضل هذا انه يعطي من غير عدة ظنا منه ان السؤال
حرام على العطاء ، فيعطي قبل ان يسأل وان اعجلته اعطاك معذرا .
ويرى العظمة في ان يتواضع فيتواضع ، ويرى الضعة في ان يتعظم فليس يتعظم (١)
... وينتقل الى مخاطبته بحرارة :

يَا هَيْهَا الْمَلِكُ الْمُصْفَى جَوْهَرًا مِنْ ذَاتِ ذِي الْمَلَكُوتِ أَسْمَى مِنْ سَمَا
نُورٌ تَظَاهَرَ فَيْكَ لَا هُوِيَّةَ فَتَكَادُ تَعْلَمُ عِلْمٌ مِنْ لَنْ يُعْلَمَا
وَيَهْمُ فَيْكَ أَذْ نَطَقَتْ فَصَاحَةٌ مِنْ كُلِّ عَضْوٍ فَيْكَ أَنْ يَتَكَلَّمَا
كاد يؤله ابا الفضل ذا الجوهر المصفى من ذات الله والاسمى ، ومن
سما ، والذي تظاهر فيه نور ذى الملكوت فكاد يعلم الغيب ، وكاد هذا النوران
ينطق في كل عضويه . ورجل يمدحه ابو الطيب مدحا كهذا يجب ان يكون
رجلا خاصا وذا منزلة خاصة في نفسه ، ابعد من العطاء بغير سؤال . وهو
ان كان يستكشف ابا الفضل مذهبه بمدح يوجب الوهم — كما يعتقد الواحدى —
ليرى ما اذا كان يرضى بهذه الصفات ، فهو خبيث جدا بدون شك . .

٠١ العكبرى ، ديوان ابي الطيب المتنبي ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٣١ .

والذى نراه ان علاقة روحية اشبه بالجاذبية قامت بين الرجلين ،
فأثرت الواحدة في الاخرى فرأت فيها كما لا تشتهي . انه يرى في ابي الفضل
نفسه المتألهة التي يجب ان تكون لها هذه الصفات ، وذاك الجوهر المصنوع
من ذات الله ، او النفس التي ارادها او تخيل ان تكون كذلك . فهو غارق في
صفات ابي الفضل - الذى هو سه واضله ، حتى اذنيه ، يعود الى ذاته فيقول -
ولعله اراد ان يرى ابا الفضل ما توصلت اليه نفسه في مراحلها العلوية ،
ومدى ما فعلت فيها صفاته :

أَنَا مُبْصِرٌ وَأُظَنُّ أَنِّي نَائِمٌ	مَنْ كَانَ يَحْلُمُ بِالْأَلِهَةِ فَاحْلُمَا
كَبُرَ الْعِيَانُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّهُ	صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعِيَانِ تَوْهُمَا
أَذْكَارٌ مِثْلَكَ تَرَكْتُ أَذْكَارِي لَهُ	أَنْ لَا تَرِيدُ لِمَا أُرِيدُ مُتَرْجِمَا

انه يستعظم ما يرى فيه حتى صار اليقين توهما عنده ، فان كان احد
يرى الله في الحلم اراه انا كذلك - استعظما لرويته - ولكنه مثلك لا يرى (١)
وهو يعلم ما اريد فلا يحتاج الى مترجم ، فترك اذكاره اذكار بحد
ذاته . هذا الانغماس في " اوجدنا ابي الفضل " حقيق بان يقوده الى ادعاء
النبوة بعد ان بهرته صفاته وانجلي نوره ، كان كل عضو فيه ينطق بالضوء .
فشاعر كالمعتني يخرج من عند ابي الفضل هذا ممثلا هوسا وضلالا ،
ومن كتاب للعلويين مشبعا بالدعوة والوعد والحكمة ، ينتظر منه ان يخرج الى
البادية متنبئا ليشبع جوع نفسه الجديدة الى التأله والنبوة - تيمنا بأبي
الفضل الذى امدها بهذا الجوع والتي برزت في تجليه امام صفاته في القصيدة
- وليكبح جماح الثورة في هذه النفس منذ البدء . وهذا شعره الاول
وقصيدته (٢) :

١ . شرح العكبرى لديوان المعتني ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

٢ . المصدر ذاته ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

ببياض الطلي وورد الخدود
هَنَ فِيمَ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ
كَمَقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ
غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُمُودِ

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قُتِلَتْ شَهِيدِ
يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتِ
مَا مَقَامِي بَارِضِ نَخْلَةٍ إِلَّا
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكُهَا اللَّهُ

يشهدان على هذا التوق الى الكمال الاسمى ، ويدلان على الغربة الذاتية

— كغربة الانبياء — بين اقوام ضلوا وعموا عن الحق ، والهداية عليه هو .

وكان ان خرج الى كلب واقام فيها وادعى انه علوى حسني ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعي انه علوى الى ان اشهد عليه بالشام بالكذب في الدعوتين وحبس واستتيب واطلق (١) . وقد يكون ادعى العلوية — على طريقته الخاصة لا كما يريد ها العلويون الذين ارتبط بهم في الكتاب . ثم عاد اليها بعد النبوة ونحن نشك في عودته اليها ، فمن يدعي النبوة بالتمهيد بالعلوية لا يعود الى الاولى ، لانخداعه حيناً بتعاليمها التي كانت لا تزال حية في ذهنه الشاب . الا اننا بقدر ما نوؤ من بادعائه النبوة نشك في علويته . فقد يكون انه ما وصل الى ما اراد عندهم — اذ ان الوصول الى رتبة داعي الدعاة يستلزم المرور بمراحل معينة — اولم يصبر على ذلك . فخرج يدعو الى علوية جديدة مغايرة ، يفسر هذا ارتباطه الحذر بهم بقصيدي مدح وبارسالهم السودان له ليقتلوه في كقرعاقب . ونرجح انه في حال رفضه الدعوة لهم كما يريدون وخيفة ان يفضح تعاليمهم — لما له من سلطة شعرية وادبية — وشوا به الى السلطان حين اراد الخروج في بادية السماوة ، حتى ولو كانت هذه تهمة شاعت ، فكان ما كان . يبقى ان الجميع يتفقون على ادعائه النبوة ، وهذا التنوخي (٢) يذكر انه سمع بحلب والمعتبي فيها اذ ذاك انه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها الى ان خرج اليه لؤلؤ

١ . البغدادى ، ص ١٠٤ .

٢ . المصدر والصفحة ذاتهما .

امير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وانفره ، وشرد من كان اجتمع اليه من كلب
وكلاب وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه في السجن حبسا طويلا وسنقف
بعد قليل عند هاتين القبيلتين في احدى قصائد المتنبي لسيف الدولة لنرى
اثر خروجهم معه قديما في دعوته . ويذكر البديعي (١) في روايته عن نبوته
انه لما اشتهر امره وشاع ذكره وخرج بأرض سلمية من عمل حمص في بني عدى
قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكين ، وامر النجار بأن يجعل
في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف . فقال المتنبي :

زَعَمَ الْمُقِيمُ بِكُوتَكِينَ بَأَنَّهُ مِنْ آلِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ
فَأَجَبْتُهُ مَدَّ صِرَتٍ مِنْ ابْنَائِهِمْ صَارَتْ قِيُودُهُمْ مِنَ الصَّفْصَافِ

ولما صار معتقلا في الحبس كتب الى الوالي :

بِيَدِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْأَرِيبُ لَا لَشِيءٍ إِلَّا لِأَنِّي غَرِيبٌ
أَوَّلَامٌ لَهَا إِذَا ذَكَرْتَنِي دَمٌ قَلْبِي بِدَمْعَيْنِ يَذُوبُ
أَنْ أَكُنَّ قَبْلَ أَنْ رَأَيْتَكَ أَخْطَا تَفَانِي عَلَى يَدَيْكَ أَتُوبُ
عَائِبٌ عَابَنِي لَدَيْكَ وَمِنْهُ خُلِقْتُ فِي ذَوِي الْعُيُوبِ عَيْبُ

لعل هذا العائب هم اولئك الذين حملوا " زور الكلام " الى الوالي فكانت

شهادتهم على قدرهم .

اما قرآنه — في حال صحة الرواية — ببعض آياته ، والمعجزات الحيل
التي قام بها — وتكاد تصدق على بساطتها — ما هي الا وسائل عملية مباشرة
استطاع ابو الطيب ان يجمع الناس بها ليسير في الثورة التي ينشد . .
وها هو في حضرة سيف الدولة يعتذر للذين خرجوا معه في ثورته —
بعد النبوة — حين كان يجب عليه ان يذلهم في الشعر كما اذلهم الامير
بالسيف . ولكنه لم يهلل لهزيمة اعداء سيف الدولة كعادته لانه لا يستطيع

اولا نكران الجميل الذي اسدوه اليه ، ولان عرويته تمنعه من ذلك ثانيا ، ولانه
ثالثا لا يريد ان يشمت اعداء العرب بالعرب - يقول للامير بعد ظفري ببني
كلاب (١)

بغيرك راعياً عبث الذئاب
وما تركوك معصية ولكن
وبعد وصف قليل للمعركة :

وحفظك فيهم سلفي معد
وانهم العشائر والصحاب
الى ان يبلغ الاعتذار والاشفاق ذروته :

وكيف يتم بأسك في أناس
ترفق أيها المولى عليهم
وانهم عبيدك حيث كانوا
وعين المخطئين هم وليسوا
ولم ينس صولتهم بعد ان بالغ في استدراار الشفقة لهم والتبرير
لعملهم :

ولو غير الامير غزا كلاباً
ولا قى دون ثأبيهم طعاناً
وسوف يأتي هوماتي ابيه في العفو عنهم . ونحن نرد هذا الاعتذار

الى سبب اعق من الاشفاق ومن الشعور كعرب بنفس الذنب . انه يشاركهم
في المصيبة لانهم شاركوه مرة بها . سبب له خطورته وله جذوره في فعل
هام .

بين الثورة والنبوة في الحبس :

وهو في حبسه يلج الى ما فعل ولكنه لا يصرح ، فيتهم ويستعطف ولكن
بغير دها ، وسياسة (١) :

أَيَا خَدَّ دَ اللّٰهُ رَدَّ الخُدُودِ وَقَدَّ قَدُودَ الحِسانِ القُدُودِ
داعيا للامير بالسلامة من الدهر لا من الاعداء ، مصورا بليته ، مذكرا

اياه :

تَعَجَّلْ فِيَّ وَجُوبُ الحدُودِ وَحَدِّي قَبْلَ وَجُوبِ السُّجُودِ
وَقِيلَ عَدَوْتُ عَلَى الْعَالَمِينَ بَيْنَ وِلَادِي وَبَيْنَ الْقُعُودِ
العدو على العالمين لا يكون بالنبوة بل بالثورة . . .

فَمَا لَكَ تَقَبَّلُ زُورَ الْكَلَامِ وَقَدَّرَ الشَّهَادَةَ قَدَرُ الشُّهُودِ
فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ وَلَا تَعْبَأَنَّ بِمُحَكِّ الْيَهُودِ
حسدوه على ادعائه . .

وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى أُرْدَتْ وَدَعْوَى فَعَلَتْ بِشَاوِرِ بَعِيدِ
وَفِي جُودِ كَفَّكَ مَا جُدَّتْ لِي بِنَفْسِي وَلَوْ كُنْتُ أَشَقَى ثُمُودِ
يصغرا من نفسه عند الامير — لان من كان صبيا لم تجب الصلاة عليه

بعد ، لا يحد ، ولا يظن اجتماع الناس اليه للشفاق والخلاف — وهذا انفاق
من المتنبي ، او خبث سياسي على دها ، ولكن هذا لا يطول وقد اخفق به
عند كافور بعد ان منى نفسه طويلا بولاية . . . ولعل سيف الدولة وعده بشي
من هذا ، ففي قصيدة جوابية على رسالة من الامير يستدعيه فيها ، يقول :

فَهَمَّتْ الْكَتَابُ أَبْرَ الْكُتُبِ فَسَمِعَا لِأَمْرِ امِيرِ الْعَرَبِ

فهو كأبي فراس لم ينجح في الاعتذار حين حبس ، ولكنه يسفه وشاته داعيا الامير الى التفريق بين دعوى " اردت " ودعوى " فعلت " . والنبوة كما قلنا ليست ارادة ولا فعلا . انما الثورة كذلك . . فالمتنبى " اراد " الخروج على السلطان وحين هيا له ، بجمعه القبائل والسير بها ، وشي به وحبس . وقد تنبأ قبل ان يعمل للثورة ، كما اسلفنا مستغلا اهداف النبوة وموحياتها وتبعاتها ليثور . وهوان كان قد وجد نفسه وحيدا في امة تداركها الله ، " كصالح في ثمود او " كالمسيح بين اليهود " ، فليس لان الامة امعنت في الضلال وعليه هوان يحمرها من ذلك بالنبوة والثورة ، وانما لانه خرج ، براينا ، في صباه من اجواء خاصة ملأته روحانية ومثالية ، الى واقع شاذ غريب مغاير ، فأراد بعزم الشباب ان يهذب هذا الواقع ما استطاع فوقع على العلوية والنبوة والثورة واخفق في الجميع . وحين عمد النقاد الى شعره لم يغفلوا ادعاء النبوة فاستخفوا بها وبه . وما كنا ننتظر من الحاتمي والصاحب وابن وكيع ان يسكتوا عن تهمة كهذه لو لم تكن واقعا احتضنه العصر ، وما رفضه احد ، لا هو ولا الناس ولا النقاد . يقول ابن وكيع للذين ينفون عن ابي الطيب كل عجز : " وهذه صفة تتجاوز الصفات ، وتكاد تشبه المعجزات . ولو علم صدقها ابو الطيب من نفسه لجعلها اية له عند تنبيه ، ودلالة على صحة ما ادعاه من نبوته ، يتحدى بها اهل دعوته (١) " . وحين لامه على احدى سرقاته قال : " وكان استعمال الصدق في من اراد ان يسرق النبوة احسن به (٢) " . اليس ان النبوة كانت واقعا حقيقيا في حياة ابي الطيب ؟ لو كانت تهمة الصفت به لما سكت عنها هو ، كما قررنا ، ولا ابن وكيع ولا العصر برمته .

٠١ ابن وكيع التنيسي ، المنصف للسارق والمسروق منه في اظهار سرقات

ابي الطيب المتنبى ، ص ٢ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٣٨ .

علاقته بالعلويين :

واظهر علاقاته بالعلويين التحاقه بكتاب فيه اولاد اشراف الكوفة يتعلم
دروس العلوية شعرا ولغة واعرابا . واذا كان لابي الطيب ان يتلقى هذه
الدروس في صغره فلا بد من ان تطبعه بنوع معين من الاعتقاد والتصرف
والفكير . وان تلون نشأته وحياته الاولى بلون خاص يتضح كلما نما الصبي وكبر .
ولعل هذا الانفتاح المبكر على دروس العلوية ، والاتصال المباشر بأبي الفضل
الذي هو سه واضله ، والانتقال المفاجي الى جوالبادية المغاير للجوال الذي
نشأ عليه . هو الذي وطن نفسه الشابة الطموح ، ولها استعدادها الطبيعي
القوى ، على الخروج بالنبوة والثورة والشعر الذي ما هدا ابدا . واذا كان
قد انفصل عنهم لسبب خفي قبل ان يصل الى الرتبة التي يريد ، او خافوا عليه
ان يسبقهم الى الدعوة لنفسه لما له من جرأة وعزم وقوة ادبية ، او ان يفضح
تعاليمهم السرية ، اولانه رفض الدعوة لهم . ونرجح هذا الاعتقاد . فقد
انتقموا منه لدى السلطان بالوشاية ، وفي كفر عاقب بأرسال السودان له ليقتلوه .
وقد ظل يتجنبهم او يتوقاهم طوال حياته لذلك . وهذا قد يفسره اتصاله
الشعري النادر بهم ، سوى قصيدتين في اثنين منهم سنقف عندهما لتتبع هذا
الخط الدقيق .

يقول في محمد بن عبدالله العلوي في صباه :

أَهْلًا بدارِ سَبَّكَ أَغِيدُهَا أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرْدُهَا
لَهُ أَيْادِيَّ سَابِقَةٌ أَعُدُّ مِنْهَا وَلَا أَعُدُّهَا

جعل نفسه بعض نعمه ، وهذا برأينا نوع من نفاق المداحين ، او
واجب طبيعي تجاه عطاء جليل ، وقد عرفنا كيف مر المتنبي بحالات عسر شديدة
في صباه :

يُعْطِي فَلَا مَطْلَهُ يَكْدُرُهَا بِهَا وَلَا مِنْهُ يَنْكَرُهَا

وعطاياه على كثرتها لن ينساها :

أَقْرَّ جُلْدِي بِهَا عَلَيَّ فَلَا أَقْدَرُ حَتَّى الْمَمَاتِ أَجِدَهَا
فَعُدَّ بِهَا لَا عَدَمَتَهَا أَبَدًا خَيْرُ صَلَاتِ الْكَرِيمِ أَعُودُهَا

تدور القصيدة حول العطاء والجميل المفترض اظهاره وهذه العلاقة لا

نظنها بعدت عن حدود الصداقة التقليدية بين الشعراء والمدحون ، وقد تكون قبل ان بدأ العلويين ينكدون عليه عيشه الجديد .

وهناك قصيدة قالها في ابي القاسم طاهر بن الحسين العلوي تحت الحاح الامير ابي محمد الحسين بن طفيح الشديدة لعلها جاءت مناسبة قيمة - رغم تماطله - يستطيع فيها ان ينفس عن ضغط مكبوت في نفسه ، وان يقف امام وشاته وعائبيه واعدائه الجدد موقفا يريحه ، ويساعده على التحرر من همهم القائم في قلبه :

(١)
أَعْيِدُوا صَبَاحِي فَهُوَ عِنْدَ الْكَوَابِ وَرَدُّوا رُقَادِي فَهُوَ لَحْظُ الْحَبَائِبِ
الِيكَ فَأَنِي لَسْتُ مِمَّنْ إِذَا اتَّقَى عِضَاضَ الْإِفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْعُقَارِبِ
اظنه كنى بالافاعي عن السودان - الهلاك السريع بالقتل - وبالعقارب

عن الذين وشوا به الى السلطان سابقا - وهذا يرمز للعار عنده .

اتاني وعيد الادعياء وانهم اعدوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جد هم لحذرتهم فهل في وحدي قولهم غير كاذب
اذا علوي لم يكن مثل طاهر فما هو الا حجة للنواصب

" فهل في وحدي قولهم غير كاذب " ، لم يكذبوا عليه وحده ، بل

قولهم كاذب فيه وفي غيره . بقي ان هذا القول الكاذب هو الوعيد ، ولكن ما علاقة الوعيد بالنسب المدعى ولماذا ، لانهم ادعياء يكذبون في نسبهم ، لن يحذرهم .

نحن نعتقد ان الوعيد غير الاتهام • لم يتهموه بالنبوة لانهم لم يتهموا غيره بها ، كما نعلم • وهم كذبوا على غيره ايضا ، كمال يقول • فلا علاقة للعلوية بالنبوة عنده • وقد تكون علاقته الوحيدة معهم - كما اشرنا - انهم ارادوه ان يدعو لهم بعد ان انفصل عنهم وحين لم يفعل ودعا لنفسه ، توعده بالقتل في كفر عاقب وكانوا قد وشوا به قبلا بتهمة الخروج • فقد يحذرهم لو كانوا علويين حقا - لانه في حال الدعوة لنفسه او ادعائه النسب - وقد لاحظنا امر نسبه - يستطيعون تخطيطته او اتهمه ، ويكون ما يكون • اما انه لم يدع لهم - لانه يعرف حقيقة ادعائهم - فلن يحذرهم ، يؤكده ذلك انه ليس الوحيد الذي توعده ، ولعلمهم ارادوا غيره ان يدعو لهم كذلك •

وخلاصة ما نراه ان ابا الطيب المتنبي ابن سقا كوفاني من اصل وضيع • نشأ نشأة خاصة ركزت شخصيته على نوع معين من التفكير والتصرف ، وطبعت نفسه بطابع ثوري ، حكيم ، متحرر ، اغناء شعريا ومعنويا ، وافقره حياتيا • فأخفق في كل فعل شاذ دفعته الغربة الذاتية الى تجسيده وتعميمه • وانه ادعى النبوة - ويخف ترجيحنا لادعائه العلوية الحسنية - في طور الصبا الملائم للدعوة والثورة ، وانه استغل هذا الادعاء للخروج بالثورة الذي ظل هاجسا يعاوده ابدا ، وانه اراد الخروج فعلا - وقد جمع القبائل لذلك - فسجن ، وان كل هذا التراكم : من الانطلاق بعقدة الشعور بالنقص الى الطرف الاخر ، الى التعاضم وتعاطي كبر النفس ، ومن احتقار الغير والترفع الى حد عبادة الذات ، الى التنبؤ ، وما للنبوة من تبعات ، والثورة وما تفترض من ثبات واستمرار ميز الشاعر وافرده ، وجلب له حسد النقاد والشعراء والشماتة المبكرة مع الشهرة والمجد ، الى ان جنى عليه شعره فقتل بسببه •

واذا كان لهذه المظاهر الذاتية ان تكسب شخصيته الحاضرة افاقا وابعادا جديدة ، لم يستطع ابو الطيب ردها ، فقد تنبه النقد الى تحققها لديه ، والنقاد الى وقوعها عليهم - صاحب والحاتي مثلا - والمعنيون بحافل

شعره — كالمهليبي الوزير ومعز الدولة الخليفة — الى نزوعها عنهم ، فتأكدت للجميع ضرورة رد هذا الشعر الذي امتثل لها ، وهدمه واسقاطه . ومن هنا كان لنا ان نتلمس العلاقة الحاصلة بين الشاعر ، كمجموعة حية لهذه الابعاد الجديدة التي ميزها ضعف الاصل وكتمان النسب والنبوة والثورة ، والنقد الذي استجاب لموت ثرات هذه الابعاد ولتجسدها في صدوف الشاعر عنهم وعن امجادهم . بقي ان هذه الصفات التي تحققت لابي الطيب في مجالات النسب والنبوة والثورة والنشأة المميزة ، قد مكنت جميعها ردة الفعل في نفسه فتعالى وترفع ، وراح يحقق المجد الذي افتقده في هذه ، في الشعر الذي اقتدرت عليه عبقريته الشعرية وهمه الادبي الكبير ، وحين ترفع عن مدح غير الملوك ونزع عن الشعراء — بسبب عقدة التعالي التي اورثتها اياها هذه المظاهر — حقق لنفسه عداً الوزراء والامراء فاعزوا به النقاد والشعراء ، واندفع الذين حصلت لهم اذنيته مباشرة الى التصدي له والخط منه ، فكثرت النقد حوله وتكثف . وسرى كيف ان نماذج هذا العداً النقدي المشحون بالكراهية والحسد والاستجابة السلبية الواعية — بعد ربطها بين واقع الشاعر وواقع النقد وظروف اصحابه — قد تجلت في كل من البيئات الثلاث التي تناولت شعره بالنقد والتجريح . من بلاط سيف الدولة ، الى الحاتمي والصاحب وشعراء بغداد ، الى ابن حنزاية وزير كافور ، وغير هؤلاء ممن اوقد غروره وتعالاه في نفوسهم جذوة الحسد والحقد ، فمثلوا لها بنقد هم المعادي وتصديهم السليبي الجري للشاعر وشعره على السواء .

الفصل الاول

=====

في تصوير الحركة النقدية حول شعر المتنبي في القرن الرابع ، وعلاقة
هذه الحركة بالنقد العربي في هذا القرن ككل . .

- ١ - اسباب اهتمام النقاد بالمتنبي وكثرة النقد والشرح حول شعره .
- ٢ - النقد العربي في القرن الرابع الهجري .
 - أ - الحركة النقدية التي تولدت حول ابي تمام والتجدي .
 - ب - الحركة التي اختصت المتنبي وشعره .
- ٣ - قضايا النقد العامة .

اسباب اهتمام النقاد بالمتنبي وكثرة النقد والشروح حول شعره مع تصوير هذه الحركة،
لعل ابرزها في حركة النقد حول شعر المتنبي انها كانت فعلا وردة فعل ،
حتى ان الوساطة ، ومحاولات الاستقراء من خارج ، وعدم الالتزام ، او السكوت المبهم
- المقصود - كانت نتيجة طبيعية لهذا اللقاء الادبي بين الفعل وردة الفعل .
وكانه اتفق على تهذيب هذه الحركة فبرزت بجد واحكام في العراق ومصر والبيئة
الشامية . وكان لا بد لها من ان تنحصر - كما نرى - في اطر ثلاثة رئيسية هي :
الشاعر والشعر والنقاد . والتقت ظروف بعض النقاد بجوانب خاصة من شخصية
الشاعر ، فكان بعض شعره ، في الغالب ، ضحية ذلك . وقد شئنا ربط هذين
الاطارين - الشاعر والنقاد - لانهما متلازمان اصلا ، ولان بداية هذه الحركة
انطلقت من ظروف النقاد التي كيفتها ظروف الشاعر ومظاهر حياته الاولى - اما
الشعر فسنتركه للنقد الذي دار حوله ، وللحركة النقدية التي شملت العصر كله .
وسبب اهتمام النقاد بالمتنبي هو هذا السلك الذي ينتظم شعره والذي كان الشاعر
نفسه ، وذلك النضج الفني الواعي ، والشخصية النقدية الجديدة التي انبثقت
عن العصر الجديد ، الذي تلا محاولات النقد السابقة فأضاف ما اضاف . . وكان
لا بد للخط النقدي الواحد الذي تفرع الى مريدين ومبغضين من ان يفترض وسطا
معتدلا يفعل دون ان يفعل ، ويمعن النظر دون ان يشيح ، فيهدأ النقد الى
الموضوعية ما امكن ، والى الالتفات السليم ما استطاع . الا ان شخصية ابي
الطيب الشعرية التي افترضت جوا معينا ، كان لها ان تختزن حصة ثقافية راقية
تساند الموهبة التي تفتقت عنها عبقريته . واخبار تحصيله الاول وشاعريته المبكرة
افردت لها منزلة خاصة ، كان للنقاد ان يتطلعوا اليها ، حتى في حال الهوى
الجارف كما فعل الحاتمي والصاحب بن عباد . وقد انتهى ابو القاسم الاصفهاني

الى القول في ابي الطيب : " جملة القول في المتنبي انه من حفاظ اللغة ورواة الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب مستقاة من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة ، وهو قوله :

وَأَطْوَى كَمَا يَطْوِي الْمَجْلَحَةُ الْعُقْدُ

واما الحكم عليه وعلى شعره ، فهو سريع الهجوم على المعاني ، ونعت الخيل والحرب من خصائصه ، وما كان يراد طبعه في شيء مما يسمح به ، يقبل الساقط الرد كما يقبل النادر البدع ، وفي متن شعره وهي وفي الفاظه تعقيد وتعويض (١) .

وسنقف في هذا الحكم عند الخبر ، ولن نسعى الى النقد الا بما يفيد ماضي الشاعر الذي نريد . فأبو الطيب كان من حفاظ اللغة ورواة الشعر ، وطبعه الشعري يغلب عليه ، فيقبل الساقط والبدع ، وينزل كثيرا ، فينحط احيانا بمقدار ما يرتفع . وقد ورد في العمدية " ان ابا الطيب كالملك الجبار : يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، او كالشجاع الجريء يهجم على ما يريد ، لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع (٢) . " وقد كان الى ذلك كثير البديهيــــــــــــــــة والارتجال وشعره فيهما نازل عن طبقته جدا وهو رغم ذلك في سعة من العذر (٣) . وهذا صحيح في مجال الشعر ، ولكننا لا نعذره رغم ظروفه الخاصة التي شئت ذلك . فهو قد نشأ في خير حاضرة وانتقل الى خير بادية (٤) ، واكثر المقام فيها وطلب الادب وعلم العربية ، ونظر في ايام الناس ، وبلغ في شعره الغاية التي فاق اهل عصره وعلا شعرا وقته ، واكثر

-
- ١ . ابو القاسم الاصفهاني ، مخطوطة ، ورقة رقم ٨ . والغريب المصنف كتاب في اللغة لابي عبيد القاسم بن سلام . والجمهرى لابن دريد .
 - ٢ . ابن رشيق ، ج ١ ، ص ١٣٣ .
 - ٣ . المصدر ذاته ، ص ١٩٣ .
 - ٤ . الاصفهاني ، ورقة رقم ٢ . والبغدادى ، ج ٤ ، ص ١٠٢ و ١٠٣ .
والبديعي ، ص ٢٠ .

ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم ، ومهر في فنون الادب " وكان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشيتها ، ولا يسأل عن شي * الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل : ان الشيخ ابا علي الفارسي (١) ، صاحب الايضاح والتكملة قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟ فقال المتنبي في الحال : حجلي وظري . قال الشيخ ابو علي : فطالعت كتب اللغة الث ليال على ان اجد لهذين الجمعيتين ثالثا فلم اجد (٢) . واما شعره فهو في النهاية (٣) . ولكن هذه المعرفة لن تصمد امام النقد الا بمقدار عظمة الشعر الذي تفتق عنها . فالنقد لا يعرف الرحمة والا هوى . وحين تصدى الحاتمي والصاحب وابن وكيع والعميدى - فيما بعد - وغيرهم لشعرابي الطيب وجدوا فيه من الواهي السخيف - حتى العظيم المقتبس او المختلس - ما برر تحيزهم المتطرف الذي فرضته عليهم الظروف الخاصة والذي دفعهم اليه حسدهم الكثيف وحقدهم على ذوى النباهة والفضل . ومهما تكن اسباب هذا التطلع الزائد الى شعر الرجل فان حركة الفعل وردة الفعل التي نشأت حوله ميزت في عبقرية ابي الطيب تفردا شعريا خاصا ، ارتقى بالتذوق الشعري الجديد الى روح العصر الجديد ، بمقدار ما شد الذوق العربي الى اصالة التراث القريب العهد . وقد استطاع المتنبي ان يحتقب هذا التراث ويصهره في وجدانه - على تنوع حركات الشعر ومذاهبه - بالروح الجديدة ،

١ . هو الحسن بن احمد بن عبد الغفار بن سليمان ابو علي الفارسي النحوى . ولد بغسا من ارض فارس وقدم بغداد واستوطنها واخذ من علماء النحو بها وعلت منزلته في النحو . من تلاميذه عثمان بن جني وعلى بن عيسى الشيرازى . خدم الملوك ونفق عليهم وتقدم عند عضد الدولة . مات سنة ٣٧٧ هـ . ببغداد . صنف كتابا عجيبة حسنة لم يسبق الى مثلها واشتهر ذكره في الافاق . اورد له القفطي اسما ستة عشر كتابا . (انظر انباء الرواة ، ج ١ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ . وتاريخ بغداد ، ج ٧ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ . ونزهة الالباء ، ص ٢١٦ - ٢١٧) .

٢ . ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

٣ . المصدر ذاته .

ليقدم للناس وللنقاد شعرا جديدا ولكن ليس بالغريب ، شعرا لا يبعد عن جاهليتهم وامويتهم وعباسيتهم - بتطلعاتها الجديدة ، ولا ينأى عن رهافة الحس الحاضر ، والذوق الراقى الذى انتهوا اليه . فالشاعر والشعر ، والنقاد والنقد ، والذوق الادبي ، وروح العصر العامة ، كل هذه تجمعت - او جمعتها الظروف - وتكثفت في نقد مختلف الاهداف والمنطلقات ، وشرح متعددة الغايات والاتجاهات وكثر اللغط حول ابي الطيب وشعره ، وتنوعت الاراء ، فكان للقرن الرابع الهجري ان يضج بهذه الحركة النقدية الغزيرة لترتكز على اصولها فيما بعد كل الدراسات التي عالجت الشعر والنقد الذى استضافه ٠٠٠ وقد الفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده وردئه ، وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه والافصاح عن ابكار كلامه وعونه ، وتفرقوا فرقا في مدحه والقده فيه والنضح عنه والتعصب له وعليه ، وذلك اول دليل دل على وفور فضله وتقدم قدحه وتفرد به عن اهل زمانه بملك رقاب القوافي ورق المعاني ، فالكامل من عدت سقطاته والسعيد من حسبت هفواته ٠٠ (١) . وقد صور النقاد انفسهم هذا الانقسام الادبي حول شعره ، فكادوا يصنفون نقدهم ضمن هذه الحركة الثنائية - والتي فرضت الخط الثالث - بالمتعصبين له ، وعليه ، وباصحاب الوساطة او الاعتدال غير الملتزم . ونحن نعتبر الشروح وجها اخر للفعل في هذه الحركة ، الا انها على اتساعها وكثرتها تعدت المباشرة - كما في البدء - الى المراقبة ، بشكل تعليق او اضافة او تصحيح او تبويب جديد ٠٠ واعتنى العلماء بديوانه ، فشرحوه ، وقال لي احد المشايخ الذين اخذت عنهم : وقفت له على اكثر من اربعين شرحا ، ما بين مطولات ومختصرات ولم يفعل هذا بديوان غيره ، ولا شك انه كان رجلا مسعودا ، ورزق في شعره السعادة التامة ٠٠ (٢) . والناس

٠١ البيتية ، ج ١ ، ص ٢٩٠

٠٢ ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

وهو "لا" يختلفون في شعره فيفضله بعضهم على ابي تمام والبعض الاخر يفضل ابا تمام عليه ، وكان الموازنة يجب ان تشمل هذين الطائيين او الثالث الاخر — البحتري .

وقد ظل شعرا ابي الطيب يدعو الى نظر جديد ، وكذلك النقد والشرح التي بعثها هذا الشعر ، فكثر ما كان حوله " وقد انتدب العلماء " لديوانه ، وشرحوه شروحا كثيرة : فمنهم من تكلم على ديوانه اجمع ، ومنهم من تكلم على بعضه . . . ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الاسلام شرح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا تداول على السنة الادباء في نظم ونثر اكثر من شعر المتنبي . . (١) " وكان ابن جني اول من شرحه . . وقد ضم البديعي كتب النقد الى الشروح فبلغ عددها جميعا عنده واحدا واربعين كتابا سوى الشروح التي لم يسمع بذكرها (٢) .

وهكذا كان للمتنبي ان يشهد التأليف والنقد حول شعره ، وهو حي ، ولم تتوقف هذه الحركة رغم كثرة وتنوع ما قيل ويقال . " وفي الحق ان شاعرا عربيا لم يثر مثله مجادلات هامة وحية ، ولم يوح — خاصة — بهذا القدر من المؤلفات النقدية في العالم العربي وعند المستشرقين . . (٣) " .

وقد تكونت منذ حياة المتنبي — كما يضيف بلاشير — " اوساط معجبة به في حلب والفسطاط وبغداد وشيراز ، حيث كان ديوان الشاعر يشرح . . فاحيانا تبدو هذه العداوة بالصمت ، ويظهر ان ذلك كان حال ابي الفرج الاصفهاني الذي لم يذكر مرة واحدة شاعر سيف الدولة في كتابه العظيم الاغاني ، وحال المرزباني ايضا ان لم يشر الى المتنبي اية اشارة بخير او

٠١ البديعي ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

٠٣ بلاشير ، المقدمة ، ص ٢ .

بشر في كتابه : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (١) .
 الا اننا سنقف عند هذه العداوة الصامتة - والسكوت المقصود -
 لنضمها الى خط المتعصبين على ابي الطيب ، وهناك حادثة قد توضح ما رمى
 اليه بلاشير ، وما قصده الاصفهاني نفسه . وقد جرت في طريق المتنبي الى ابي
 الفضل بن العميد في مجلس المهلبى . . . فلما حصل المتنبي ببغداد نزل
 رضى حميد فركب الى المهلبى فأذن له فدخل وجلس الى جنبه وصاعد خليفته
 دونه وابو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الاغاني ، فأنشدوا هذا البيت :
 سقى الله امواها عرفت مكانها حراما وملكوها وبذر فالغمر
 وقال المتنبي هو جرابا وهذه امكة قتلتها علما وانما الخطأ وقع من
 النقلة . فأنكره ابو الفرج الاصفهاني - ثم يكون تعليق ، او مسامرة لغوية
 لصاحب الواضح - ثم عاوده اليوم الثاني وانتظر المهلبى انشاده فلم يفعل ،
 وانما صده ما سمعه من تماديه في السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء اهل
 الخلاعة والسخافة عليه ، وكان المتنبي مر النفس صعب الشكيمة ، حادا ،
 مجدا فخرج . فلما كان اليوم الثالث اغروا به ابن الحجاج (٢) حتى علق لجام
 دابته في صينية الكرخ وقد تكايس الناس عليه من الجوانب وابتدأ ينشده :
 يا شيخ اهل العلم فينا ومن يلزم اهل العلم توقيره
 فصبر عليه المتنبي ساكنا ساكنا الى ان انجزها ثم خلى عنان دابته ،
 وانصرف المتنبي الى منزله (٣) . مستعدا للمسير الى ابن العميد .

- ٠ ١ بلاشير ، ص ٥ .
 ٠ ٢ ابن الحجاج هو حسين بن احمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن
 الحجاج . من شعراء العصر البويهى ، غلب المجون والفحش على
 شعره . وكان هجاء خفيف الروح . توفي سنة ٣٩١ هـ . (انظر
 البيتية ، ج ٢ ، ص ٢١١ - ٢٢٠ . وتاريخ بغداد ، ج ٨ ، ص
 ١٤ . وابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٥٥) .
 ٠ ٣ الاصفهاني ، مخطوطة ، ورقة رقم ٤ .

هذا اللقاء يفضح حقد الاصفهاني وعداوته لابي الطيب ، وقد نرده اصلا الى حسد وغيره مكثفين بالكراهية برزا في الصمت المنتقم ، فغاب عن الاغاني اسم ابي الطيب المتنبي او اى شي* عنه . وقد يكون العلويين سألوا ابا الفرج ان يسكت عن ذكر الشاعر انتقاما ، وابو الفرج لتشيعه قد يرتضي هذا الطلب — ولعله كان يساير العلوية — والاستعداد حاصل في نفسه طالما انه يخبي* له حسدا وكرها . ففي اليوم الاول انكر ابو الفرج ما اوضح ابو الطيب ، وفي اليوم الثالث اغرى به ، مع زميليه ، ابن الحجاج ليتعرض له في صينية الكرخ ، فينصرف المتنبي وقد ربح عدا* جديدا . وقد اوضحت هذه الحادثة جوانب هامة من شخصية الشاعر ، كما اظهرت سبب صروفه عن مدح المهلبى الوزير . هذه الجوانب التي ولدها شهره العميق بضعف الاصل على عبقريته الشعرية الحاضرة — وبهذا يمكن ربط كتمان نسبته ، للأسباب التي ذكرناها — وادعائه النبوة ، ومسيرته الثورية ، بالشخصية الجديدة المكتسبة ، التي سببت له عدا* بعض النقاد والشعرا* ، واورثت شعره هذه الثروة النقدية التي كثر فيها التعصب والتحامل والهوى الطائش* . ومع ذلك لم يظل النقد ملتزما هذا الصمت العاتب ، بل انتقل الى دور الهجوم ، بعنف من لم يعد يخشى رد الشاعر الذى مات ، وقد بدأ ذلك ابن عباد الذى لم يغفر لابي الطيب انه فضل عليه الوزير ابن العميد ، فحوالي سنة ٣٦٤ هـ صنف مؤلفا صغيرا سماه : الكشف عن مساوى* المتنبي — بنقد ديوان المتنبي* (١) . ويذكر للحاتمي رسالة الموضحة ثم الرسالة الحاتمية — التي لا يعرف اسمها الحقيقي — وهي في ذكر سرقات المتنبي من ارسطو . اما الرسالة الموضحة وهي اعظم خطرا

من الثانية فهي اول رسالة وافية صفت في نقد شعراي الطيب • وهي بهذا المعنى يمكن ان تعتبر اصلا لجميع الدراسات النقدية التي تلتها ، والتي فيها اصحابها في نقد شعر المتنبي ، كرسالة صاحب بن عباد (٣٨٥ -) "الكشف عن مساوي المتنبي" و "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٩٢ هـ) والفصل المطول الذي اوردته الثعالبي (٤٢٩) في الجزء الاول من "اليتيمة" وكتاب "الابانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى" لابي سعد العميدى (٤٣٣ -) ، و "منصف" ابن وكيع (٣٩٣) في البيئة المصرية كذلك (١) .

فرسالتا الحاتمي - والموضحة اسبق - الفتا في حياة الشاعر بعد ان جرت المناظرات ، وزاد عليها الحاتمي ما شاء (٢) . ولعله رجع الى ضميره النقدي في الثانية فأدى للمتنبي خدمة رائعة مشكورة ، كناقده بارع ، ورائد واع لاحدى ابرز خصال المتنبي الشعرية واهمها - المنحى الفلسفي في الشعر الغنائي •• ولا شك ان رسالة صاحب بن عباد الفت بعد وفاة الشاعر بزمان غير قصير ، في اواخر الستينيات من القرن الرابع دون تحديد (٣) وانها ليست الاولى في الدراسات النقدية حول شاعر الكوفة - كما يقرر الاستاذ بلاشير - تؤكد ذلك مناظرات "الموضحة" العملية ، وعمليات النقد فيها كما شاءها الحاتمي - بحضور ابي الطيب - وضمنها الرسالة ••• يبقى ان تأليف القرن الرابع النقدية وشروحه الشعرية لديوان ابي الطيب - وقد بلغت حوالي العشرين (٤) ، اخذ يظهر بعضها المفقود او المخطوط -

- ١ . الدكتور محمد يوسف نجم ، مقدمة الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي وساقط شعره ، لابي علي محمد بن الحسن الحاتمي الكاتب ، ص • و (من المقدمة)
- ٢ . سيظهر ذلك عند تعرضنا للرسالة فيما بعد •
- ٣ . يضع بلاشير سنة ٣٦٤ هـ كتاريخ تقريبي - كما مر - ولا نستطيع القطع بذلك •
- ٤ . بلاشير ، ص ٦-٢١ •

اثبتت فعاليتها كنواة حية لحركة النقد حول شعر المتنبي بشقيها الاساسيين والوسط الثالث — كما تظهر ذلك المؤلفات المتأخرة — وحملت معها الظن بوجود خط خفي يجمع منطلقات المتعصبين على الشاعر، كحلقة اخيرة في سلسلة التطلع الى الخصوصية والتفرد في حياة الشاعر ونشأته ودعوته وثورته وعلاقته الغامضة بالعلويين كما اسلفنا . وتبقى قيمة هذا النقد بمقدار بعده عن المنطلق الخاص — الاسباب المباشرة للنقد — ولصوقه بالموضوعية الفنية والوعي الادبي السليم . وليست الميول الشخصية والاثرا الذي ينتج من تقويم كل بيت وحده لا في قصيدته ، والتصميم على الا يسامح المتنبي فيما سوح فيه غيره ، والقسوة المتناهية التي حكم بها على مبالغات الشاعر في المدح ^(١) ؛ هي الاسباب الوحيدة الحقيقية لهذه الخصومة النقدية . بل هي وهذا الكل المترابط الذي يضم الى حياة الشاعر — بأبرز خصائصها — ظروف النقاد ، وحركة النقد في العصر ، والشعر الذي اتيح له " ان يكون جماعا لمذاهب الشعر العربي جميعا ، واتيح له — للمتنبي — ان يملك نواصيها كلها في توفيق نادر وملكة طيبة . (٢) " لقد فرض شعر المتنبي نفسه على النقد ، وحين لجأ النقاد اليه — على اختلاف مذا هبهم وميولهم — وجدوا فيه ما ارادوا ، فشهدت الاوساط العربية واوساط الاستشراق هذا الحشد الادبي حول شاعر الكوفة ، انطلاقا من مخلفات القرن الرابع التي ركزت نفسها كأساس اصيل لهذه الحركة ككل .

وسنعمد الى تحليل هذه الاصول الادبية وتقييمها لتلمس المدى الذي شغلته في نقد شعر المتنبي وفي النقد العربي الذي تلاها ، معتمدين على اهم ما وصلنا من الرسائل والشروح في هذا العصر الذي شهد فيه المتنبي النقد وهو حي .

١ . بلاشير ، ص ١٤ .

٢ . اميليو غرسية غومس ، الشعر الاندلسي ، ص ٢٣ .

النقد العربي في القرن الرابع الهجري :

لعل المظهر الديالكتيكي المتمثل بحركة الفعل وردة الفعل والوسط ، هو الطابع المميز لحركة النقد في القرن الرابع الهجري ، انطلاقاً من اكبر حركتين ادبيتين في العصر ، تركزت الاولى حول ابي تمام محصور الصراع والخصومة الفنية بين الحديث الذي يمثلُه هو ، والقديم الذي يمثلُه البحتري ، والثانية حول شاعر الكوفة الذي فرض مع شعره النقد الذي توج هذه الحركة ككل . ولسنا نرد هذه الظاهرة الجدلية الى ارادة نقدية خاصة ، او وعي ادبي جماعي . او نضج علمي مميز ، بل الى الطبيعة الانسانية العامة ، او الشخصية الادبية الواعية في حال استجابتها او تعرضها لهذا النوع الرائع من الفن او ذاك . فقد حسبت على العصر سوا شأها النقاد ام لم يشأوا . ونحن نعتبر هذه الظاهرة العفوية دليل عافية نقدية ، ومنهجية اصيلة تخطت مع الامدى والجرجاني ، والحائمي والصاحب في رسالتيهما الاخيرتين عن ابي الطيب ، مجال الانغلاق على الذات والتراث ، والتأثر الذوقي العاجل الى الموضوعية المتزنة والاعتدال الحسن . حتى ان الذين سلكوا خط العصبية حفل النقد بذوقهم الفني الرائع وشجاعتهم الادبية القادرة على الكشف والاستقراء والملاحظة ، ناهيك بالموروث الثقافي الضخم ، والاستعداد الادبي المخلص للنقد والشرح .

ونكاد نصنف عملية النقد هذه تحت موضوعية معينة ، لتفرغها الواعي الجاد لمنهجها المفترض ، يدعمها الردى المتوفر من شعر الرجل ، لولا انها اقتصرت على السيئات دون الحسنات او العكس ، وجهدت الى تبرير كل ذلك على حساب النقد والشعرا اكثر الاحيان . يبقى ان هذه الظاهرة التي شملت العصر الادبي بحركتيه الكبيرتين هي التي اثبتت منهجية النقد العربي

الجديد ، وموضوعية اعماله ، غالبا ، وعلى ايدى المختصين من الادباء والنقاد .
وصارت الموازنة هاجس النقد التطبيقي يعاود الامدى كلما التزم اسلوبه الفني
فيقول : " . . . اما انا فلست افصح بتفضيل احدها على الاخر ، ولكي اكارن
بين قصيدة وقصيدة من شعرهما اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية ،
وبين معنى ومعنى ، ثم اقول : ايهما اشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى .
ثم احكم انت حينئذ ان شئت ، على جملة ما لكل واحد منهما اذا احطت علما
بالجيد والردى " . (١) . وكذلك الجرجاني حين يقف بين القديم والحديث ،
والجاهلي والمخضرم ، والاعرابي والمولد دون ان يميل ، وحين يوازن يسألك
ان تفاضل ، فلا ينسى كقاصفة العدل والاعتدال : " . . . وانت اذا قست
ابيات ابي الطيب بها — بقصيدة عبد الصمد بن المعذل في الحمى — على
قصرها ، وقابلت اللفظ باللفظ والمعنى بالمعنى ، وكنت من اهل البصر ،
وكان لك حظ في النقد ، تبينت الفاضل من المفضول . فأما انا فأكره ان ابت
حكما او افضل قضا ، او ادخل بين هذين الفاضلين وكلاهما محسن
مصيب " . (٢) . فالشاعر امام هذين الناقدين مسؤول اولا واخرا عن شعره
لن تشفع فيه حداثة ولا قدم ، لقد تخطى النقد في القرن الرابع الزمان
والمكان والشاعرية ككم ، الى النوعية والاصالة ، ومقدار الجودة والاضافة
الى التراث الذي صدر عنه الجميع . . . والتفت النقد الى النقد مع الشعر ،
فتنبهوا الى ما يحاك حوله ، ونشطت حركة الفعل وردة الفعل بطريقة
الاستجابة لمؤثر في حال بعض النقد الذي دار حول شعرا ابي الطيب ،
فكثرت التأليف والشروح وتفردت بعضها بنوعية خاصة تستحق النظر . فما
كاد ابن جني يشرح ديوان استاذ بهوى خاص ويؤلف رسالة يدرس فيها

٠ ١ الامدى ، الموازنة بين شعرا ابي تمام والبحترى ، ص ٧ .

٠ ٢ الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ١٢٢ .

الفنون الشعرية التي تناولها الديوان^(١) حتى انبرى له النقاد يخطئون حيثما ويعيبونه احيانا اخر ، فما وفره حاسد ولا حاقد على ابي الطيب واذا هنالك عدة رسائل في الرد عليه وفي الدفاع عنه . يقول الاصفهاني : " ان بعض انشاء خدمة بها الدولة " التمس من عثمان بن جني استخلاص ابيات المعاني من ديوان شعر المتنبي — ولعلها الرسالة نفسها التي ذكرها بلاشير — وتجريد ها ووضع اليد عليها وتحديد ها ليقرب متناولها ، فأجابه الى ما طلب وفعل بقدر امكانه واتجاهه له ، ثم قرأه علي من تصرف في جلايل الامور وسياسة الجمهور ، فوقعته منه على صواب وخطأ ، فأملت فيه كتابا ترجمته بالواضح في مشكلات شعر المتنبي^(٢) . وقد بدأت بذكر المتنبي ومنشأه ومغتربه ومضطربه وما دل عليه شعره من معتقده الى مختتم امره . ثم اردفه بتفسير مشكلاته ، والشرط فيها ان اورد في كل بيت البتة لفظ ابي الفتح عثمان بن جني بلا زيادة ولا نقصان ، ثم اتعقبه بما يقتضيه النظر وشواهد الشعر والعربية .^(٣) " وسنقف فيما يلي عند رسالة الاصفهاني لنتلمس فيها مذهب المؤلف ، ومنهج ابن جني في الشرح الرائد الذي تجمعت حوله كل هذه التأليف التي سيعمر بها العصر . قال ابو القاسم : اعلم ان المعاني مطروحة نصب العين وتجاه الخواطر ، يعرفها نازلة الوبر وساكنة المدر ، والقرائح تشترك فيها ، وانما المعنى في سهولة مخرج اللفظ وكثرة الما وجودة السبك .^(٤) " فهو يشارك العسكري نظرية الجاحظ في اللفظ والمعنى ، يقول ابو هلال في المذهب اللفظي : " . . . على ان المعاني

-
- | | |
|---|--|
| ١ | بلاشير ، ص ١٠ . |
| ٢ | الاصفهاني ، مخطوطة ، ورقة رقم ١ . وهذا هو اسم الرسالة الحقيقي وليس كما هو معروف بين النقاد لان . |
| ٣ | <u>المصدر ذاته</u> ، ورقة رقم ١ . |
| ٤ | <u>المصدر ذاته</u> ، ورقة رقم ١٥ . |

مشتركة بين العقلاء — ويطلب لها الصواب — فرما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي ، وانما تتفاضل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها . وقد يقع للمثاخر معنى سبقه اليه المتقدم من غير ان يلم به ، ولكن كما وقع للاول وقع للاخر . . . (١) . واكثر من ذلك ، يقول " . . . وليس الشأن في ايراد المعاني ، لان المعاني يعرضها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقاؤه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من اود النظم والتأليف . . . (٢) . وهذه احدى اكبر مشكلات النقد في كل زمان ، الا انها لم تكن الوحيدة التي شغلت بال النقاد العرب في القرن الرابع . اما طريقة ابن جني في شرح الديوان فقد لخصها الاصفهاني ببراءة . قال : " لابي الفتح ثلاث علل اتخذها قواعد في شعر المتنبي اذا ضاق به الامر ، احداها : انه يحيل المعنى على الفسر الكبير ، والثانية ان يقول : بهذا اجابني المتنبي عند الاجتماع ، والثالثة ان يقرن بالبيت مسألة في النحو يستهلك البيت واللفظ والمعنى . . . (٣) . او كما لاحظ نفس الطريقة في مكان اخر : " قاعدة علل ابي الفتح اذا اعياء معنى البيت ان يسند الى المتنبي او يقول هذا حصلته عليه ، او يقول بهذا اجابني وقت الاجتماع معه ، والطريق يتعلق بما يرى . . . (٤) . والذي يهمننا من الشرح الان طريقة ابن جني كما يراها احد نقاده ، وكونها الهمة الكثيرين الرد عليه . وقد اضطر الى تأليف رسالة اخرى (٥) يفند فيها هجمات ابن وكيع على ابي الطيب الشاعر

- ١ . العسكري ، كتاب الصنائع ، ص ١٩٦ .
- ٢ . المصدر ذاته ، ص ٥٢ — ٥٨ .
- ٣ . الاصفهاني ، ورقة رقم ١١ .
- ٤ . المصدر ذاته ، ورقة رقم ٢٣ .
- ٥ . بلاشير ، ص ١٠ . سرجع الى رسالة ابن وكيع والشرح فيما بعد .

وعليه كشارح .

وفي هذا الباب يكتب المقيم رسالة " الانتصار المبني عن فضل المتنبي " (١) وحمزة ابن محمود الاصفهاني " رسالة في كشف عيون المتنبي " ومحمد المغربي تلميذ المتنبي في بغداد كتابين : " الانتصار المبني عن فضائل المتنبي " و " بقية الانتصار ، المكثرات الانتصار " وكتابا ثالثا يعارض اتجاه الاولين وهو " التنبيه المبني عن رذائل المتنبي " . ويعتقد بلاشير ان هذا الموقف المغاير قد يكون نتيجة تطور ، او اظهار لرغبة عدم التحيز عند المغربي (٢) . ويصف ابو بكر الخوارزمي شرحا مفقودا (٣) يخدم ابا الطيب ويضع الوحيد كتابا مماثلا على اساس شرح ابن جني الذي صار اصلا لدراسة المتنبي في الشرق (٤) . ومقابل هذا الميل الادبي لشاعر الكوفة اتخذت ردة الفعل شكل الهجوم المزدوج فتعرضت للشاعر والشارح . فيؤلف الربيعي مصنفا يدعو : " التنبيه على خطأ ابن جني " (٥) ويكتب التوحيدى الرد على ابن جني (٦) وكذلك العروضي الذي يمل في شرحه ملحوظات قاسية ضد ابن جني (٧) ، ويرجح بلاشير ان يكون مؤلفا محمد الهروي ومحمد الهرشي ، وكلاهما تلميذ لابي بكر الخوارزمي ، ككتاب العروضي في نقد كتاب ابن جني (٨) . وهناك دراستان كتبهما ابن فورجة عنوان احدهما : " التجني على ابن جني " .

- | | |
|-----|---------------------------|
| ٠ ١ | بلاشير ، ص ١١ . |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ١٤ . |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ١٧ . |
| ٠ ٤ | المصدر ذاته ، ص ١٨ . |
| ٠ ٥ | المصدر ذاته ، ص ١٩ - ٢١ . |
| ٠ ٦ | المصدر ذاته ، ص ١٩ - ٢١ . |
| ٠ ٧ | المصدر ذاته ، ص ١٩ - ٢١ . |
| ٠ ٨ | المصدر ذاته ، ص ١٩ - ٢١ . |

والاخرى : "الفتح على ابي الفتح " . يضاف الى كل هذا ما كتبه العسكري عن ابي الطيب حيث يقول : " ٠٠٠ ولا اعرف احدا كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث الا المتنبي ، فانه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما اعدمه شيئا منها حتى تخطى الى هذا النوع فقال :

وَيُسَعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سُبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ
فَاتَى مِنَ الْاِسْتِكْرَاهِ بِمَا لَا يَطَارُ غَرَابُهُ (١) ٠٠ وقد كان بإمكان

العسكري ان يعتدل دون ان يلتزم ، لولا انه اراد التجني على ابي الطيب . فقد اورد له حسنتين فقط ، مشيحا عن بقية احسانه ، بيت في حسن الابتداء وهو :

أَرَيْكَ أَمْ مَاءُ الْغَمَامَةِ أَمْ هَمَرُ بَغْيِي بَرُودٌ وَهُوَ فِي كَيْدِي جَمَرُ (٢)
وصدر البيت نفسه في تجاهل العارف ، واطال في التمثيل على معانيه ومساوئه مركزا على "ابتداءات المصائب وفراق الحبايب" (٣) عنده ، مغفلا ذكر اسمه معظم الاحيان .

وهذا التطلع النقدي العابر من ابي هلال — فهو لم يفرد لابي الطيب شرحا او نقدا خاصا — يفيدنا في تصوير هذه الحركة وتأثيرها العفوي العام في ادباء القرن الرابع وخاصة البلاغيين الازكيا امثال العسكري نفسه . والذي يستوقفنا طويلا في هذه الظاهرة هو هذا الخط النقدي المتعصب والمخصص للمتنبي ، الشاعر المسؤول عن الشعر الذي ابقى عليه . هذا الخط المميز (٤) تبلور على يد الحاتمي في "الموضحة" و"الحاتمية" والصاحب

-
- | | |
|-----|---|
| ٠ ١ | العسكري ، ص ١٦٠ . |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ٤٣٥ . |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ٤٣٥ . |
| ٠ ٤ | سنقف عند هذه الرسائل في تعرضنا للبيئات النقدية ورسائل اصحابها . |

بن عباد في "الكشف عن مساوي المتنبي" وابن وكيع في "المنصف للسارق والمسروق من شعر المتنبي" والعميد في رسالة متأخرة . وعند هذا النزاع الذي تمثل بالفعل والردة يتوسط نوع من النقد معتدل ، يحاول الالتزام بقدر موضوعية النهج الذي تبناه ، والموازنة بقدر الشعر المعتمد ، والوساطة بقدر الخصومة التي كلفتها ظروف الشاعر والنقاد . وقد اعتمد هذا الوسط علي بن عبد العزيز الجرجاني في "الوساطة بين المتنبي وخصومه" كمنهج متكامل يوازن ويحاول دون ان ينزلق الى تقارير عقيمة او تعميمات شاذة . وكان للثعالبي ان يحتذى الجرجاني ، ولكنه كان ضعيف الشخصية (١) ، فاعتدل بعد ان ارفق حياة المتنبي بتمثيل على سرقاته من الشعراء وسرقاتهم منه ، وتصوير لمعايبه ومحاسنه ، بطريقة موضوعية عملية تجنب فيها الهوى فلم يلتزم او يتحيز ، وجاء الفصل المطول الذي كتبه في "يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر" مثالا نقديا بارعا للحياة الادبي ، والتفرج الواعي من خارج دون ميل او هوس ، وتمثيلا اخر لما انتهت اليه حركة التنازع الادبي حول شاعر الكوفة .

والذي انتهى عند المتنبي كان قد بدأ مع ابي تمام ، الظاهرة نفسها التي عمت العصر كله . يولف ابن ابي طاهر رسالة يخرج فيها سرقات ابي تمام (٢) فيخطيها في بعضها ويصيب في البعض الاخر ، لانه خلط الخاص من المعاني بالمشترك بين الناس مما لا يكون مثله مسروقا . ويصنف الصولي رسالة في "اخبار ابي تمام" يخدم فيها الشاعر ، ويكون على الامدى ان يكتب "الموازنة بين شعرا ابي تمام والبحتري" ليحدد من شدة الصراع حول القديم والحديث ، فيتخذ النقد شكلا جديدا : النقد التطبيقي ، وما يستلزمه من دقة المنهج وموضوعية البحث ، وعمق الفكرة ، واصالة الرأي ، وحسن العرض ، وبراعة

٠١ بلاشير ، ص ١٦ .

٠٢ الامدى ، ج ١ ، ص ١١٠ .

الاسلوب ، والحكم الوجيه بأى طريقة تحد من مفاجأة التقرير وجفافه . ويختلف الناس في تحديد موقف الامدى من الشاعرين — وقد اوضح مذهبه صراحة — ولكنه يصوره ببراعة خفيت على بعض طالبي رأيه ، وارضت بالوقت ذاته ضميره النقدى . يقول في ختام باب وصف الديار وساكنيها : " . . . واقول الان في الموازنة بينهما : ان اهل الصنعة يفضلون كل ما قاله ابواتام على اكثر ما قاله البحتري في هذا الباب ، ويقولون : ان ابا تمام استقصى الوصف في نعوت النساء واحسن واجاد . وقد كان ذاك لعمري مع ما فيه من الاساءات والالفاظ الرديئة التي ذكرتها . والمطبوعون واهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والاغراق في الوصف ، وانما يكون الفضل عندهم في الالمام بالمعاني واخذ العفومنها كما كانت الاوائل تفعل ، مع جودة السبك وقرب المأتى . والقول في هذا قولهم واليه اذهب . . (١) " .

اما القول في ان تهمة التعصب الصقت به مؤخرا بعد ان غلب مذهب الصنعة والتكلف على الادب العربي ، كما يعتقد مندور (٢) غريب ، لان الامدى انطلق من مذهب معين حدد له في اكثر من موضع ، واوما الى موقفه من الشاعرين في اكثر من مناسبة . يقول في مساوى ابي تمام الشعرية " . . . فان الشاعر قد يعاب اشد العيب اذا قصد بالصنعة سائر شعره ، وبالابداع جميع فنونه ، فان مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجه سهل التأليف الى سوء التكلف وشدة العمل . . (٣) " . هكذا يرى الشاعر ، اما الشعر فليس عند اهل العلم الا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في

-
- ١ . الامدى ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .
 - ٢ . محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، ص ٩٦ .
 - ٣ . الامدى ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

مواضعها ، وان يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله ، وان تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافية لمعناه ، فان الكلام لا يكتسي البهاء والرونق الا اذا كان بهذا الوصف ، وتلك طريقة البحتري (١) .

واذا تفرغ للنقد نقاده الحقيقيون اتخذت قضايا المتعددة طابع الجد والمعاناة فعولجت قدر خطورتها الادبية ، وصار ينظر الى الشعر بذهنية جديدة استفادت من عمق المحاولات السابقة ، وفرضت تطورها الادبي ونضجها العلمي والعقلي على اعمالها المسؤولة ، فازدهر النقد وتجوهر ، وتخطت الموازنة ماضي التقسيم الى طبقات والتصنيف في ابواب ، والمفاضلة العاجلة واحكامها العفوية ، الى الدرس والتحليل والمقارنة ، والتجرد — في الغالب — والحكم بحرية — كل حسب ظروفه — على العمل الادبي دون مراعاة او مراعاة — فلا يوفر الامدى زلة او سقطه تحضره عن ابي تمام او البحتري الا ويعرضها للنقد والموازنة ، ولا يغفل عن الحسنة فلا يفيد منها . ويجتهد الحاتمي في البحث عن سرقات ابي الطيب — ويكاد يقتلعها احيانا — فلا تفوته واحدة تخطر له . ويكاد الصاحب يختلق الاذية ويقتلع السرقة او السقطة ، فلا ينجو المتنبي من عيب او تجريح . وكذلك ابن وكيع والعسكري ، حتى الجرجاني والثعالبي — على هدوء وترو واعتدال — لا يفوتهما النظر الى المعائب والقلائد ، فلا يقصر النقد عن شمولية وبعد نظر . وسواء اكانت اجتهادات هؤلاء النقاد سليمة ام خاطئة في مجالها الادبي فان المحاولة او الطريقة صحيحة في سيرها ومغزاها . انها صورة النقد الجديد المجتهد المخلص .

سواء تعصب او توسط . الا ترى الى الفرق الحاصل بين تسرع الماضين وتروى المحدثين . ذاك تشده الحالة الموسيقية الحاضرة الى عاطفته المائعة فلا

يستطيع كبت انفعال ، او تهوس تعليق سريع مؤقت ، او تروقه صحة المعنى وشرفه وقرب التشبيه وسهولته فتسهل لديه الالقاء ، وتعدد الاحكام وتتقلب . ويبقى النقد ذلك التعبير الذوقي الساذج عن الحالة التي ولدت الانفعال السريع . وهذا يفرض عليه النقد النظر والمعاناة ، والدقة والاصولية ، فيتردد عدلا ، حتى ان يحكم ولكنه لا يتبرأ من التزام ، فيتخذ النقد شكله الاصيل ، ويكون للقرن الرابع ان يشهد هذا الحشد النقدي السليم — بغض النظر عن النوعية مؤقتا — وان يتوج محاولات التراث واستعداداته ، فارضا نفسه على النقد اللاحق — على الاقل بالنسبة لما دار حول شعر المتنبي — .

واكثر ما تجرأ عليه النقد الحديث ان يخرج على بعض قواعد الشعر التي وضعها السلف ، وان يعالج قضاياها الثابتة بالروح الجديدة التي فرضت شخصيته النقدية المميزة لقد انطلق اصحاب هذه الروح من التراث — كل على طريقته — يقومون معوجه بكشفهم الجديد ، ونقد هم المعتمد ، ونظرهم الاصيل الى احوال الشعر ومقوماته ومواصفاته . ولم تعد فحولة الشعر لشاعر او لآخر ، ولا الشعر لالتزامه بالعمود الشعري المصطلح او لقدميته او كثرته او جلالة قائله ونسبته . فعدي بن زيد لا يستشهد بشعره لانه سكن الحيرة (١) ومزرد اخو الشماخ افسد الشعر لانه هجا الناس (٢) . وجريير الفرزدق والاخلط لو كانوا في الجاهلية لكان لهم شأن (٣) . ولو قال ثعلبة بن صعير المازني مثل قصيدته خمسا لكان فحلا (٤) . ومعقر الباقلي حليف بني نمير

١ . الاصحى ، فحولة الشعراء ، ص ١٩ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٢١ .

٣ . المصدر ذاته ، ص ٢٣ — ٢٤ .

٤ . المصدر ذاته ، ص ٢٣ . قصيدته الرائية المشهورة وهو من الصحابة

المخضرمين ومن شعراء الفضليات .

لواتم خمسا او ستا لكان فحلا (١) وكذلك كعب بن سعد الفنوي الذي ليس فحلا
الا في المراثية فإنه ليس في الدنيا مثلها (٢) ، ومثله اوس بن غلفاء الهجيمي
الذي لو قال عشرين قصيدة للحق بالفحول ولكنه قطع به (٣) . والفحل عند
الاصمعي من له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقاق (٤) . اما الشعر فقد
اراده الاصمعي هكذا : اجود الشعر ما صدق فيه وانتظم المعنى كقول امرئ
القيس :

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيْبًا وَأَنْ لَمْ تَطَّيِّبْ (٥)

وهذا الكميث بن زيد ليس بحجة لانه مولد وكذلك الطرماح وعكسم ذو
الرقعة لانه بدوى ولكن ليس يشبه شعره شعر العرب الا واحدة (٦) . والموازنة
لها شأن اخر ومفهوم خاص عند الاصمعي (٧) لا تتعدى الاستجابة العفوية —
كحكم صادر عن خبير بالشعر سواء نطق بما يعتقد او انطقته الحالة الحاضرة —
لمؤثر سريع محرك ، والاطلاق المستحب للتعميمات والتقريرات الفجائية ،
يقول : ذهب امية بن ابي الصلت في الشعر بعامة ذكر الاخرة ، وعنترة
بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن ابي ربيعة بعامة ذكر النساء (٨) . وهذه

-
- | | |
|-----|--|
| ٠ ١ | الاصمعي ، فحولة الشعراء ، ص ٢٦ . |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ٢٧ . ومراثيته المشهورة بائية يرثي بها اخاه . |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ٢٨ . |
| ٠ ٤ | الاصمعي ، ص ١٣ . والحقاق جمع حق وهو ما كان من الابل ابن ثلاث
سنين وقد دخل في الرابعة . |
| ٠ ٥ | المصدر ذاته ، ص ٤٦ . |
| ٠ ٦ | المصدر ذاته ، ص ٣٩ — ٤٠ . |
| ٠ ٧ | اخرناه في فحولة الشعراء كمثل لامع لحركة النقد القديم والذي يعتبر
كتابه هذا من اقدم الكتابات في النقد العربي . |
| ٠ ٨ | الاصمعي ، ص ٣٥ . |

البدائية في الحكم النقدي جاء تطورها عند الاصمعي بشكل هزيل ، ابدل الصورة واراد الغوص فما برح التطلع القديم بصفاته ومظاهره ، وظلت لاحكامه سطحيتها وضعفها الادبي . يسأله ابو حاتم : " ابشار اشعرام مروان ؟ فقال : بشار اشعرهما ، قال له : وكيف ذاك ؟ قال : لان مروان سلك طريقا كثر سلاكه فلم يلحق بما تقدمه ، وان بشارا سلك طريقا لم يسلكه احد فانفرد به واحسن فيه ، وهو اكثر فنون شعر ، واقوى على التصرف ، واغزر واكثر بديعا ، ومروان آخذ بمسالـك الاوائل (١) . وهذا رغم تعصبه الزائد للقديم - وقصته مع اسحاق الموصلي مشهورة (٢) - ولكنه حكم مغري يحمل من الصواب والنظر - ولاول مرة - ما يبرر ذوق الاصمعي ، وتحيزه لبشار في اكثر من مناسبة . ولن نعتبر مفاضلة كهذه اساسا لموازنة عند الامدى او الجرجاني ، ولكن المقارنة تبرز خط التطور المقصود الذي نعتقد بانه كان على شكل ردة متقنة جريئة وليس على شكل اندفاع من مبدأ سليم ثابت اقره القداما وافاده المحدثون .

وانا نعجب لانغلاق هؤلاء النقاد على ذواتهم القديمة وقد كان لبعضهم ان يتحرروا لو شاء ، فلم تنقصهم بلاغة ولا ذوق ولا معرفة بالشعر ، وهذا شيء يفيد النقد على قلته . يعلل الاصمعي قول الطرماح (٣) :

يَبْدُو وَتُضْمِرُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ
سَيْفٌ عَلَى شَرْفٍ يَسْلُ وَيُغْمَدُ

فيقول : فقد جمع في هذا البيت استعارة لطيفة بقوله : " وتضمرة البلاد " وتشبيهه اثنين بقوله " يبدو وتضمرو " و" يسل ويغمد " وجمع حسن التقسيم ، وصحة المقابلة . وهذه ملاحظات بلاغية قيمة يضاهيها تصديه الرائع للمعنى

- | | |
|-----|----------------------|
| ١ . | الاصمعي ، ص ٤٧ . |
| ٢ . | المصدر ذاته ، ص ٤٨ . |
| ٣ . | المصدر ذاته ، ص ٥٨ . |

في بيت للنابغة في مجلس ضم الرشيد ويحيى بن خالد وجعفر والفضل ، يقول
في بيت النابغة (١) :

فَأَنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مَدْرِي وَأَنْ خَلْتُ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ

اما تشبيهه الادراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه ،

وانما كان سبيله ان يأتي بما ليس له قسم ، حتى يأتي بمعنى ينفرد به .

لقد علل فأجاد ، ولعله لا يستطيع اطالة النظر والمعاناة والتحليل ، فيندر

عنده التقييم الصحيح والحكم السديد . حتى السرقة افصح لها مجالا في صنعته

وقد اغرب ما شاء حين تصدى للفرزدق وجريرورجع الى سجيته النقدية الاولى ،

يسأله ابو حاتم عن شعر الفرزدق فيقول (٢) : تسعة اعشار شعره سرقة .

قال : واما جرير فله ثلثمائة قصيدة ما علمته سرق شيئا قط الا نصف بيت ،

قال : لا ادرى لعله وافق شيئا ، قلت ما هو ؟ قال : هجاء . . ومقابل

هذا التغاضي عن المنهجية النقدية ، والتي لا نفترض لها وجودا صحيحا

اذ ذاك ، ولكن ليس الى حد الاهمال او عدم المسؤولية الادبية ، يتطرق

النقد الى جوهر الشعر فيقرر ، ويثبت للنظر القديم صحة تطوراته في الغالب ،

فيقول الاصمعي : . . . الشعر نكد ، بابه الشر ، هذا حسان فحل من فحول

الجاهلية ، فلما جاء الاسلام سقط شعره (٣) . فاذا دخل الشعر في باب

الخير لان ، لأن الشعر غير الصلاة والدعاوى . . وقد شاء الاصمعي ان ينزع

الاخلاق عن الشعر فكان رائعا . . . طريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير

من مراثي النبي وحزمة وجعفر وغيرهم لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق

شعر الفحول من مثل امرئ القيس وزهير والنابغة ، من صفات الديار والرحل

٠ ١ الاصمعي ، ص ٥٧ .

٠ ٢ المصدر ذاته ، ص ٣٨ .

٠ ٣ المصدر ذاته ، ص ٤٣ .

والهجا* والمديح والتشبيب بالنساء* وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ،
 فاذا ادخلته في باب الخير لان (١) . * فطريق الشعر لا تعرف الخير ،
 وليس كل الشعر ما عدد الاصمعي ولكنها نظرة جريئة تعكس تحسيسا عميقا
 للصنعة الشعرية والطبيعة الادبية . ورغم كل هذا تظل للنقد القديم
 مواصفاته التي ارادها النقاد والبلاغيون للشعر فلم نتجاوز نادرا اعتبارات
 اللفظ والمعنى ، وما يتبع الاول من متانة وسهولة وايجاز والثانية من صحة
 وانتظام وسعة ، ومسألة السرقة التي فرضها اختراع الاول للمعاني والعصبية
 القبلية ، والبدوية ، والقدمية ، وما يتبعها من طبع وبعد عن الصنعة ،
 والتصرف الشعري في طرق محدودة يخرج عنها الهجا* — عند الاصمعي مثلا ،
 والتفرد — كما فعل بشار — والكثرة وتجنب الخير ، الى جانب القيم البلاغية
 كحسن التقسيم وصحة المقابلة وحسن الاستعارة والتشبيه وغير ذلك مما يجرى
 مجرى الذوق والتذوق . وحين تطرق العلم الى النقد افسده ، اذ لا حاجة
 الى تصنيف الذوق وحصره — على الاقل بالنسبة لنقد القرن الثالث — وفرض
 قواعد على الشعر تخنق انطلاقه وفيضه . وقد اراد ثعلب ان يحدد طريق
 الشعر فارتأى له اربعة قواعد : امر ونهي وخبر واستخبار (٢) ثم تتفرع
 هذه الاصول الى : مدح وهجا* ومراث واعتذار وتشبيب وتشبيه واقتصاص
 اخبار (٣) . وقسم الشعر حسب البلاغة والانتظام اللفظي والمعنوي ،
 والتكافؤ ، والاعتدال ، والتعاضد ، والوضوح وغير ذلك مما جعل من التبويب
 العلمي فنا نقديا عقيما افاد البديع والصناعة اللفظية واضرب بالنقد الذي انتهى
 الى النظر من خارج ، ضمن اطر معينة ، استفادها النقاد من مراجعتهم

- | | |
|-----|-----------------------------|
| ٠ ١ | الاصمعي ، ص ٤٢ . |
| ٠ ٢ | ثعلب ، قواعد الشعر ، ص ٢٥ . |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ٢٨ . |

للمنطق الارسطوطاليسي والفكر اليوناني المكتسب . وقد تشعبت اتجاهات هذا
الخط القديم — ويشمل المتطور والذي ننظر اليه كالقديم — على حدة في المنطلق
— كما فعل قدامة وشعلب وابن طباطبا — ولكنها التقت عند اعتبار واحد يخص
الشعر بالصنعة التي تفترض الكثير من الادوات ليكون " كالسبيكة المفرغة
والوشي المنمنم والعقد المنظم واللباس الرائق ، فتسابق معانيه الفاظه ،
فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه . وتكون قوافيه كالقوالب
لمعانيه ، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلموا فوقها ، فيكون ما قبلها مسوقا
اليها ، ولا تكون مسوقة اليه فتعلق في مواضعها ولا توافق ما يتصل بها ،
وتكون الالفاظ منقادة لما تراد له غير مستكرهة ولا متعبة ، لطيفة الموارج
سهلة المخارج . وجماع هذه الادوات كمال العقل الذي به تتميز الاضداد
ولزوم العدل وايتار الحسن ، واجتناب القبيح ووضع الاشياء مواضعها (١)
وهذه الاستفادة من ابن قتيبة تدفع بالخط الجديد الى الجفاف
النقدى مع ابن طباطبا نفسه — ناهيك بقدامة — فاذا صناعة الشعر عملية
متعبة مملة ، يقول صاحب عيار الشعر (٢) : فاذا اراد الشاعر بناء قصيدة
محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نشر ، واعد له ما يلبسه اياه
من الالفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه .
فاذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه اثبته ، واعمل فكره في شغل القوافي
بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه ، بل

٠١ ابن طباطبا العلوى ، عيار الشعر ، ص ٤ — ٥ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٥ .

يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين ما قبله • فاذا كملت له المعاني وكثرت الابيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما تشئت منها • ويتأمل بعد ذلك ما اداه طبعه فيغير ويبدل ليكون كالنسيج الذي يفوق وشيه باحسن التغويف مميذا ، محسنا الاختيار والترتيب ، مفصلا الكلام حسب الحالات دون خلط او تجميع • ومرد هذا الى الشعر الذي لا يجب ان يعرى من المعن البديع اذا عرى من حسن الديباجة ، وما خالف هذا فليس بشعر ، واحسنه ان يعلم السامع له الى اى معنى يساق القول فيه قبل استتمامه (١٠) على ان ابن طباطبا اردف تعب هذه الصناعة بقفزة ادبية رائعة دفعت بالنقد العربي - كنظرية لانها لم تؤثر في النقد التطبيقي او في النظم الشعرى اللاحق - باعتباره مقيما وموجها للشعر ، الى مستوى التركيز الواعي الدقيق ، بشكل ارهاص سليم لنظرية المحدثين في الوحدة العضوية في الشعر ، يقول ابن طباطبا : " واحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به اوله مع اخره على ما ينسقه قائلة ، فان قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب اذا نقص تأليفها ••• بل يجب ان تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه اولها باخرها نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة الفاظ ودقة معان وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه الى غيره من المعاني خروجا لطيفا على ما شرطناه في اول الكتاب حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة افراغا كالا شعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم ، لا تناقض في معانيها ولا وهي في مبانيها ، ولا تكلف في

نسجها ، تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا اليها
 . . . (١) . " يمثل هذا البناء العضوى حدث بعض القدما ، ولكن لا النقد
 ولا الشعرا " جا شعريهم كذلك ، حتى ابن طباطبا نفسه كشاعر . فالنقد لم
 يتمثل بشكل حركة مستمرة مؤثرة او متأثرة ، او بشكل خط واضح ينتظم تطورا
 او انتقالا او ارتدادا واضحا ، انما انتهى حتى القرن الرابع على شكل تطلعات
 مختلفة المنطلقات ، تعالج المشكلات الاولى التي يفرضها النظر الى الشعر
 او العمود الشعري ، سوى القليل الذي استجد - ك نظرية البناء العضوى
 عند ابن طباطبا مثلا او نظرية قدامة او ثعلب قبله - والذي لم يدفع بالحركة
 النقدية ككل ، او لم يصبغها بأى لون مميز ، رغم جدة بعض الاراء وغرابتها
 على النقد التقليدى . لم يفرض النقد الجديد نفسه على الشعرا وعلى النقد
 نفسه لانه لم يتعد حدود النظرية الشكلية الى العمل التطبيقي الموضوعي ،
 مع اعتبار الاصاله والاخلاص عند معظم النقاد الاصليين في القرن الثالث .
 انك ترى نقلا واستشهادا واشارة ، ولا ترى تأثرا او التزاما او استفادة مشرة
 من مذهب معين ، سوى نظرية واحدة في اللفظ والمعنى امتدت من
 الجاحظ (٢) الى العسكري مرورا بابن قتيبة (٣) . وترى ابن المعتز
 يستشهد بابن طباطبا كشاعر (٤) ، بينما لم يتأثره كناقده وتكاد تعدم الصلة

-
- ١ ابن طباطبا ، ص ١٢٦ .
 - ٢ الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٣ و ١٤٤ . والحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٩ و ١٣١ - ١٣٢ .
 - ٣ ابن قتيبة ، الشعر والشعرا ، ج ١ ، ص ١٢ - ١٦ و ٢٩ - ٣١ .
 - ٤ ابن المعتز ، كتاب البديع ، ص ١٩ و ٢١ .

او القراية النقدية بين " البديع " و " عيار الشعر " - والعرياني (١) ينقل كثيرا وبصراحة عن قدامة والفرق عظيم بين مضموني الكتابين . قدامة نفسه يكثر الاخذ عن ثعلب (٢) وسيصبح قدامة بعثد مرجعا - للاشارة دون الغرلة والتعليل - للامدى والعسكرى والحصرى وابن رشيق والخفاجي وابن الاثير والنويرى وغيرهم . وهذه نظرية قدامة رغم تسلسل منطقها وربطها العلمي الدقيق بذهنية الرجل اليوناني التفكير والمنطق (٣) ، لم تؤثر ايجابيا في النقد اللاحق - قد تكون افادت النقد العربي ، على جفافها العلمي ، من ناحية سلبية بشكل ردة فعل - ولم تصادف هوى ادبيا لدى الشعراء ومتذوقي الادب ، فلم يتحسسها الفريقان .

حتى ان تصنيفه للاشكال الاسلوبية (STYLISTIC FIGURES)

تحت عناصر الشعر الاربعة - اللفظ والمعنى والوزن والتقنية - وربط كل اثنين منها على حدة ، والذي يعد من اهم قضايا كتاب " نقد الشعر " لم يشع يوما او يتقبله الناس (٤) . على انا نلاحظ عند الرجل ، رغم رفض النقاد المتأخرين لمذهبه ، اسلوبية ومنهجية دقيقة انفردت في تاريخ النقد العربي بانتظامها واتساقها مع مبداءه ومنطقه ، فقد علل مظاهر الشعر والبديع

- ١ . المرزباني عاصر قدامة ولعله تتلمذ عليه دون ان ينتهج مذهبه او يتشيع له .
- ٢ . هكذا يقول بونيباكر في مقدمته لنقد الشعر ، وهذا ليس غريبا بالنسبة لوروده في النص ولتقارب المنهجين .
- ٣ . يعتقد بونيباكر ان قدامة رغم تأثره باراء فلاسفة اليونان - ودليل ذلك اقوال قدامة نفسه والشواهد الكثيرة في " نقد الشعر " - فان كتاب الخطابة وكتاب الشعر لارسطو لم يترك اى اثر واضح ملموس في كتاب " نقد الشعر " . المقدمة العربية ، ص ١٠ د ، و ، ه . قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، عني بتصحيحه س .
- ١ . بونيباكر ، طبع بمطبعة بريل بمدينة ليدن ، سنة ١٩٥٦ .
- ٤ . المصدر ذاته ، ص ٤٦ من المقدمة الانكليزية لبونيباكر .

ومشكلاتهما على ضوء مذهب معين وبدقة علمية جديدة بالتقدير . كانت تهمة الجودة في الشعر وبلوغ الغاية ، يقول : " ان المعاني كلها معرضة للشاعر وله ان يتكلم منها فيما احب وآثر من غير ان يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه ، اذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة . . وعلى الشاعر اذا شرع في اى معنى كان من الرفعة والضعة والرفعة والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح والعضية وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة ، ان يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك الى النهاية المطلوبة . . (١) " . وهذا يبعد بالشعر عن المؤثرات الخارجية والخطرات الداخلية ، يقول : " وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه . . لان الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقا ، بل انما يراد منه اذا اخذ في معنى من المعاني كأثنا ما كان ان يجيده في وقته الحاضر لا ان يطالب بان لا ينسخ ما قاله في وقت اخر . . (٢) " . فان كان هذا القول لا يواكب نظرية : اعذب الشعر اكذبه ، فإنه لا يخطئه امام جودة الشعر وبراعته . فقد ارتقى ذوق النقاد قبل القرن الرابع الى تنحية الدين والاخلاق والمؤثرات الشخصية عن الشعر الذى يراد لحسنه وتفوقه ، وليس لان ابن الاعرابي او الاصمعي يريدانه كما يشاء ان .

وكل ما جاء عن الشعر وباسم النقد قبل ان يختصر الوعي الادبي والنظر النقدي الصحيح - اتخذ شكل الحضور التاريخي دون ان يفعل في الحركة التي توجت نقد القرن الرابع ، فعل المولد المسؤول ، ولسنا نفصل نقد هذا القرن عن التراث وانما ننكر ان تكون حركة واحدة شمل تطورها

١ . قدامة ، ص ٤ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٥ - ٦ .

المتصاعد — على تشعب الابحاث والمؤلفات البلاغية والنقدية — هذا النتاج خلال ثلاثة قرون . فالموضوعات والمشكلات النقدية لم تغتن كثيرا وانما اخذت شكلا اخر يعتمد الذوق والحس الجمالي ، والنضج العلمي والادبي القادر على التمييز والمقارنة والتعليل . ولم تعد السرقة كما ارادها اصحاب القديم ، ولم تعد معاييب الشعر قواعد للتقيد والالتفات الواجب — رغم ان المرزباني ابقى عليها كتاريخ في القرن الرابع واكثر التمثيل عليها من المخزون الشعري السابق . ووقف كثيرا عند قدامة بن جعفر في تعداد معاييب العناصر الشعرية الاربعة وغير ذلك . وقد تتعدد وجهات النظر في السرقات الشعرية ولكنها تبقى ضريبة النقد العربي القديم برمته . انها اكثر الموضوعات النقدية بروزا واصالة وسيقف عندها كل ناقد عربي ، وقد خصصوا لها وللشعراء مؤلفات كاملة كأنها كل ما في النقد ، حتى شملت معظم الشعراء الكبار كأبي نواس وابي تمام والمتنبي على يد الحاتمي وابن وكيع بخاصة وغيرها فيما بعد . وسنقف عند تبرير ذكي لها مع المرزباني قبل ان نتصدى لها كنظرية خاصة في نقد المتنبي ، يقول صاحب "الموشح" : "ولا يعذر الشاعر في سرقة حتى يزيد في اضاءة المعنى او يأتي بأجزل من الكلام الاول ، او يسنح له بذلك معنى يفضح به ما تقدمه ولا يفتضح به ، وينظر الى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير اليه (١) " . ويمثل على هذا القول ببيت لابي تمام — والمرزباني من النقاد المطبوعين واصحاب الذوق القديم ، فيقف حذرا عند ابي تمام كما يظهر في "الموشح" ككل :
ولا تَجْعَلْ جوابك فيه لي لا فأَكْتَبُ ما رَجَوْتُ على الجليل
وانما مضى المثل بالكتابة على الماء ، فلم يضع في ذكر الجليل شيئا .

وعنده ان ابا تمام يغوص على المعاني ولا يريد ان يعطل بيتا من كلام مستغلق (١) فالزيادة مستحبة في السرقة الفني ، وقد كان الاجدر به وبغيره ان لا يدعوها سرقة طالما اوجدوا لها الكثير من الحلول والتبريرات . اما وقوفنا عند ظواهر نقدية معينة فلم يكن بقصد التأريخ او التقصي او العرض ، وانما لرصد اصول عامة لحركة النقد في القرن الرابع ، رغم اعتقادنا بعدم ركونها للنقد السابق كأساس جوهري عام ، ولتبيان بوادر نقدية رائعة سبقت اوانها قبل هذا القرن نفسه ، تفترض الالتفات والاشارة . ان هذا النقد في رأينا يتصل بالتراث بقدر ما ينفصل عنه . وعدم التماس خط واحد او حركة واحدة تتسلسل حلقاتها الى كل اخير ، لا ينفي العودة الى المبادئ العامة والخطوات الاولى التي انطلقت من طفولة النقد في اوائل القرن الثاني الى شبابه الحالي ، ولو كردة فعل بغير تطور ، لان المذاهب الادبية السابقة لم تعيش كظواهر فاعلة في التراث الشعري بل كآثار وحوادث . والقليل الجديد الذي صار النقد اليه ، كموضوع لا كمنهج ، اكسبه المنهج الجديد هذه الحداثة " فالموازنة " عند الامدى كمنهج ادبي مستقل ليست في القديم الموروث ، ولكنها كظاهرة ادبية كانت فيه وسبقت الى ذلك . شاعران او شعراء يجمعهم فن شعري واحد او مذهب واحد يفرضون موازنة خاصة . فتراهم يوازنون بين جرير والفرزدق او بين كثير ونصيب ، او بين عمر بن ابي ربيعة وابن قيس الرقيات ، او بين عمرو وجميل ، او بين مسلم وابي نواس ، او بين بشار بن برد ومروان بن ابي حفصة ، او بين شعراء المعلقات انفسهم ، وحتى بين المخضرمين في جاهليتهم واسلامهم - حسان بن ثابت مثلا كما يصوره الاصمعي . وقد كانت الصياغة والمعاني - كما يقول الاستاذ طه ابراهيم - ما ينقد في الشعر في العصر الجاهلي ، وهي اهم ما يتصدى له النقد الادبي

في العصور الاخرى (١) . ولكنها ليست كل ما في هذا النقد ، كما انه لا مجال للخلط بين ذاتية النقد وموضوعيته - كما فعل الاستاذ بدوي طبانة (٢) ، في عصور النقد الاولى ، لانهما متلازمان في النقد الاصيل ككل واحد . ولانهما بعد انتقاله الى دعائه الحقيقيين لم يعد هناك مجال للتمييز او المقارنة . اما الشعر فلم يستسلم يوما لمشيئة النقد ، على الاقل حتى القرن الرابع الهجري ، فلم ينتسب اليه او ينطلق منه ، وان كنا نرى تلازمهما كما اسلفنا . فقد كان كما يراه الاستاذ طه ابراهيم : " . يكاد النقد الادبي عند العرب يكون سلبيا ، فلم يحدث حدثا في الادب ولم يؤثر يوما في الشعراء " . وكل ما جد من المذاهب والتغييرات الوضعية كان منشأه الادباء انفسهم والحلقات التي كانت تجتمع على مذهب واحد . . (٣) " . هذا الى القرن الرابع . اما في هذا القرن ومــــع الامدى والحاتمي والصاحب والجرجاني وابن وكيع وغيرهم فستصبح للنقد فعاليته وسيقف الشعر وجها لوجه امام النقد - وستبدو غرابة موقف المتنبي الشاعر امام الحاتمي الناقد - ويتفاعل الاثنان : الشعر والنقد ، لخلق حركة ادبية تطبع العصر بطابع جدلي ، يتعاطف مع الذوق والحس الجمالي الاصيل ، ويعتمد الاسلوبية والنظر المنهجي السليم . فتتم له في الغالب اصولية تجسد تطلعه الجديد وتحكم عليه بالتفرد والنجاح . وقد انتهى الدكتور امجد طرابلسي الى اعتبار ان النقاد العرب ، حتى القرن الخامس الهجري " نجحوا اخيرا في استخلاص فن ادبي شعري متماسك وشبه كامل ، استطاعوا على ضوئه الكشف والحكم على المؤلفات القديمة والحديثة (٤) " .

- ١ . طه احمد ابراهيم ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ص ١٦ .
- ٢ . بدوي طبانة ، دراسات في نقد الادب العربي ، ص ٥٦ - ٥٧ .
- ٣ . طه ابراهيم ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ص ١١٢ .

وكان هذا الفن الادبي بحركتيه الكبيرتين ، حصيلة تمسكهم بالقديم وانفتاحهم على الجديد لتتركز لهم شخصيتهم النقدية التي ما ان تمثلت القمة حيناً ، في القرن الرابع ، حتى انتهت الى شخصية بلاغية عاودت الاصل على عبقرية جديدة ونمط جديد . اما وقوفنا المباشر فيكون على احدى حركتي هذا الفن ، مع ابي الطيب والنقد الذي دار حوله ، لنرصد مبلغ الجدة الذي افاده - بالنسبة للتراث الذي كانت غاية استعراضنا له تحديد دور هذا النقد وفاعليته واستقلاليته - والاثرا الذي اثبتته للنقد اللاحق ، وبخاصة لما الف بعد هذا القرن ، حول شعراي الطيب وحول هذا النقد بالذات . وسيكون تتبع هذا الخط النقدي الذي ميز الحركة الادبية حول ابي الطيب ، الرابط الرئيسي بين التراث الموجز وبين هذه الحركة ، لنتبين قابلية هذا الشعر للتحدي المستمر والعداء الغالب على رسائل هؤلاء الذين اقلقهم وازعجهم غرور الشاعر وتعاضفه فأثبتوه له وللناس والنقاد بعده . وكان لا بد لنا من ملاحظة رابط خفي يثبت حضور الشاعر كشخصية افردت لها بعض المظاهر الذاتية حشدا نقديا ضخما كانت غالبية استجابة لمؤثر ، وحضور النقاد كانبلاقة جديدة لشيء من هذا التراث على وعي جديد وتفرد مميز ، وثبوت النقد الذي استجمعت هذه الحركة في ماضي التراث النقدي وحاضره ، فيتحقق لنا ما رصدناه في هذه الرسالة اويكاد .

الفصل الثاني

=====

تقسيم النقد الذاتي الذى دار حول شعراي الطيب الى بيئات ومعالجته
على اساس ذلك .

- ١ - البيئة الشامية .
- أ - بلاط سيف الدولة .
- ب - سيف الدولة وتعليقاته النقدية .
- ج - ابن خالويه والشاعر .
- د - ابو العباس النامي والمتنبي .
- هـ - ابو الفرج البېغاء والسرى الرفاء وابو فراس وعلاقتهم بالشاعر .
- و - الاصفهاني وسكوته .

النقد الذى دار حول شعر المتنبي :

لقد كان على النقد العربي الذى انطلق من فهمه الواعي لدوره الادبي في القرن الرابع ، ان يهيئ نفسه لمرحلة الاصولية والالتزام والتقييم الموجه احيانا - يتمثل ذلك باختيار الموقف مسبقا في حال التعصب للشاعر او عليه - وان يسعى الى تقييم ذاته خلال تقييمه للنتاج الشعري المعروض ، ويتضح ذلك في رسالتي الحاتمي والصاحب الاخيرتين والموقف الجديد الذى اتبعاه اذ ذاك . وقد يكون من الخطأ الظن ان هذا النقد لم يخطط لنفسه او يوجهها قبل التعرض لهذا الشعر او ذاك ، وقد يكون العكس على شي * من الواقع كذلك . الا اننا نلمح ارادة خاصة تتحكم بالعمل النقدي قبل المباشرة به - وهذه طريقة تتحمل الخطأ والصواب - ومنطلقا خاصا يلتزمه الناقد ، ولكن ذلك كله لا يخرج بدوره عن نطاق الحركة التي اكسبت الجوالادبي هذا المظهر المتفرد الذى تمثل بشكل الفعل وردة الفعل والوسط ، عمدا او عفوا . وكان لا بد للنقد الواحد ان يتميز ، بسبب تورط النقاد - بشكل او بآخر - في هذه الظاهرة التي فرضت نفسها على العصر الادبي ككل . فالصولي ينطلق من مذهب معين وكذلك الامدى ، والحاتمي والصاحب يتخذان موقفا يكاد يتفق ، فيخرج عنهما الجرجاني في وساطته ، ويكون موقف الثعالبي المحايد كموقف العسكري لولا ان هذا الاخير لم يستطع التغلب على عاطفة الازية تجاه ابي الطيب .

لكن الناقد المتأخر يستطيع تلمس نموذج مخلص لحقيقة النقد ووظيفته وغايته في حال تعرضه لموازنة * الامدى او * وساطة " الجرجاني ، وهذا لا يستبعد النقد الاخر كحركة ادبية نشيطة حينذاك . ونحن لا ننكر فنية

هذا النقد وغناه - كعملية تقييم وتوجيه - ولكنا سنقف عند الوسط لنتمثل هذا الصراع الادبي المعروف، واستجابة هذه التجربة النقدية الموضوعية في حال غوصها على العمل الشعري الواحد متخطية تحيز الطرفين وحكمهما الاخير - ان حكمت كما رأينا مع الامدى او الجرجاني في شرحهما كل لمذهبه - الذى عمل في الغالب على ارضاء الناقد والنقد والنتاج الشعري المنفرد .

اما حركة النقد الخاصة التي تركزت حول ابي الطيب فأن اهم ما يميزها التصور المسبق لطبيعة العمل النقدي ، والتصميم الواضح على انتهاز مسلك معين يفرد للناقد ناحية معينة وطريقة مميزة ، وهنا قد نلمح اثار حملة نقدية مقصودة استهدفت شعرا ابي الطيب - كما المحنا سابقا - وتعرضت له باشكال مختلفة . وقد عمدنا الى درس بعض مظاهر شخصيته على ضوء شواهد من هذه الحملة متمثلة بتعرض شعراء بغداد له ، وبدفع الحاتمي الى تحديه وتهشيمه في المناظرة التي جرت بينهما ، وتحسن المتنبي نفسه لهذه الملاحقة حيث يستعين عليها بالشعر المثلث بعبد الحميد والغم والقلق من الحياة . وسيساعدنا درس ظروف النقاد على تتبع هذه الحملة حين دعوا للتعرض له والتصدى الشديد للجانب المظلم من شعره الكثير . وسندرس النقد الذى تأ ر حول شعرا ابي الطيب حسب البيئات النقدية معتمدين المنهج التاريخي في تناولنا للكتب التي صدرت عن هذه البيئات لانها تساعدنا في الدرجة الاولى على تتبع خط التأثير النقدي ، وعلى تصوير الحركة ككل وتلمس تطورها الحاصل ، وتأثيرها في النقد اللاحق . او قل في فرض نفسها على الدراسات المتأخرة التي تعرضت لشعر المتنبي او للنقد الذى دار حوله . وسنبداً بالبيئة الشامية لننتهي بالبيئة المصرية مقدمين عليها البيئة العراقية رغم تأخرها زمنيا عنها . وذلك لان البيئة المصرية كانت صدى للبيئة العراقية كما سنرى عند تعرضنا لابرز وجوهها في ابن وكيع وابن حنابلة وغيرهما .

البيئة الشامية :

ليس في البيئة الشامية نقد حقيقي او كتب نقدية افردت لشعراي الطيب ، وانما هناك مجالس ادبية تخلل بعضها شي من النقد - برغم شكنا في صحة بعض الحوادث الادبية في هذه المجالس - والوقوف السريع عند بعض المشكلات النقدية والشعرية ، كالتدليل على السرقات ، والصراع حول بعض القضايا اللغوية ، والالتفات الى الجمع بين المعاني المتلازمة او المتلائمة - كاعتراض سيف الدولة على بيتي المتنبي في مدحه كما سيأتي - وغير ذلك مما يقف بهذه النتف النقدية عند حد التعليق المنفعل او الحكم العاجل ، ولكنها لا تخلو في الغالب من ذوق رفيع وحس شعري راق .

ويغلبها الحسد احيانا - الاثر الشخصي في حال بعض الشعراء كالنابي وابي فراس - فتسمى بنقدها الجزئي الى التشهير والتذليل دون التقييم او التوجيه . وهكذا يزخر بلاط سيف الدولة - خلال السنوات التسع التي اقامها المتنبي عنده - برجال كان لهم شأن مع ابي الطيب ، بين شاعر حاسد او لغوي حاقد او امير عاتب او اديب شامت ، وفي القليل صاحب مدافع ، يغذى كل ذلك تعاظم المتنبي وترفعه ، وشعر عظيم الصنعة يقربه من الامير والحساد فلا يفلت من عداوة . وسنرى ان نتاج هذه البيئة النقدي لم يؤثر في النقد اللاحق ، او حتى يوفر لنفسه المكانة الادبية ضمن الحركة المرصودة في القرن الرابع ، سوى انه يذكرنا بالنقد العربي في عصوره الاولى على تحضر جديد واسلوب اجد . فسيف الدولة نفسه سيكون له الرأي في بعض شعر شاعره ، يقول له بعد ان انشده قصيدته التي اولها :

على قَدَرِ اهلِ العِزِّ تأتي العِزائمُ وتأتي على قَدَرِ الكرامِ المَكائِمُ

وبعد ان وصل الى هذين البيتين :

وَقَفْتُ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِمَوَاقِفِ
تَمُرُّ بِكَ الْإِبْطَالُ كُلُّمَيَّ هَزِيمَةٌ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهَوْنًا
وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَشَعْرَكَ بِاسْمٍ

" قد انتقدنا عليك البيتين كما انتقد على امرئ القيس بيتاه :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّقَّةِ
وَلَمْ أَسْبَأِ الرِّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقْلُ
وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَأَعْبَاءِ ذَاتِ خِلْخَالٍ
لِخَيْلِي كَرِّي كَرَّةً بَعْدَ أَجْفَالٍ

وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين (١) . فكان ينبغي

على المتنبي ان يجعل عجز البيت الثاني لصدر البيت الاول والعكس ، وكذلك امرئ القيس . وحجة سيف الدولة التلاؤم والتجانس في المعنى الواحد . ولكن ابا الطيب - الذي يعرف الشعر معرفة الحائك للشوب - قصد الجمع بين الاضداد في المعنى وان لم يتسع اللفظ لجميعها (٢) . فالكشف والتعليل كانا وراء النقد الموجه والرد المدافع ، وهذا الحوار النقدي القصير يكشف عن قابلية قادرة على تخطي مفهوم التخطئة او الاعجاب السريع في حال المجالس الادبية ، كما رأيناها في القديم مع الاصمعي وابي حاتم السجستاني وابن الاعرابي وغيرهم ، وهي طبعا ليست بمستوى النقد المخصص للشعر الواحد يقلبه على مختلف وجوهه ويحدد موقفه اولا واخرا .

اما ابن خالويه - الذي كان آل حمدان يكرمونه ويدرسون عليه ويقتبسون منه (٣) - فحقده على ابي الطيب اصيل ، وسيكون تعرضه الادبي له بدافع التشفي ، وسيبعد عن الموضوعية بقدر ما يلتصق بالاثرا الشخصي .

٠١ البيتيمة ، ج ١ ، ص ١٢ - ١٣ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ١٣ . وقد اورد هذه القصة البديعي في الصبح

المنبي ، ص ٨٤ .

٠٣ المصدر ذاته ، ص ٢٦ .

يصحب المتنبي سيف الدولة في "غزوة الفنا" ولا ينجو منهم الا ستة انفار -
 احدهم الشاعر - وفي طريق عودتهم تعلق بعمامة الامير طاقة من الشجر ،
 وكانت كلما انتشرت العمامة يتخيل المتنبي ان الروم قد ظفرت به فينهره الامير
 فيقول له ابن خالويه : "ايها الامير اليمن ان ثبت معك حتى بقيت في ستة
 انفار تكفيه هذه الفضيلة ؟" (١) وهذه شماعة باكرة تثبت حقد ابن خالويه
 على ابي الطيب يتبعها صراع غير موضوعي حول احدى المسائل اللغوية
 والمفاضلات الشعرية ، لتكون لتلك المجالس الحركة التي يفترضها الادب
 والشعر . يفضل ابن خالويه اشجع السلمي (٢) على ابي نواس البصري فيفضل المتنبي
 ابا نواس على اشجع (٣) . ويحضران مرة احد مجالس سيف الدولة ومعهم ابو
 الطيب اللغوي (٤) فيجرى البحث في مسألة لغوية ينتصر فيها المتنبي لابي
 الطيب النحوي ويضعف قول ابن خالويه ، فيتخاصمان ويضرب المتنبي دون ان
 ينتصر له الامير فيكون هذا احد اسباب فراقه له (٥) . والمهم في كل هذا
 طبيعة الصراع الذي تحركه الخلافات الشخصية والظروف الخاصة فيأتي
 النقد دون الغاية .

-
- | | |
|----|---|
| ٠١ | البديعي ، ص ٧٩ . |
| ٠٢ | اشجع السلمي : شاعر عباسي معدود من الفحول . ولد بالبصرة .
انقطع الى البرامكة ومدحهم واتصل بالرشيد ومدحه . |
| ٠٣ | البديعي ، ص ٨٦ . |
| ٠٤ | ابو الطيب اللغوي : هو عبد الواحد بن علي الحلبي صاحب التصانيف
الجليلة . قدم حلب واقام عند سيف الدولة الى ان قتل سنة
٣٥١ هـ . |
| ٠٥ | البديعي ، ص ٨٧ . |

وطبيعي ان ينشط الحسد في بلاط سيف الدولة وقد بز ابو الطيب
اقرانه ، ولذا ترى النامي - من فحولة شعرا - العصر وخواص شعرا - سيف
الدولة (١) - يعاتب الامير على احتضان زميله ويتعهد الا يمدحه . و ابو
العباس النامي هو القائل : " كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي
وكنت اشتهي ان اكون سبقة الى معنيين قالهما ما سبق اليهما . اما احدهما
فقوله :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فَوَّادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ

والاخر قوله :

فِي جَحْفَلٍ سَتَرَ الْعُيُونُ غِبَارَهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرُنَّ بِالْأَذَانِ (٢)

وقد اخذ النامي مقام التنبي عند سيف الدولة بعد انفصاله عنه .
وله عدا ذلك امال في الادب (٣) ، شملت انتقاداته على الشاعر الكبير .
وقد ذكر ابن خلكان ان له " وقائع ومعارضات في الاناشيد " مع المتنبي ،
وله كذلك امال في الادب (٤) . اما ابن وكيع فقد اثبت له رسالة في عيوب
شعر المتنبي نقل عنها ، قال : " وذكر ابو العباس النامي في رسالة له في
عيوب شعرابي الطيب ان قوله :

رِيَّانَ لَوْ قَذَفَ الذِّى أُسْقِيَتْهُ لَجَرَى مِنَ الْمُهْجَاتِ بَحْرٌ مُزِيدٌ

انه مسروق من قول البحتري :

صَدَّيَانِ مِنْ ظُلْمِ الْحُقُودِ لَوْ أَنَّ يُسْقَى جَمِيعَ دُمَائِهِمْ لَمْ يَنْقَعْ (٥)

٠١ اليتيمة ج ١ ، ص ١٦٤ .

٠٢ البديعي ، ص ٨١ .

٠٣ بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ج ٢ ، ص ١٩٠ .

٠٤ ابن خلكان ج ١ ، ص ٤٦ .

٠٥ ابن وكيع ، المنصف ، ص ١٤ .

وفي مكان آخر حول هذا البيت :

فَقَلَقْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَ الْحَشَا قَلَاقِلُ عَيْسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

هذا البيت مما ذكره ابو العباس النامي في عيوب شعره ، وما ظلمه (١) ومرة اخرى حول هذا البيت :

خَفِ اللَّهُ وَاسْتَرْنَا الْجَمَالَ بِيرْقِعٍ فَأَنْ لَحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ

ذكر هذا ابو العباس النامي في غث كلامه . ولست اعتده غثا لان الجمال يمدح به الملوك ، وحيض العواتق شهره لما رأين من جماله . فالمعنى صحيح واللفظ فصيح ، فلم صار غثا (٢) . وواضح من هذه النصوص تحامل ابي العباس على ابي الطيب ، وطبيعة رسالته العدائية ، وغرضه الحقيقي ، ومغزاه واسلوبه الضعيف .

ومن الذين عايشوا الحركة في بلاط سيف الدولة ابو الفرج البغاف ، احد افراد الدهر في النظم والنثر (٣) الذي التحق بالامير في عنفوان امره وريحان شبابه ، وكان صديقا للشاعر ، يأنس به ابو الطيب ويشكو من سيف الدولة امامه ويأمنه على غيبته له ، وكانت الحال بينهما عامرة دون باقي الشعراء (٤) وقد ألف منه كتابا مفقودا ، وكان يأخذ عنه كما فعل في هذا البيت :

وَقَدْ أَخَذَ التَّمَامُ الْبَدْرُ فِيهِمْ وَأَعْطَانِي مِنَ السَّقَمِ الْمُحَاقَا

حيث لطفه فقال :

أَوَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ الْعَجَائِبِ أَنْنِي فَارَقْتَهُ وَحَيَّيْتُ بَعْدَ فِرَاقِهِ

يَا مَنْ يُحَاكِي الْبَدْرَ عِنْدَ تَمَامِهِ أَرْحَمَ فَتَى يَحْكِيهِ عِنْدَ مُحَاقِهِ (٥)

١ ابن وكيع ، المنصف ، ص ١٠٨ .

٢ المصدر ذاته ، ص ٢٠١ .

٣ الثعالبي ، الجزء الاول ، ص ١٢٤ .

٤ البديعي ، ص ٩٢ . يأتي البديعي بحكاية عن المتنبي حكاها ابو

الفرج البغاف ، تظهر بخل الشاعر وتهافته على المال رغم تعاظمه وكبر نفسه .

٥ المصدر ذاته ، ص ٢٢٦ . يشهد العكبري بشعره في شرحه لبعض

ابيات المتنبي ، ص ٣٤٩ مثلا في الجزء الاول .

ولعل ابا الطيب امن جانب هذا الشاعر بصدافته له • ولن نتأمل نقدا حقيقيا من جانبه حتى ولو فعل • ويظهر انه حكي عن الشاعر في كتابه فقط دون التعويل على شعره والوقوف عنده •

وكان السري الرفاء (١) يحسد الشاعر حتى انهم لَفَقُوا عليه حكاية تدعي انه حَمَّ حسدا بعد سماع بيت له ومات (٢) ، يأخذ عنه (٣) في الغالب • وهو الذي يعتبر ان بيت ابي الطيب هذا :

وَحْصَرَ تَثَبُّتُ الْأَبْصَارِ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقِ نِطَاقًا

مما لم يقدر عليه المتقدمون (٤) ، وهذا يدخل في نطاق الحسد دون التهشم ، والتأثر دون الشماتة •

على ان ابن فورجة اقرب ما يكون الى الناقد او المعلق الذي يفترض الاشارة ، وقد واكب حركة الفعل وردة الفعل حول شعر المتنبي ونقده • فقد الف كتابين (٥) في الرد على ابي الفتح بن جني ، هما : الفتح على ابي

- ١ • السري الرفاء : هو ابو الحسن بن احمد الموصلي الشاعر المشهور • كان في صباه يرفو ويطرز بديكان له في الموصل • اولع بالادب وكان ينظم الشعر • اقام مدة عند سيف الدولة بحلب ثم انتقل بعد وفاة الامير الى بغداد ومدح المهلب • توفي حوالي سنة ٣٦٠ هـ • وهو شاعر مطبوع عذب الالفاظ ويحسن الوصف والتشبيه •
- ٢ • البديعي ، ص ٨٠ • والبديعي يكذب الخبر لان السري مات بعد المتنبي •
- ٣ • المصدر ذاته ، ص ٢٧٢ و ٢٧٨ •
- ٤ • المصدر ذاته ، ص ٨٠ •
- ٥ • ياقوت ، معجم الادباء ، الجزء ١٨ ، ص ١٨٨ • وهو اديب فاضل مصنف وقد ولد سنة ٣٣٠ هـ • وذكر له البديعي ص ٢٦٩ هذين الكتابين كذلك •

الفتح ، والتجني على ابن جني ، يرد فيهما على الشرح الاول لديوان الشاعر .
ونستطيع تخيل طبيعة الباحثين وقد اتخذوا طرفا معينا واتجاها واضحا — وقد
جاء ابن فورجة بحكاية طريفة ^(١) عن المتنبي في كتابه : التجني على ابي
العلاء المعري ^(٢) ، تظهر جوانب جديدة من شخصية الرجل الذي قيل عنه
انه لا زنا ولا كذب ولا لاط . ويقول فيه ايضا : " كان المتنبي داهية مر
النفس شجاعا حافظا للادب عارفا باخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه
الا بخله وشره على المال " ^(٣) . وواضح هنا اعتدال ابن فورجة وعـدم
انزلاقه . ويقرر الواحدى ان ابن فورجة في المجلدين اللطيفين اللذين شرح
فيهما معاني ديوان المتنبي " افاد بالكثير منهما غائها على الدرر وفائزا
بالغرر ثم لم يخل من ضعف البنية البشرية والسهو الذي قل ما يخلو عنه احد
من البرية ، ولقد تصفحت كتابيه واعلمت على مواضع الزلل . . (٤) .
يبقى ابو فراس الحمداني كشاعر زامل ابا الطيب في بلاط ابن عمه ،
" وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامى جانبه ، فلا ينبرى لمباراته
ولا يجترى على مجاراته ، وانما لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيبا
له واجلالا لا اغفالا واخلالا . . (٥) . وهذا كثير لان الحسد كان فوق
المدح وفوق تقبله . فقد بالغ ابو فراس مع غيره من الشعراء في الوقية في
حق المتنبي والتجني عليه ، لخطوته عند الامير وتقربه الشديد اليه . وكان
ابو الطيب يرى اثر ذلك في سيف الدولة فيظهر في شعره :

- ١ . البديعي ، ص ٩٤ .
- ٢ . ورد هكذا في البديعي والمعروف عنه انه كتاب " التجني على ابن جني " .
- ٣ . البديعي ، ص ٩٥ .
- ٤ . الواحدى ، شرح ديوان ابي الطيب المتنبي ، ص ٤ .
- ٥ . اليتيمة ، ج ١ ، ص ٢٢ .

أَلَا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ عَاتِبًا فِدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى السَّيْفِ مُضَارِبًا (١)
وَحِينَ يَنْشُدُهُ قَصِيدَةً :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِنْ قَلْبِهِ شَبِمْ وَمَنْ بِجَسَمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمْ

يفسح المجال لشكواه وتظلمه وتقصير الامير في حقه .

مَا لِي أَكْتَمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي وَتَدْعِي حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْأُمِّ

وستكون حوادث القصة (٢) التي اوردها البديعي حول هذه القصيدة اشبه

بالفصل التمثيلي المركب والقائم على الحركة ، والفعل ، والحوار السريع ، والاستجابة الخاطفة لهذا المؤثر اذاك ، قولاً وفعلًا . ولن نتقبل مبالغات هذه القصة وجوها المسرحي لان الانفعال ، في حال سيف الدولة ، والبديعة ، في حال ابي الطيب ، والتخطئة ، في حال ابي فراس ، وتهوس الجماعة الحاضرة ، كلها خرجت عن الاعتدال والمعقول الى الافراط والتحويل السخيف . فبعد ان يتشكى الشاعر تهم الجماعة بقتله لشدة ادلاله واعراض سيف الدولة عنه (٣) ، وهذا مبالغ فيه . وحين يصل في انشاده الى قوله (٤) :

يَا أَعْدَلُ النَّاسِ إِلَّا فِي مَعَامِلَتِي فَيْكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكْمُ

يقول ابو فراس : مسخت قول دعبل وادعيته وهو :

وَلَسْتُ أَرْجُو أَنْتِصَافًا مِنْكَ مَا ذَرَفَتْ عَيْنِي دُمُوعًا وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكْمُ

وسنقف عند ردود ابي فراس هذه لانها تفيدنا نقدياً . فالكشف عن

السراقات باب من اهم ابواب النقد عند العرب ، والمسوخ احدها ، وقد وفق ابو الفراس في هذا الكشف السريع الان . فالغنية في القصة صادقة لانها تميز

٠ ١ البديعي ، ص ٨٨ .

٠ ٢ تبدأ القصة بصفحة ٨٨ وتنتهي بصفحة ٩٢ في البديعي .

٠ ٣ البديعي ، ص ٨٩ .

٠ ٤ المصدر ذاته ، ص ٨٩ .

جوا ادبيا معينا يقوم على الملاحظة والاستجابة للخطأ — بأى شكل — في حال حصوله ، وهذا ما نعينه بتعرضنا لهذه البيئة التي لم ينتظم فيها نقد حقيقي خاص .

وبعد ان يتعرض المتنبي لابي فراس ضمنا ، كما يدعي الاخير ، يصل الشاعر الى قوله :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بَأَنِّي خَيْرٌ مِّنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْيُنَ إِلَى أَدَبِي وَأُسْمِعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ ضَمُّ (١)

فيزداد ابو فراس غيظا ويرد قول ابي الطيب هذا الى عمرو بن عروة بن العبد في قوله :

أَوْضَحْتُ مِنْ طُرُقِ الْآدَابِ مَا اسْتَكَلْتُ

دَهْرًا وَأُظْهِرْتُ أَغْرَابًا وَأَبْدَاعًا

حَتَّى فَتَحْتُ بِأَعْجَازٍ خُصِصْتُ بِهِ

لِلْعَمِيِّ وَالصَّمِّ أَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا (٢)

وقد نخطي* ان انكرنا وجود السرقة كما نخطي* ان اثبتناها . فالمتنبي لم يقصد سرقة او اخذا وقد لا يكون سمع بهذين البيتين ، وان كان قد سمعهما فالذنب ذنب ذهنة الشعرى الذى يختزن ولا يميز في حالات الخلق . ويرد قوله :

وَالْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالْحَرْبُ وَالضُّرْبُ وَالْقِرَاطُ وَالْقَلَمُ

بعد ان يوبخه — عودة الى المبالغة والتضخيم — الى ابن العريان العثماني (٣) :

٠١ البديعي ، ص ٨٩ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٩٠ .

٠٣ والمشهور : السيف والرمح والقرطاس والقلم .

أَنَا ابْنُ الْفَلَا وَالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَالسُّرَى

وَجَرَدِ الْمَذَاكِ وَالْقَنَا وَالْقَوَاضِبِ

وقوله ايضاً :

وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظره إذا استوت عندَه الأنوارُ والظلمُ

الى معقل العجلي :

أَذا كَمْ أُمِيزَ بَيْنَ نَوْرٍ وَظُلْمَةٍ بَعِينِي فَالْعَيْنَانِ زُورٌ وَبَاطِلٌ

والى محمد بن احمد بن ابي مرة المكي :

إذا المرءُ لم يدرك بعينه ما يرى فما الفرقُ بينَ العمي والبصراءِ (١)

ويغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة وكثرة دعاواه فيها

فيضرب الشاعر بدواة فيقول المتنبي في الحال - وهذا ما نستبعده من

الفرقيين :

أَنَّ كَانَ سُرُكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لَجُحِّ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمْ (٢)

فيرجع ابو فراس هذا البيت الى بشار :

إِذَا رَضِيتُمْ بَأَن نُّجْفَى وَسُرُكُمُ قَوْلُ الْوُشَاةِ فَلَا شَكْوَى وَلَا ضَجْرٌ

والى ابن الرومي :

إِذَا مَا الْفَجَائِعُ أَكْسَبَتْنِي رِضَاكَ فَمَا الدَّهْرُ بِالْفَاجِعِ

وهذا الكشف السريع عن السرقة ، والشاهد الشعري الحاضر ، والارتجال

الجيد في حالي ابي فراس وابي الطيب يخرج بالقصة الى المبالغة الشديدة .

فسيف الدولة بعد كل هذا يرضى عن الشاعر ويصله ويقبل رأسه . فيرتجل

المتنبي بيتين جيدين وينشدهما للامير . وهذا الخروج عن جوالانشاد الى

١٠ البديعي ، ص ٩٠

٢٢ المصدر ذاته ، ص ٩١ .

النقد ، فالضرب ، فالصلة ، فالمدح ، كثير على واقع القصة ، وعلى طبيعة المجلس الذي تقل فيه مثل هذه المفاجآت والحوادث ويقول في آخر القصيدة : (١)
شَرُّ الْبِلَادِ مَكَانٌ لَا صَدِيقَ بِهِ وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصِمُ
وَشَرُّ مَا قَنَصْتَهُ رَاحَتِي قَنَعٌ شَهَبُ الْبَزَاةِ سَوَاءٌ فِيمَا الرَّخْمُ
والبيت الثاني مأخوذ من أبيات لصاحب العلوى الداعي بطبرستان ، كما يقول
البديعي ، وهو :

أَنَا مِنْ جَنَابِ سَوَاكِ فِي مَرَعَى نَدٍ وَأَقِيمُ عِنْدَكَ فِي جَنَابِ مُجَدِّبِ
أَنْ كُنْتُ ذَا بَصَرٍ فَمَيَّزَ فَضْلُ مَا بَيْنَ الْغُرَاءِ وَبَيْنَ صَيْدِ الْأَرْبِ

فجعل موضع الغراء الباز الأشهب ، وموضع الأرب الرخم . واشترك الجميع في كشف السرقة امرئ بالغ فيه ، ومن الكثير الذي وضع لثلب الشاعر واسقاطه .
فابو فراس ادعى على المتنبي المسخ والسرقة والاخذ مراداً المعاني المشبوهة الى اصولها ، وهذا من صلب النقد ، دون النظر الى الغاية .
واذا كنا قد رفضنا القصة كحادثة ، فأنا نقبلها كمظهر فني نقدي يقف عند السرقة ، احد اهم ابواب النقد العربي ، يرصدها ويتتبع تطورها في الشعر المعروف . ونعتمدها كظاهرة ادبية غنية ميزت بلاط سيف الدولة بالحركة والنشاط والاهتمام الادبي ، والبيئة الشامية بالوقوف الحسن على شعر الرجل ومعالجته وادانته وانصافه في الغالب . حتى ان ابا فراس نفسه حين جرى مرة ذكر المتنبي قال : " ما رأينا له بياض سيف قط في غزاة ، ولكنه كان شجاع اللفظ . " (٢) . فاعترف له بشجاعة اللفظ وهذا ليس سهلاً من شاعر امير كأيي فراس .

١ . البديعي ، ص ٩١ .

٢ . ابن وكيع ، ص ١٩٢ .

ونستطيع هنا التوقف عند ابي الفرج الاصفهاني الذي رفع كتابه الضخم ،
الاجاني ، الى سيف الدولة دون ان يرصد لابي الطيب فيه اى خبر او حادثة
او شعر . وقد عللنا هذا السكوت المبهم على افتراض عداء خفي وحقد متبادل
بين الرجلين ، برز في حادثة اوردها ابو القاسم الاصفهاني (١) في مجلس
المهلبى تظهر انكار صاحب الاجاني الشاعر ، وتأليب ابن الحجاج عليه مع زميله .
وقد يكون العلويون سبب ذلك او تشيع ابي الفرج نفسه . وفي هذا الصمت
انتقام كبير وتحقيق لعداء اخر يقع في صلب النقد الذى تعصب على ابي الطيب
وتحامل عليه .

وهناك مظهر اخر تجلى في هذه البيئة وهو وجود المتنبي والفارابي
في بلاط واحد . وسنعمد الى تلمس علاقة ادبية بين الشاعر والفيلسوف تفيد
النقد الذى نقف عنده بطريق غير مباشرة . فالفارابي توفي سنة ٣٣٩ هـ . بعد
ان كان قد مضى على وجود ابي الطيب عند سيف الدولة سنتان . ونحن نرى
ان انتفاع الشاعر بفلسفة ارسطو قد يكون معظمه جاء عن طريق الفارابي الذى
عالج " المعلم الاول " بشغف شديد ونهم بالغ . " ولا نستبعد ان يكون المتنبي
قد قرأ بعض هذه المؤلفات لدى الفارابي وتأثر ببعض ما قرأ . لانه كان شغوفا
بالقراءة كثير الاطلاع قوى الحافظة واسع الادراك (٢) . ويرى الشيخ
مصطفى عبد الرازق ان " اثر الفلسفة الارسطوطاليسية قد وصل الى المتنبي
كما وصل الى جمهوره المفكرين المثقفين في عصر المتنبي ومن قبله ومن بعده (٣) .
ولكنه لا يرى اغفال الفارابي صاحب الفضل الاكبر في فلسفة الشاعر . واذا جئنا
الى ما يدور في شعراى ابي الطيب من المعاني الفلسفية وجدنا لذلك اصولا فيما

٠ ١ الاصفهاني ، مخطوطة ، ورقة رقم ٤ .

٠ ٢ الدكتور عبد الرحمن شعيب ، المتنبي بين ناقديه ، ص ٢٣٥ .

٠ ٣ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، ص ٨٩ .

وصل الينا من كتب الفارابي " كالمقول في الطبع الذي وقف عليه الرجلان :
ابو الطيب في احد اشعاره ، وابو نصر في كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين ،
عدا بعض الاشعار التي رويت للفارابي والتي " يجرى فيها من المعاني مثل
ما يجرى في شعر المتنبي . (١) . واكثر ما يؤكده هذه الصلة كذلك
تقارب الفكرين ، يقول الشيخ عبد الرازق : " ويبدولي بادي الرأي ان
المتنبي في مذهب الفلسفة متأثر بنزعات القرامطة في اعتبار الغلبة
والسيادة مطمح الحياة . وفي طبيعة المتنبي استعداد لقبول هذه
المبادئ . وقد استطاعت فلسفة الفارابي ان تؤثر في تفكير المتنبي وفي
مذاهبه الخلقية ، ولكنها لم تستطع ان تنزع من نفسه حب الغلبة وحب
المال الذي يراهما الفارابي من دآب اهل الجاهلية (٢) . وهكذا يكون
ابو الطيب سليل الفارابي في فلسفته وبعض تفكيره . وهنا تأتي الرسالة
الحاتمية " لتشهد على مدى التأثير والاستفادة من المعلمين الكبارين .
ويكون وجود ابي نصر في بلاط الامير قد افاد النقد الذي دار حول شعر
المتنبي بطريقة التأثير الفلسفي - او المساعدة على الاستفادة بالقراءة
او السماع - الذي برز في الشعر ، فنه الحاتمي الناقد - وهنا يتدخل
النقد - على هذه الظاهرة في نتاج ابي الطيب ، لتتفرد رسالته
بالتقائها الايجابي القيم الى هذا المنحى الشعري الفكري الهام .
اما تصويرنا للجوالادبي العام في البيئة الشامية التي حصرناها
في بلاط سيف الدولة - برغم اقتناعنا بعدم وجود نقد حقيقي او كتب نقدية
خاصة الا ما ذكرته المصادر ولم يصلنا - فقد قصدنا به تتبع حركة النقد

٠١ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، ص ٩٠-٩١

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٩٣ - ٩٤ .

العامه حول شعراي الطيب ، ورصد مدى التأثير والتأثير في توالي هذه البيئات ضمن الحركة الديالكتيكية التي ميزت هذا النقد بالذات . ورغم عدم انتظام هذه الحوادث الادبية في مسلك منهجي موضوعي شامل ، فإنها اثبتت نفسها كنظرات جادة ، ومخلصة احيانا ، تعنى بالاثـر الفني ، وتحاول نقده بمقدار تفرغها ، وظروفها العامة في ذلك الجو الادبي النشيط .

وكان المتنبي قد وصل الى بغض غايته الشعرية — كشاعر كبير يستطيع فرض شعره وحركاته — في بلاط الامير ، مهيبا نفسه بذلك لعداوات جديدة ، وتطلعات مركزة حول نتاجه الشعري ، بشكل دراسات نقدية قيمة حفلت بها البيئة العراقية وامتد تأثيرها الى البيئة المصرية ، والتي ستتوج هذا النقد وتعمل فعلها في المحاولات المتأخرة التي توكلت عليها وعلى اصحابها الذين عايشوا الشاعر والحركة التي عمت العصر كله . سوى ان شهرته كانت قد ارتفعت وامتدت بعد اتصاله بسيف الدولة وقصائده الرائعة فيه وفي حروبه ، ولذا فأن تنبه النقد لي جاء متأخرا بعد هذه الفترة ، كما سيتضح في البيئتين الاخرين .

الفصل الثالث

=====

النقد الذي دار حول شعر المتنبي في البيئة العراقية

- ١ — تصوير الجوال العام المعادي للشاعر .
- ٢ — هجاء شعراء بغداد له .
 - أ — ابن الحجاج .
 - ب — الحسن بن لنكك ، وغيره .
- ٣ — الحاتمي ود واقع نقده ، وظروفه .
- ٤ — ابن العميد والمتنبي .
- ٥ — صاحب بن عباد وترفع الشاعر عن مدحه .
- ٦ — الرسالة الموضحة .
 - أ — ما دار حول تأليفها .
 - ب — ظروف المؤلف .
 - ج — النقد الذي احتوته .
- حدود الشعر — في اللفظ ، في المعنى ، في الوزن والتقنية ،
في البديع والنكات البلاغية الاخرى .
 - د — في السرقات الشعرية .
 - السرقة بين الناقد والشاعر .
- ٧ — رسالة صاحب بن عباد في "الكشف عن مساوي المتنبي" .
 - أ — اتكاء صاحب على الموضحة .
 - ب — الجديد في نقد صاحب .
- ٨ — الوساطة بين المتنبي وخصومه " للقاضي الجرجاني" .
 - أ — على من يرد الجرجاني في "الوساطة" .
 - ب — ما استجد في "الوساطة" .
 - ج — وقفات نقدية اخرى لصاحب "الوساطة" .
 - د — السرقات الشعرية .
- ٩ — الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام لرسطو في الحكمة .

البيئة العراقية :

لقد الح الحسد على ابي الطيب حتى اقلقه ، فعالجه بالتشكي والنفور ،
والرحلة والغربة ، في الحياة والشعر معا — حتى انه سعى ابنه محسدا
— وكاد يلزمه فاكثر من حمل العدا له ، واذا تعاليه وتعاضمه — بدافع
النفور والتشفي من جهة وعقدة الضعف من جهة اخرى — سبيل جديد
لنقد متحامل مرير ، ولهجا شامت خبيث * . ومن الذي يسلم من قالة
الخصاس وحسدتهم ، وهل خلا الصدر الاعظم والجمهور الافخم من اهل
العلم وذوى الالباب والفهم من هذه المناقضة والمناقضة ، والتعصب
والتحيز على قديم الوقت الى زماننا هذا * . (١) اما انقاصهم له او
حتى اسقاطه فاكثر من الشعور الحاقد . انها مؤامرة حيكت حوله خطت
بظروف بعض النقاد والشعراء الى الرغبة الصريحة في النهش والاثارة —
وسيفخر الحاتمي بنتائج المناظرة امام الامير — ومع البعض عن تعصب
جائر للقديم الذى لم يترك للمحدث شيئا ، ومع اخرين لاسباب عدة * . وما
لهذا الرجل الفاضل — اى المتنبي — عيب عند هؤلاء السقطة الجبال
ذوى النذالة والسفال الا انه متأخر محدث ، وهل هذا لو عقلوا الا
فضيلة له ومنبهة عليه لانه جاء في زمان يفقم الخواطر ويصدى الاذهان
فلم يزل فيه وحده بلا مضاه يساميه ولا نظير يعاليه ، فكان كالقارح الجواد
يتمطر في المهامه الشداد لا يواضح نفسه الا نفسه ولا يتوجس فيها الا
جرسه (٢) * .

١ . ابو الفتح عثمان بن جني ، ديوان شعراي الطيب احمد بن

الحسين المتنبي ، رقم : ٢٣ *

٢ . المصدر ذاته ، رقم : ٤ ب *

وليس لهذا العيب وحده - مع اننا لم نحظ بنقد واحد يؤكده هذه الناحية - كثر النقد حوله . والذي يهمننا من انفعالات ابن جني هذا الجوال الذي رافق النقد المتعصب على ابي الطيب المتحامل عليه . وقد يكون العصر على شيء من ذلك - بسبب انشغال الناس بهموم الحكم وتشتته ، والتسابق الى السلطة ، والتفرد السياسي ، والخوف من الفتن المتعددة ، مع ان هذا الجو ساعد على انما الفكر وتغذية الادب حين لجأ الى البلاطات ليشبع جاه الامراء - ولكن الذي يعيننا منه ظروف النقاد والحركة النقدية بشكل عام . وقد ربطنا سابقا بعض مظاهر شخصيته باسباب نقدية على ايدى معظم نقاده ، لاننا نعتقد ان ابا الطيب قد مارس التعالي والتعاطف وكبر النفس - في الشعر والحياة - كردة فعل لعقدة الشعور بالنقص بسبب اصله الوضيع ، و فقره المبكر ، وقصوره عن ارضا طموحه واحلامه . وكان كل هذا احد موجبات ذلك النقد الكثيف الذي ارتبط باشخاص غنوا بالشاعر وتفرغوا لايذائه . فالشعراء الذين اغروا بهجاء الشاعر كالنقاد الذين دعوا لنقده يجمعهم منطلق واحد وغاية واحدة في الغالب ، وكل هذا على حساب موضوعية النقد ومنهجيته في حال بعض النقاد كالصاحب والحاتمي وابن وكيع . وما كاد المتنبي يعزف عن مدح المهلب وغيره حتى نشط هو لا الى صبح الجو العراقي بصبغة العدا والكراهية ، لتكون عودة ابي الطيب من مصر الى العراق باعثا جديا لهذا النوع من النقد والشعر .

فلما حصل المتنبي ببغداد - وكان قد تهيأ بعد هروبه من مصر لزيارة ابن العميد طامعا في الصلة ^(١) العاجلة - نزل رضى حميد فركب

١ . هناك قصة تدور حول هذا القصد اوردتها الاصفهاني ، ورقة ٤ .

الى المهلبى فأُثِن له فدخل وجلس الى جنبه ، وصاعد خليفته دونه وابو الفرج
الاصفهانى صاحب كتاب الاغانى ، فجرت مناظرة حول بيت من الشعر انكر
فيها ابو الفرج ما قاله ابو الطيب ، وتفرق المجلس عند هذه الجملة ، " ثم
عاوده اليوم الثانى وانتظر المهلبى انشاده فلم يفعل وانما صده ما سمعه من
تماديه في السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء اهل الخلاعة والسخافة عليه —
وهذا برأينا سبب وجيه يدعم عادة ترفعه عن مدح غير الملوك — وكان المتنبي
مر النفس صعب الشكيمة حادا مجدا ، فخرج • فلما كان اليوم الثالث اغروا به
ابن الحجاج — وهنا يدخل دور صاحب الاغانى الذى انكر ما قاله في اليوم
الاول ، واشترك في اغراء الشعراء به في اليوم الثالث ، واغفل ذكره في اغانيه
— حتى علق لجام دابته في صينية الكرخ وقد تكابس الناس عليه من الجوانب
وابتدا ينشده :

يا شيخ اهل العلم فينا ومن يَلْزَمُ اهل العلم توقيرة

فصبر عليه المتنبي ساكنا ساكنا الى ان انجزها ثم خلى عنان دابته ، وانصرف
المتنبي الى منزله وقد تيقن استقرار ابي الفضل بن العميد بأرجان وانتظاره
له فاستعد للمسير . . (١) • وستكرر سكوت المتنبي عن هجاء الشعراء ونقد
النقاد ، واذا دافع فسيضعف — كما يصوره الحاتمي في الموضحة — وقد يصح
تعليل ابن رشيق لهذا الامر حيث يقول في " باب من رغب من الشعراء عن
ملاحاة غير الاكفاء " : " وكذلك فعل المتنبي حين بلي بحماقات ابن حجاج
البغدادى : سكت عنه اطراحا واحتقارا ، ولو اجابه لما كان بحيث هو من
الانفة والكبر ، لانه ليس من انداده ولا من طبقة . . (٢) • ولكن ليس هذا

٠١ الاصفهانى ، ورقة رقم ٤٠٤

٠٢ ابن رشيق ، ج ١ ، ص ١١١ •

كل شيء • اننا نتخيل اسبابا ابعد من السكوت المحتقرا والجبن الادبي —
في حالي شعرا الهجاء ومناظرة الحاتي له — وقد يكون بعض ذلك جزءا
من الوعيد الذي لاحقه به العلويون ، والذين نعتقد ان لهم صلة وثيقة بهذا
التآمر النقدي والتحريض على التعرض للشاعر والسعي الى هدمه • يقول في
قصيدة " باد هواك " في ابن العميد :

أَنْ لَمْ تُعْثِنِي خَيْلَهُ وَسَلَاحَهُ فَمَتَى أَقُودُ إِلَى الْأَعَادِي عَسْكَرَا (١)

كأنه يؤد ضرب عدوه بالقوة • ولا نستطيع تخيل اعداء له غير
العلويين الذين اعدوا له السودان في كفر عاقب ، والذين وشوا به لدى
السلطان ، والذين قد يكونون خلقوا له هذا العدا الادبي في بغداد ،
فبدا بعض اثره في استغاثته بابن العميد • فهل انه كان يخافهم على نفسه
من جديد فيسكت ؟ ادبيا لن نقبل سكوته ، وقد تكون كل هذه الاسباب مجتمعة
قرينة هذا الصمت الكثيف • اما الثعالبي فيصور هذا السكوت على العدا
الجديد كعادة طبعت سلوكه فرافقته ، يقول (٢) : " ولما قدم ابو الطيب من
مصر وبغداد وترفع عن مدح المهلبى الوزير ذهابا لنفسه عن مدح غير الملوك
شق ذلك على المهلبى فأغرى به شعرا " بغداد حتى نالوا من عرضه وتباروا
في هجائه وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة الهاشبي والحاتي واسمعوه ما يكره
وتماجنوا به وتنادروا عليه فلم يجبه ولم يفكر فيهم ، وقيل له في ذلك فقال ابي
فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم ارفع طبقة منهم في الشعراء :

أَرَى الْمُشَاعِرِينَ عُرُوا بِذَمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمِلُ الدَّاءَ الْعُضَالَا
وَمَنْ يَكْ ذَا قَمٍ مَرٍّ مَرِيضٍ يَجِدُ مَرًّا بِهَ الْمَاءُ الزَّلَالَا

وقولي :

١ • ديوان المتنبي ، شرح ابن جني ، رقم ١٥٤ ب ، صطر ٢٠ •

٢ • اليتيمة ، ج ١ ، ص ٨٥ — ٨٦ •

أني كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطاول

وقولي :

وانذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأنني فاضل

ولما بلغ أبا الحسين ابن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقية

شعراء بغداد فيه واستحقارهم له ، وكان يحسده ويهجو ويطعن عليه ، شمت

به ، فقال (١) :

قولا لأهل زمان لا خلاق لهم
أعطيت المتنبي فوق منيته
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها
نعالهم في قفا السقاء تزدحم
ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
فزوجوه برغم أمهاتكم

ومن قوله فيه :

متنبيكم ابن سقاء كوفاني
ويوحى في الكيف اليه

ومن قوله فيه ايضا :

ما أوقح المتنبي
يا سائلي عن غناه
أن كان ذا كنبيا
فيما حكى وأدعاه
من ذاك كان غناه
فالجائليق آلاه

وابن لنكك البصري من الشعراء الذين غروا بهجا أهل العصر ، وجل

شعره في شكوى الزمان ، واتفق في أيامه هبوب الريح للمتنبي وعلو رتبته وبعد

صيته ، وارتفاع مقدار أبي رياش اليمامي . وحصل أبو الحسين على ثلبيهما

والتشفي بدمهما . (٢) . وقد أورد له الجرجاني حادثة قال : " . . . ولقد

١ . البيتية ، ج ١ ، ص ٨٦ . والبديعي ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

٢ . المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

حدثني بعض اهل الادب انه حضر عند ابي الحسن بن لنكك البصري - وكان على فضله في العلم ، وتقدمه في الادب - شديد التحامل على ابي الطيب ، وهو يذكر شيئاً من شعره حتى انتهى الى قوله : " بقائي شاه ليس هم ارتحالا فاجعل يعجب من هذا المصراع من حضره ويقول : هل رأيتم اشد تعقيدا واطهر تكلفا واسوأ ترثيبا من هذا الكلام ! فقلت له : هب الامر على ما ادعيت فانا سلمنا لك ما زعمته ، اين انت من قوله في اثر هذا البيت :

كَأَنَّ الْعَيْسَى كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِي مُنَاخَاتٍ فَلَمَّا تُرِنَ سَالَاً

قال : فاستشاط غيظا ، ثم قال : هذا المصراع يسقط دواوين عدة شعراء (١)

فلم يستطع رغم حسده له وجحده لفضله وشعره من ان يتعجب احيانا لروعة بيت وجمال صورة ٠٠ ومثله ابن سكرة الهاشمي (٢) وابن الحجاج الذي نعتقد انه قصد بهذين البيتين ابا الطيب في قصيدة هجاء ، اذ يقول (٣)

رَجُلٌ يَدْعِي النُّبُوَّةَ فِي السُّخْفِ وَمَنْ ذَا يَشْكُ فِي الْأَنْبِيَاءِ
جَاءَ بِالْمُعْجَزَاتِ يَدْعُو إِلَيْهَا فَأَجِيبُوا يَا مَعْشَرَ السُّخْفَاءِ

ومن استخفاف شعراء بغداد فيه قولهم (٤) :

- ٠ ١ الجرجاني ، الوساطة ، ص ٤١٦ - ٤١٧ .
- ٠ ٢ ابن سكرة الهاشمي : هو ابو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد .
شاعر متسع الباع واحد الفحول ، فائق في قول الملح والطرف .
جار في ميدان المجون والسخف . ديوانه يربى على خمسين الف بيت ، منها عشرة الاف بيت في قينة سوداء يقال لها خمرة .
(انظر البيتية ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .
- ٠ ٣ البيتية ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .
- ٠ ٤ البديعي ، ص ١٤٥ .

ايُّ فَضْلٍ لِشَاعِرٍ يَطْلُبُ الْفَضْلَ مِنَ النَّاسِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا
عَاشَ حِينًا يَبِيعُ بِالْكُوفَةِ الْمَاءَ وَحِينًا يَبِيعُ مَاءَ الْمُحْيَا

ومثل هؤلاء الشعراء المكدين قد يستحقون الصمت احتقارا ، ولكنا لا نمدحه على هذا وقد عيروه بنقائص خطيرة كضعف الاصل ، والنبوة ، وبذل ما الوجه ، وقد كان لهذه الظواهر الاثر الخطير في تحديد شخصيته وسلوكه وفي استثارته لمختلف انواع الهجاء والعداء والنقد المتعصب . ونحن لا ننكر ظروف هؤلاء الشعراء الخاصة ، والتي ساعدت على تكثيف هذا الهجاء والتحامل ، وقد اغروا ومولوا ، ولكنا لا نتوقع سكوتها عنه وقد هبت رياح شهرته وغنمه عليهم فمسختهم — كما في حال النامي وابن لنكك وغيرها — وافسدت بضاعتهم . عدا انها وجدت فيه — من مثل تعاليه وانفته واستصغاره العظام — ما يستحق الشماتة والانقاص والتعدي . وقد كانت هذه الحركة العدائية تقصد ابعاد المتنبي عن العراق — كهدف اخر — فوفقت على يد النقاد ، واذا بالحتمي يتهيأ لكل هذا فيقول : " . . . فأنه كان — اي الوزير المهلب — لما تناقل ابو الطيب عن خدمته واساء التوصل الى استنزاله عن عرفه ، ولم يوفق لاستمطار كفه . . . سامني هتك حريمه وتمزيق اديمه . . . وولكني بتتبع عواره ، وتصفح اشعاره ، واحواجه الى مفارقة العراق واضطراره كراهية لمقامه بعد تناهيه — كان — في ادنائه واكرامه (١) . . . " . . . وسيتدخل في هذا الاستعداد ظروف الحتمي الناقد وبعض القضايا الشخصية لتؤلف هذا الكل النقدي الذي جاء به . . . يقول انه لما ورد المتنبي (٢) مدينة السلام منصرفا عن مصر ومتعرضا للمهلب ، " التحف رداً الكبر واذا لذيول التيه ، وصعر للعراقيين خده ، وارهدف للخصام حده ، ونأى بجانبه استكبارا ،

١ . الحتمي ، الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي وساقط

شعره ، ص ٢ — ٣ .

٢ . وكان يلقبه احداث الشام " بالطمع " لقوله :

يطمع الطير فيهم طول الكهم حتى تكاد على احيائهم تقع .

الموضحة ، ص ٦ .

وثنى عطفه جبرية وازورارا ، فكان لا يلاقي احدا الا اعرض عنه تيبها ، وزخرف القول عليه تمويها ، يخيل عجباً اليه ان الادب مقصور عليه ، وان الشعر بحر لم يرد نمير مائه غيره وروض لم ير نواره سواء . (١) .

وهذا كثير على المتنبي ، ولذا سنتنبه منذ البدء الى غرور الحاتمي واسلوبه ، ومبالغاته وانفعالاته حتى في النقد نفسه ويمضي الحاتمي قائلاً : واستمر ابو الطيب مديدة على هذه الحال حتى اذا تخيل انه السابق في كل مضمار ، وانه رب الكلام ، ومالك رق الفصاحة نثراً ونظماً وانه وحيد دهره الذي لا يجارى ، وصدف عن زيارة معز الدولة ، وتخيل ابو محمد المهلبى (٢) رجماً بالغيب ، ان احدا لا يستطيع مساجلته ، ولا يرى نفسه كفواً له ، ولا يضطلع باغناته فضلاً عن التعلق بشي من معانيه . نهدت متتبعا عواره ومقلماً اظفاره ، ومذيعاً اسراره ، وناشراً مطاويه ، ومنتقداً من نظمه ما تسمح به ، ومنتحياً ان تجمعننا دار يشار الى ربها ، فأجرى انا وهو في مضمار يعرف به السابق من المسبوق ، واللاحق من المقصر عن اللحق . (٣) .

والواقع ان الحاتمي كان كفواً لنقد شعرايي الطيب لغزارة علمه ووفرة محفوظه — كما ستظهر الموضحة والرسالة الحاتمية — ودقة ملحوظاته ، وحسه النقدي اليقظ ، وذوقه الشعري الرفيع ، يساعده على ذلك غروره الشديد وحسده النامي ، لاولي الفضل والنباهة واصحاب الجاه والصيت ، واغراً مثله له الوزير والامير ، وحقد دفين قد يكون احتقبه لابي الطيب منذ

- ١ . الموضحة ، ص ٦٠
- ٢ . ابو محمد المهلبى : هو الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون ، من ولد المهلب بن ابي صفرة الازدى . من كبار الوزراء الادباء الشعراء . اتصل بمعز الدولة بن بويه فكان كاتباً في ديوانه ثم استوزره . واستوزر للمطيع العباسي كذلك فلقب بذي الوزارتين . ولد بالبصرة سنة ٢٩١ هـ ومات في طريق واسط سنة ٣٥٢ هـ (انظر ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٤٢ . اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٨ — ٢٤ .
- ٣ . والاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .
- ٣ . الموضحة ، ص ٢٠

ان عرفه عند سيف الدولة من زمان * يذكر ياقوت انه قرأ في "الهلجاجة" للحاتمي انه قال (١) : "وقد خدمت سيف الدولة وانا ابن تسع عشرة سنة . . ووزنت في مجلسه تكمة وادنا" وتسوية في الرتبة ، ولم تسفر خدای عن عذاريهما ، بأبي علي الفارسي (٢) . . وأبي عبدالله بن خالويه وأبي الطيب اللغوى . . . وعددت من الافراد الذين منهم ابو سعيد السيرافي (٣) وعلي بن عيسى الرمانى (٤) وابو سعيد الضلى . . (٤) . . ولا يبعد ان يكون قد ناله بعض اذى ابي الطيب — ان صح غروره وادعاؤه — وقد نال بعض اصحابه من امثال ابن خالويه والفارسي الذى سينكره في شيراز فيما بعد * "ولعله احتقب كل هذا لابي الطيب — كما يفترض الدكتور محمد نجم — حتى كان لقاؤهما ذاك في بغداد ، وكان الجو مناسباً والفرصة متاحة فمعز الدولة ووزيره المهلبى لم يكونا بحاجة الى من يغريهما بأبي الطيب ،

- ٠١ ياقوت ، ص ٥٠٣ .
- ٠٢ ابو علي الفارسي قدم حلب سنة ٣٤١ هـ وكان المتنبي قد التحق ببلاط سيف الدولة منذ سنة ٣٢٧ هـ .
- ٠٣ ابو سعيد السيرافي : هو الحسن بن عبدالله بن المرزبان . ولد سنة ٢٨٤ هـ وتوفي سنة ٣٦٨ هـ . اصله من سيراف (بلاد فارس) تفقه في عمان وسكن بغداد فتولى نيابة القضاء وتوفي فيها . كان معتزلياً متعففاً . له كتب عديدة في النحو منها : "الاقناع" و "البلاغة" و "شرح كتاب سيبويه" . (انظر الاعلام للزركلى ، ج ٢ ، ص ٢١٠ — ٢١١ . وابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٣٠ . ونزهة الالباء ، ص ٣٧٩ . وانباء الرواة ، ج ١ ، ص ٣١٣ . وتاريخ بغداد ، ج ٧ ، ص ٣٤١)
- ٠٤ — علي بن عيسى الرمانى : باحث معتزلي مفسر من كبار النحاة . اصله من سامراء ولد ببغداد سنة ٢٩٦ هـ وتوفي فيها سنة ٣٨٤ هـ . له مصنفات عديدة ، منها : "الاكوان" وكتاب "التفسير" و "المعلم والمجهول" . (انظر : ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣٣١ . وانباء الرواة ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ . ونزهة الالباء ، ص ٣٨٩) .

فقد كان له من شهرته وانفته وتكبره ما يشير امثالهما . فاجتمعت هذه العوامل كلها في نفس الحاتمي ، وأورت زناده ولم يكن كليلا ، فأخرج هذه الرسالة التي نشأ فيها حقدّه وحقد معاصريه من اهل بغداد على الشاعر العظيم . . (١) .

وكانت المناظرات التي جرت بين الاثنين في بغداد - على اربع جلسات طويلة - تجسيدا مبدئيا لهذا الحقد الواضح ، ومواجهة صريحة تضع الشاعر على المحك ، والشعر امام الناقد الذي لا يهادن . ولم يشأ الحاتمي ان يدع الشاعر ، دون ان يستنفد ما له عليه ، وان يغلبه على امره ، ليكون عرضة للناس والادباء ، ولتكون له هذه النهاية الاليمة في بغداد نفسها ، يقول : " . . فارتحل عن العراق متوجها الى الكوفة . وقد استخف احداث المتأدبين طمعا فيه ، وتناولته الشعراء بهجائها ، ورماء عن قوس العداوة من لم يرمه قبل عنها ، حتى مزق اديمه ، وفري فري الالهاب عرضه . واولع بهجائه سفيه من سفيها

البغداديين ، صغير من اصغر علمائهم يعرف بابن الحجاج ، لا حظ له في الفضل ولا قدم في الادب ، وحسبه ان اضطره مع دنائة قيمته وسخف همته الى الهرب وترامي المطلب وقلق الرقاب في كل مذهب . وقد كنت اقدته بعنان الصغار قود الجنيب . فلم يستطع مقاما بمدينة السلام ، فخرج عنها الى الكوفة ومنها الى فارس منجعا عضد الدولة وملما بابن العميد وموملا الاقامة في ذراهما ، والاستغلال بظلمهما او بظل احدهما . فأحس في بعض ما مدحهما واساء في بعض . وحصرت مادته وانقطع دون الغاية نفسه . فإنه كان استنفد في سيف الدولة احسانه ، واستغرق في مدحه باعه ، فاضطر الى الارتحال والعود الى العراق فاحترم دون ذلك وكان اخر العهد به . . (٢) . ونحن

١ . الدكتور محمد يوسف نجم ، مقدمة الرسالة الموضحة بتحقيقه ، ص : ك

٢ . الرسالة الموضحة ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

ونحن لا نستبعد كل ما حصل طالما ان الجوالنفسى والادبي العام كان مهيثا تماما لاستقبال حاقد كهذا ولوداع آلم وامر - وسيسبقه الحذر والحسد الى بلاد فارس لتكمل صورة العدا الذي لاحقه حتى اواخر ايامه . فقد كان ابن العميد يخشى الا يمدحه ابو الطيب بسبب ترفعه عن مدح الوزراء - برغم ان المتنبي كان يرغب جدا في مدحه طمعا في الصلة التي املها منه بعد ان نال حامل قصيدته اليه قبلا ما يغرى ويؤمل (١) - ويعامله معاملة المهلبى ، فيتركه من ذكره ويعرض عن سماع شعره . ويذكر الربيعي (٢) عن بعض اصحابه انه دخل عليه وقد ماتت اخته فظنه واحدا لاجلها ، فسأله عن ذلك فقال ابن العميد : " انه ليغيظني امر هذا المتنبي ، واجتهادى ان اخمد ذكره ، وقد ورد علي نيف وستون كتابا في التعزية ما منها الا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعت فيه بآمالي ألى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى اخمد ذكره ؟ فقلت : القدر لا يغالب ، والرجل ذو حظ من اشاعة الذكر ، واشتهار الاسم ، فالاولى الا تشغل فكرك بهذا الامر (٣) . ولم يستطع ابن العميد كتمان غيظه على ابي الطيب فأكثر الانتقاد عليه . وهكذا كان الجوالعراقي ، والفارسي ، حاسدا ، وحاقدا ، وناقدا للمتنبي يتتبع سقطاته وينعي هفواته فلا يسلمه من نقد وتجريح . فحين انشد ابو الطيب ابن

١ . وردت هذه القصة في مخطوطة الاصفهاني ، الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، ورقة رقم ٤ .

٢ . الربيعي ، هو ابو الحسن علي بن عيسى الربيعي النحوي . اصله من شيراز ونزل بغداد ومات فيها سنة ٤٢٠ هـ . درس الادب على ابي سعيد السيرافي والنحوي علي ابي علي الفارسي نحو ٢٠ سنة . من المعجبين بالمتنبي .

٣ . البديعي ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

العميد اول قصيدة فيه وهو بأرجان سنة اربع وخمسين وثلاثمئة وهي :
 بَادِ هَوَاكَ صَبْرَتْ أَوْ لَمْ تَصْبِرْ
 وَبَكَكَ أَنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
 ووصل الى هذا البيت :

كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ وَابْتِسَامُكَ صَاحِبًا لَمَّا رَأَاهُ وَفِي الْحَشَا مَا لَا يَرَى
 - وكان ابن العميد كثير الانتقاد على ابي الطيب - قال له : يا ابا الطيب
 تقول " باد هواك " ثم تقول بعده " كم غر صبرك " ؟ ما اسرع ما نقضت ما ابتدأت
 به . فقال : تلك حال وهذه حال (١) حتى اذا كان البيت الاخير في القصيدة
 تنازع ندما ابن العميد فيه وهو :

فَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِيلَةً الشَّمْسُ تَشْرِقُ وَالسَّحَابُ كُنْهُورًا
 فقال : اثبتوه حتى اتأمله ، فأثبت البيت ووضع بين يديه ، فأطرق مليا يفكر فيه ،
 ثم قال : هذا يعطلنا عن المهم وما كان الرجل يدري ما يقول (٢) . وقد
 اشار المتنبي الى انتقاد ابن العميد له في قصيدة انشدها اياها مهنئا
 بعيد النوروز (٣) ، ولعله كان يحترم رأيه لدرجة الضعف فسكت كما سكت عن
 غيره . فنحن لا نكاد نتلمس سوى العدا لابي الطيب في هذه البيئة وكان
 عاملا واحدا غذى هذا الحقد فبرز حتى مع مدوحيه . فكانت تستغل عقده
 النفسية ، كتعاطيه لغير النفس مثلا ، وتكيفها حسب ظروفها الخاصة لتخدم
 غرضها وغرض الذين اغروها به .

وكان صاحب قد طمع في زيارة المتنبي اياه باصبهان " فكتب اليه
 يلاطفه في استدعائه وتضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزنا ولم
 يجبه عن كتابه ولا الى مراده وقصد حضرة عضد الدولة بشيراز . واتخذ

١ . البديعي ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ١٥٣ .

٣ . يورد البديعي بعض ابائاتها ص ١٥٣ - ١٥٥ .

الصاحب غرضا يرشقه بمساهم الوقية ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته وينعي عليه سيئاته وهو اعرف الناس بحسناته واحفظهم لها واكثرهم استعمالا اياها وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته . . (١) . وبهذا يقف النقد عند الظروف الخاصة التي ستعي الناقد عن الموضوعية المتزنة وتبعده عن الاصولية . فالصاحب قد كشف في رسالته عن مساوي ابي الطيب ولم يتعرض لحسناته ، بل اكتفى ، كما يؤخذ عليه ، باستعمالها في رسائله ومكاتباته . الا ان اسباب النقد التي طبعت رسالة الصاحب بصيغة التعصب على الشاعر تفيد في جلاء هذه الصورة الشاملة لهذه الفترة ولتلك البيئة التي نظرت الى ابي الطيب بمنظارها الاسود على العموم . يقول الصاحب في تصدير رسالته : " . . وليس من الحزن ان يزرى العالم على نفسه بالعصبية ويضع من علمه بالحمية . . . وكنت ذاكرت بعض من يهتم بالادب والاشعار وقائلها والمجودين فيها ، فسألني عن المتنبي فقلت انه بعيد المرمى ، وشعره كثير الاصابة في نظمه ، الا انه ربما اتى بالفقرة الغرا مشفوعة بالكلمة العوراء . . (٢) . " . . . وحين يبدأ احد هؤلاء النقاد بنقده ، محددا طريقته حسب ظروفه الحاضرة وذاتيته المنفعلة ، ينسى كل اعتبار اخر غير الغرض الحالي الاصيل ، فينكفي له بذوقه وحسه وموروثه الثقافي وغيره لتختزن له رسالته كل حقد وعدائه على الشاعر الكبير ، ومن هنا نلمس مدى الاخلاص الفني الواضح والكشف الصحيح المعمم ، والعرض المغري لمساوي الشاعر الواحد على تعدد النقد وتشعب ظروفه . فلقد وفق النقد فنيا وادبيا حتى في اكثر حالاته تعصبا وتحيزا . والغريب في امر ابي الطيب ان الحسد رافق شهرته غالبا فكثر مبغضوه . ويحكى ان رجلا من مدينة السلام كان يكرهه ، فأقسم الا يسكن مدينة يذكر فيها اسمه او ينشد شعره ، فرحل عنها الى اقصى بلاد الترك فتوطنها ،

٠١ . اليتيمة ، ج ١ ، ص ٨٧ .

٠٢ . الصاحب بن عباد ، الكشف عن مساوي المتنبي ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

لان اهلها لم يعرفوا ابا الطيب ، فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها
بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعدما ذكر اسما الله الحسنی :
أَسْمَاءُ لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَأَنَا لَذَّةٌ ذَكَّرْنَاهَا (١)
فعاد الى دار السلام . وهذا شاهد اخر على تشيع الجوالادبي العراقي
بروح النعمة على الشاعر والكرو له رغم شكنا بالقصة ككل حدث بينه وبين ابي
علي الفارسي بشيراز ، ينم كذلك عن روح حاكمة عامة شملت اولئك الذين
آذنتهم شهرة المتنبي وسعة قدره في الشعر الذي يملأ فراغهم وفراغ
رؤسائهم وامرائهم . فكان ابو علي الفارسي ، وهو بشيراز ، يستثقل ابا
الطيب لقبح زيه ولما يأخذ به نفسه من الكبرياء ، وكان يسوء ابن جني ذم ابي
علي له ، فجرى يوما بحث شعر بين الاثنين فأنشد ابن جني - ومعروف هواه
لابي الطيب وكثرة اعجابه بشعره - اربع ابيات من محاسن شعره (٢) ،
فجعل ابو علي يستحسنها ويستعيد لها ويسأل عن صاحبها فقال له ابن
جني : هو الذي لا يزال الشيخ يستثقله ، ويستقبح زيه وفعله ، وما علينا
من القشور اذا استقام اللب ؟ قال ابو علي : اظنك تعني المتنبي ؟ قلت
نعم . قال : والله لقد حبيته الي ، ونهض ودخل على عضد الدولة ، فأطال
في الثناء عليه (٣) . واننا نستبعد جهل الفارسي بشعر ابي الطيب وقد
زامله في بلاط سيف الدولة وكان عليه ان يتتبع شعره بخير او بسوء . وقد
اوردنا هاتين الحادتين على مبالغتهما ورفضنا تصديق بعض محتوياتهما ،
لنقرب صورة هذا الاثر الواحد ، غالبا - الترفع - الذي حمل لصاحبه

- ١ . البديعي ، ص ١٦٠ . وهذا البيت من قصيدة للمتنبي يقول فيها :
تجمعت في فؤاده هم مل فؤاد الزمان احداها
والذي سيكثر النقد حوله مع نقاده .
٢ . منها : حلت دون المزار فاليم لوزر ت لحال النحول دون العناق
٣ . البديعي ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

الاذى الادبي العام ، وهذه البيئة بمعظم نقادها ولغوييها وشعرائها وابنائها في حال استجابتها العفوية ، المتفقة اجمالا ، لهذا الاثر بالذات ، وللظروف الانفعالية الخاصة ، ولرغبات بعض الامراء والوزراء الذين مهدوا لهذا العداء بالاغراء والمال . وقد انتهت هذه الاسباب الى تكثيف حركة النقد في هذه البيئة واغنائها واستثارتها لعقلية الوسط ، التي ستبرز في النقد الموضوعي المحايد او النقد المعتدل مع الجرجاني من ناحية ، والعسكري والشعالي وغيرهما من ناحية اخرى . اما حياة المتنبي التي حفلت بالقلق والحذر والثورة الدائمة حتى على نفسها ، فقد انهاها شعره - على الرواية - فكان ان حمل له الهجاء نية القتل ، والفخر الذاتي (١) ، والتصميم على الصمود فالقتل .

وقد عمدنا الى تصوير الجو الادبي العام لهذه البيئة لنؤكد اسباب خصومة الشعراء والنقاد له ، التي ارتبطت ، بنظرنا ، بمظاهر بارزة من شخصيته كونتها ظروفه الخاصة فما كان له في الغالب ان يختار . فترفعه عن مدح غير الملوك جر اليه عداؤ الوزراء والامراء فأغروا النقاد والشعراء به . ونحن نركز على هذا السبب المباشر - رغم اقتناعنا بأنه سبب اخر - لاننا نربطه بحياته الخاصة . فنسبه الوضيع ، وفقره المبكر ، وشرهه الى المال بسبب حاجته الدائمة اليه ، وردة الفعل التي ولتها هذه الحالات في نفسه وسلوكه وطبعه (٢) ، وادعاؤه النبوة ، وثورته المخففة في بادية السماوة ، وعلاقة الكراهية التي ربطته بالعلويين منذ خروجه من كتاب لهم الى الثورة ، الى كمرعاقب ، الى العراق حيث نشرك العلويين بالتهئية والعمل على اشاعة هذا الحقد على الشاعر ، وظروف النقاد الخاصة كلا على حدة .

١ . يذكر ابن رشيقي انه لما حاول الهرب قال له غلامه : الست القائل :

الخيال والليل والبيداء تعرفني القصة .

٢ . مثل التعالي وتعاطي كبر النفس والتعاضم .

كل هذه الاسباب مجتمعة ، وعلى تفاوت في النسبة ، عملت على اخراج
هذا النقد المكثف - على اختلاف طرقه - وتوجيهه تلك الوجهة الخاصة التي
ستتجلى اكثر ما يكون في " الرسالة الموضحة " التي بدأها الحاتمي بهذا
العداء الذي واجه به الشاعر نفسه .

(١)
الحاتمي وثقافته النقدية (٣٨٨ هـ) :

هو ابو علي محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب اللغوي البغدادي المعروف بالحاتمي . احد الاعلام المشاهير ، المطلعين الكثيرين . اخذ الادب عن ابي عمر الزاهد غلام نعلب . وروى عنه اخبارا واملاها في مجالس الادب . وجاء في " ارشاد الارب " ، لياقوت و " بغية الوعاء " للسيوطي انه ادرك ابن دريد واخذ عنه . نقل عن كتبه عدد من النقاد والمصنفين امثال ابن رشيقي في " العمدة " وابن سنان الخفاجي في " سر الفصاحة " واسامة بن منقذ في " البديع في نقد الشعر " وابن ابي الاسبع في " بديع القرآن " و " تحرير التحبير " . كما اخذ عنه جماعة من النبلاء ذكر منهم ابن خلكان القاضي ابا القاسم التنوخي وغيره .

والحاتمي كاتب شاعر ناقد شهد له مؤرخو الادب بوفرة الاطلاع وغازاة العلم . وروى القفطي في " انباء الرواة " انه كان يكتب لجلة الامراء ببغداد ، وله تقدم في ذلك وتمكن من علم المعاني الادبية . وكان من حذاق اهل اللغة والادب ، شديد العارضة بهما . ويتفق الجميع على انه كان مبغضا الى اهل العلم فهجاه ابن حجاج وغيره من الشعراء بأهاج مرة لاذعة ، وان له اجتماعات مع المتنبى ببغداد ومواقفات عليه . وقد دلت " الموضحة " - وهنا تغيب عن معظم المصنفين تسميتها الحقيقية فينبعثها القفطي مثلا " بجبهة الادب " وابن خلكان " بالرسالة الحاتمية " في احد المواضع - على غزارة مادته ووفرة اطلاعه ، وشهدت له - ثم يذكر ابن خلكان

١ . استقينا هذه المعلومات من القفطي في " انباء الرواة " ج ٣ ، ص ١٠٣ . والسيوطي في " بغية الوعاء " ، ص ٣٥ . والوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٥ . وابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٤٨٢ - ٤٨٦ . وياقوت في " ارشاد الارب " ، ج ١٨ ، ص ١٥٤ - ١٥٧ .

اسمها الحقيقي - بالفضل الباهر مع سرعة الاستحضار واقامة الشاهد .
وسيتضح لنا فضل الحاتمي في "موضحته" في رصدنا للنقد الذي احتوته
مناظراتها الاربع وحوارها الادبي الجري . وقد صنف الحاتمي عددا من الكتب
والرسائل في النقد والادب واللغة والتراجم ، وقف ياقوت على اكثر من عشرة اسما
لها : "كالهلباجة" و "حيلة المحاضرة" و "الحالي والعاطل" و "سـ
الصناعة" و "المجاز" . وجميع هذه المصنفات في صناعة الشعر ، سوى
"الموضحة" و "الرسالة الحاتمية" و "المعيار" و "الموازنة" و "مختصر
العربية" و "عيون الكاتب" و "الشراب" . وغير ذلك من التأليف القيمة الجليلة .
ولعل "حلية المحاضرة" في صناعة الشعر ، والتي تقع في مجلدين كما يذكر
ابن خلكان ، من اهم واخطر ما صنف ابو علي لما يدخل فيها من ادب كثير وعلم
غزير . وقد رجع ابن رشيق في "العمدة" الى بعض فصولها ، في باب السرقات
وما شاكلها ، فقال : وهذا باب متسع جدا ، لا يقدر احد من الشعراء ان يدعي
السلامة منه ، وفيه اشياء غامضة الا با البصير الحاذق بالصناعة واخر فاضحة
لا تخفى على الجاهل المغفل ، وقد اتى الحاتمي في "حلية المحاضرة"
بالقاب محدثة تدبرتها ، ليس لها محصول اذا حققت : كالا صطراف والاجتلاب
والانتحال والاحتدام والاغارة والمرافدة والاستلحاق ، وكلها قريب من قريب ،
وقد استعمل بعضها في مكان بعض ، غير اني ذاكرها على ما خيلت فيما بعد (١).
ثم ذكر مختلف انواعها ممثلا لها بالشعر الذي اورده الحاتمي نفسه .
ونحن لا نشك بعد وقوفنا الدقيق على رسالتي الحاتمي في ابي الطيب ،
وبعد استعراضنا لمتنوع التصانيف التي ذكرها المؤرخون له ، بتفرد ثقافته
النقدية ، وجلال تشعبها ، ووقوعها الرائع على عبقرية التراث ، ومدى هذا

المخزون الادبي والمحفوظ الشعري بوعي العرض والاستقراء ، على لطافة الذوق وجمال الحص وحسن الدربة والممارسة ، فلا يخفى على طالب الادب غزارة مادة او وفرة اطلاع او براعة استكشاف • وسنرى كيف ان النقد في "الموضحة" و "الحاتمية" يستطيع ان يدل على صاحبه فلا يفوتنا كبير شي •

١ - الموضحة للحاتمي :

"... فبهرا با الطيب ما اورده ، واحتبست عارضته ، وعقل لسانه عن الجواب ، وكاد يشغب لولا ان هيبة الوزير ابي محمد ملأت قلبه • وقد كان من قبل يلاوذ المناظرة لياذ الغريم من التتبع • فحين انتهى في القول الى هذا الموضع ، نهض مغضبا ، وكان اخر العهد به في تلك الدار (١) • ثم ارتحل عن العراق الى الكوفة ومنها الى فارس ، منتجعا عضد الدولة وملما بابن العميد ، محسنا في بعض ما مدحهما به ومسيئا في البعض الاخر • فانه كان استنفذ في سيف الدولة احسانه ، واستغرق في مدحه باعه ، فأضطر الى الارتحال والعود الى العراق ، فاخترم دون ذلك ، وكان اخر العهد به (٢) • وذلك في يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة اربع وخمسين وثلاثمائة (٣) •

وهكذا انتهت مناظرة الحاتمي لابي الطيب بجلستها الاربع المفترضة في بغداد ، ليكون النقد الذي دار فيها اول نقد حقيقي تعرض لشعر الرجل • ولتكون الرسالة الموضحة " ، بعد ان جمع الحاتمي فيها ما استدركه في

- ١ • الموضحة ، ص ١٩٥ •
- ٢ • المصدر ذاته ، ص ١٩٦ • وواضح ان الحاتمي كتب رسالته هذه بعد وفاة ابي الطيب اذ انه يذكر خبر مقتله في اخرها كما تقدم •
- ٣ • البديعي ، ص ١٢٠ •

المناظرة ، اول رسالة نقدية صنف في هذا الشعر ، على اعتبار ان مادة الرسالة كانت قد تحققت لدى العلماء والناس . وعمت شهرتها ، بعد ان روج لها الناقد والوزير المهلبى واعداً الشاعر في بغداد . ولان النقد الذى دار في الجلسة الاولى كان قد انتظم في رسالة رفعها الحاتمي الى الوزير والخليفة . فمنى خبرها في البلاد واشتهرت حالها في كل ناد . يقول ابو علي بعد انتهاء الحلقة الاولى : " . . . وكانت الجماعة الحاضرة تستخدم اقلامها في تعليق اوائل الابيات التي جرت المنازعة فيها ، وتراعي مواقع احتجاجاتي واحتجاجاته ، وتثبت رمزا ووحيا وكان جميعه نصب عيني ، وله كالمرآة من حظي . فحين نهضت عن المجلس ، ولم انهض الا بعد ان راجعت جميلا في خطابه ، واطنبه في تقريظه ، وفي تعفية اثر عقوبته ، وفي الالة جانبي له . واتبعني القوم راغبين الي في نظم ما جرى وضم شتيته ، والرجوع الى ما ثبت في تعليقاتهم من جملته ، واستعداد قريحتي في ذكره ، وانشاء رسالة انبه في اثنائها عن امره . وكان النهار قد تصرم شبابه ، وشابت هرما ساعاته ، وكريت الشمس للمغيب وضعت للافول . وامتد عنان المشاجرة ، واستفحل الامر عن المذاكرة ، فلم تتسع القدرة في الحال لنظم الرسالة . واستصحب ما ثبت في صحفهم ، وعدت الى دارى فاتخذت الليل مطية ثلاث ليال لا اطعم فيهن الكبرى ، الى ان تغور اخرى النجوم ، وتتوالى اسراب الظلام ويبتسم الصبح ، الى ان انتظمت الرسالة . وقعدت ثلاثا اقعدتها اسهرهن نافيا عن عيني الكرى الى ان يمزق الفجر سريال الدجى ، وييسم ثغره في ثغرة الضحى . ونبي الخبر واشتهرت الحال ، ونودى بها في كل ناد . ورسم الوزير ابو محمد والرئيس ابو الفرج محمد بن

العباس - واياہ خاطبت بهذه الرسالة وامره المسموع في نظمها امتثلت - وهما
كوكبا المملكة وناظرا الدولة ، شرحها فشرحتها ، وانهيها الصورة الى معز
الدولة فانعمت في مسرته ، ووكد الوصاة بمراعاتي والتكرمة الشديدة لي (١) .
وستتخذ الجلسات التالية طابعا رسميا ، من الطبيعي ان يتتبع المعنيون
بشعر الرجل اخباره ونتائجه . عدا ان هذا النقد الذي انتظم للان في رسالة
رفعت للخليفة واشهرت في الناس ، من اهم ما تضمنته "الموضحة" ، ككل .
حيث استعرض الحاتي فيه ، بانفعال ووهلة واحتدام وجل ما حفلت به نفسه
من اراء واتهامات وتساؤلات حول هذا الشعر الذي طوف في البلاد فاقلقه ،
وجلب له وللذين اغروه الحسد والحقد والنفور . "ثم راي الوزير ابو محمد
الجمع بيننا في مجلس ، وان تكون مراجعته الكلام ومناقشته اياه بحضرته . وانا
مورد ذلك مجلسا مجلسا على هيئته . فان ابا محمد المهلبى رسم لاثباته
كاتبين من خواص كتابه ، ووكد القول عليهما في الاحتراس من ان تشذ لفظة
واحدة منه ، فحصل ذلك تحصيلا شديدا (٢) وانا اذكر ان شاء الله ما
شجر بيننا ، واشفعته بما تعلقت به عليه من سرق واحالة ، من لفظ هجين

٠١ الموضحة ، ص ٩٦ .

٠٢ وكان ممن شاهد الحال ان ذاك هبة الله بن المنجم - وهو من الادب
بحيث لا يخزى مشهده ، ومن المختصين بمصاحبة ابن عباد فيما
بعد . وهو من آل المنجم الذين لهم وراثة قديمة في منادمة
الملوك والروسا . وقد اورد صاحب اليتيمة شعرا له . (اليتيمة ،
ج ٣ ، ص ٢٠٨) . وعلي بن محمد الشاعر المعروف بأبن البقال
- وله مكانة من الفضل . وكانت له محاضرة حسنة وبضاعة في
الادب صالحة وطبقة في الشعر جيدة . نادى المهلبى ونفق
عليه . هو من بغداد ومات في ايام شرق الدولة . (معجم الادباء ،
ج ١٥ ، ص ٢٢٩) .

ومعنى فاسد ، واومي ، الى مواضع احسن فيها من شعره ، وانبه على معان يكاد يكون مخترعا لها ، وعلى معان اخذها فأحسن العبارة عنها والزيادة فيها ، متصرفا مع الحق في جميع ما افضي به ، لتكون هذه الرسالة جامعة مستوعبة كاشفة قناع اللبس في امره ، وخاتمة الدعاوى والتحامل عليه بحول الله وقوته . (١) .

فهل حقق الحاتمي ما ادعاه من فضل في هذه الرسالة ؟ سنتتبع ذلك عند دراسة نقده فيها ، وتحصيل ما استدركه على الشاعر من خطأ وصواب . والذي يهمننا الان التأكيد على اسبقية هذه الرسالة بعد ان وجهت انظار المتأدبين والعلماء رسميا كما يظهر ، الى جميع فصول المناظرة التي تلت الجلسة الاولى ، والى شيوع المادة النقدية التي فرضتها هذه المجالس ، والى طبيعة النقد الجديد نفسه بما حمله من غرابة في الاسلوب والمعالجة والحوار الطويل النادر بين الناقد الكبير والشاعر الكبير . مع التركيز على الجزء الذي نشر واشتهر فحول معظم الناس اليه ، وللشاعر كما للوزير والخليفة المكانة الخاصة عند الموالين والمعادين على العموم . وقد حققت هذه المنازعة للحاتمي الشهرة التي توخاها ، ودفعت به الى الواجهة الامامية في صف النقاد المتعصبين على الشاعر محققة بذلك كما نفترض ، نوعا جديدا من الالتفات المتأن المترو الى شعر الشاعر العظيم ، ومهيئة جوا اكثر ملائمة للعداء وبث الشحنا والحسد المغمور . يصور الحاتمي هذه الشهرة فيخطب الرئيسي : " اجد الرئيسي شديد العلاقة بمفاوضتي اياه ما كانت المشاجرة وقعت فيه بيني وبين ابي الطيب احمد بن الحسين المتنبى ، في المجلس الذي اثرت فيه اثاره ، وسافرت في اطرار البلاد اخباره ، مستهترا بتكرير فصول منه تتعلق بحفظي منه ، منازعا جمع شتيته مشيرا الى اليوم الذي شجرت تلك المنازعة فيه اشارة معني به معين على الشهر والسنة والوقت من الزمان ، والى

ما اثمرت لي تلك المنازعة من بعد الصيت وشراد الذكر وقدم السبق واللاحاق به ،
في حال الغراره ولين الغصن ، بالغاية التي لا يجرى في مضارها الا المذكي
من اهل الفضل . هذا الى انافة المكان وازلاق السلطان وتناصر الانصار والاعوان
وانتشار ما كان مطويا في تلك الايام من فضلي ، ومغمورا بقوارع الحساد وسن الصبا
من محاسني (١) . ونحن لا نشك بعد هذا بأهمية المجلس الذي سافرت
في اطرار البلاد اخباره ، فنقرر تقديم نقد الحاتي على النقد الذي تلا ، انطلاقا
من تحقق المادة وشيوعها ، بعد الرسالة التي لخصت الجلسة الاولى والمناظرات
التي تبعتها امام الفرقاء المختلفين . حتى ان الحاتي نفسه حين كتب الموضحة
ورفعها الى ابي الفرج محمد بن العباس الشيرازي (٢) - احد المهتمين مع
الوزير في رعاية المناظرة - لم يهش للحديث عما لامور احدها اطالة الكلام حول
ما حدث وشروء الخبر في ذكر ما جرى ، وكأن المادة اصبحت قديمة لديه
وللناس فلم يرتج لها . يقول : " . . . وارادني ، ادام الله قدرته ، على انشاء
رسالة تشتمل على اشتاته ، وتنظم منشور فصوله وابياته . واجدني لا ارتاح الى
ذلك ارتياحي - كان - قديما له ، ولا اهش الى الحديث عنه هشاشة كانت
اليه . لامور اخصها ترفعي الان ، مع ابراق غصني واثماره وتبسم نواره واستطارة
انواره ، عن ذكره . ولتصوني عن قوارص غلظة لا احلام لهم تنحط في شعبه
وتنخرط في سلكه . ثم لاني اطلت عنان القول مع الرجل اطالة ربما اتهم الحاتي
لها والمخبر عنها ، وان كانت الحال اشرد خيرا واخلد اثرا من ان ينسخ صباحها

٠ ١ الموضحة ، ص ١ - ٢ .

٠ ٢ الرئيس ابو الفرج الشيرازي : هو محمد بن العباس الشيرازي ، وزير من
الكتاب من اهل شيراز . كان كاتباً لمعز الدولة البويهية . ولي
الوزارة للمطيع العباسي سنة ٣٥٩ هـ ولعز الدولة بختيار بن
معز الدولة . كان راجع العلم فاضلا امينا . ولد سنة ٣٠٨ هـ
وتوفي سنة ٣٢٠ هـ (انظر الاعلام ، للزركلي ، ج ٢ ، ص ٥٢ .
والوفاي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٩٨) .

او يطفأ مصباحها .. (١) .

يبقى ان الجديد في الرسالة التي رفعها للرئيس الان من الناحية
الاسلوبية هو تصور الحاتي الحاضر لما حدث واستدراك ما حصل ، مع ايراد
بعض المنازعات والمطالبات والمراجعات التي لم تجر فيها مناقشة والتي لا
تمس في الغالب جوهر الرسالة العام ، رغم استئناف اللهجة القديمة
بالصيغة الجديدة . ويتضح هذا في تدرج الخط الواحد الذي يصل مادة
الجلسة الاولى بالجلسات الاخرى ، وفي اعتراف الحاتي نفسه بذلك ، وفي
الالتفات الواضح الذي ينتقل من الحوار والنقاش الى السرد والاخبار ضمن
المجلس الواحد (٢) . يقول ابو علي بعد ان ينصرف عن المتنبي في اللقاء
الاول : " . . . وكنت استدركت في الحال ما تمكنت من استدراكه من تلك
المشاجرة ، وتلافيت ما اسعد المقدار بالتوفيق بجمعه منها . وكان من
مظاهرة الجماعة الحاضرة على نظمه وضمه ، ومراعاة ما صدر عني وعنه ،
والتنبية على ما استسرعن ذكرى منه ، ما انهض خاطري وان كان خطارا ،
واقترح زناد فكري وان كان يستطير ناراً . فقيدته برسالة وسمت جبهة
الادب ، وذهبت بها افواه الرواة في كل مذهب - وهذه اشارة واضحة الى
تحقق الرسالة الاولى التي فرضت نقدها وشهرتها على الادب والحركة قبل

٠ ١ الموضحة ، ص ٢ .

٠ ٢ عندما يصل الى نقد هذا البيت ، صفحة ٣١ من الموضحة :
ايظمه التوراب قبل فطامه . ويأكله قبل البلوغ الى الاكل
ينتقل الحاتي من مناقشة المتنبي مخاطبة الى الحديث عنه تأليفاً
وسرداً بصورة الغائب حتى صفحة ٣٩ تقريباً . وهذا اول التفات
يشير الى الزيادات التي جاء بها ابو علي . ومثل ذلك ورد صفحة
٧٦ و ٧٧ .

ان يلحق الحاتي بها مواد المناظرات والزيادات الاخرى - واذ كان الرئيس مؤثرا سمتها باسمه ، وعرضها على تصفحه ونقده ، فأنا اصل جناح هذه المقدمة بها ، واهذب ما ارى تهذي به من لفظها . . . وسأتلو ذلك بمنازعات نازعتها ابا الطيب تتعلق بشعره في عدة مجالس ضمتني واياه من بعد هذا المجلس ، وبمواضع طالعتها من اجتلاباته وسرقاته وسقطات اسقطها في شعره ، لم تجر فيها مراجعة ولا منازعة ، ليكون ذلك امتع لقاريه واجمع لشمل ما توخيته فيه . وانسج بعضا ببعض من غير ان اميز اخرا عن اول ، وماضيا عن مستقبل ، واشفع القول بما يزيد الحق وضوحا ، من شاهد يتعلق به او بيت يناسب بيتا ، او بيت جرى صدره فأتممت عجزه ، او عجزه فالحقت به صدره او معنى ضمت اليه شكله . . . فلا يستظل الرئيس مسالك الكلام وان اطلتها ، فقد اجررت القلم مقود الخاطر ، وانصفت كل الانصاف في تهذيب ما حكيت عن الرجل ، وحذفت فضول الالفاظ ، وكسوت احتجاجاته عبارات لعله لو اعتمد ها لفصرت مادته في البيان عنها . وانا اسم هذه الرسالة " بالموضحة " تشبيها بالموضحة من الشجاج ، وهي التي تبين عن وضح العظم كما قال طرفه :

وَتَصَدُّ عَنْكَ مَخِيلَةُ الرَّجُلِ الـ مَرِيضٌ مُوَضِّحَةٌ عَنِ الْعَظْمِ
بحسامِ سَيْفِكَ اَوْ لِسَانِكَ وَالـ كَلِمِ الْاَصِيلِ كَأَرْغَبِ الْكَلِمِ (١)

ولكن هذا التلاعب الارادى في الاصل المفترض - الاسقاط والزيادة في فصول المناظرات - لا يخفض من فنية النقد وموضوعيته طالما ان العمل الادبي مستمر ، واغراض الشاعر والناقد واضحة ، والمشكلات النقدية والشعرية معروفة او مرتقبة .

ولن نعول بعد الان كثيرا على التاريخ الصحيح لتأليف "الموضحة" وان كنا نحصرها قطعاً بالمدة الزمنية الواقعة بين السنة الرابعة والخمسين والثلاثمائة ، بعد وفاة ابي الطيب طبعاً . والسنة السبعين والثلاثمائة ، سنة وفاة الرئيس ابي الفرج الذي رفع الرسالة اليه . واكثر من ذلك نفترض كتابتها قبل السنة الرابعة والستين والثلاثمائة ، سنة كتبها صاحب بن عباد رسالته في "الكشف عن مساوي المتنبي" حسب زعم بلاشير (١) ، وان كنا نفضل النتيجة التي وصل اليها الدكتور شعيب من انه كتبها - اي صاحب - بعد وفاة المتنبي بمدة لا تقل عن اثني عشر عاماً ، على اعتبار انه وضعها بعد عشرين سنة ، تقريباً ، من مجالسته للادباء والعلماء . وقد ولد سنة ٣٢٦ هجرية (٢) . وسنعمد في هذا الافتراض على مواد اوردتها صاحب في رسالته . نعتقد انه اخذها عن "الموضحة" ، او بالاصح عما دار في المناظرات قبل ان توضع في رسالة موحدة ، لان شهرة هذه الجلسات واهميتها الادبية ، برأينا ، قد فرضت مناخاً صالحاً لكل تأثر وتأثير ، بعد العناية والدقة والدعابة التي احيطت بها وبمدبريها ، وذلك في حديثنا عن رسالة صاحب في حينه .

يبقى ان هذا التأكيد على اسبقية "الرسالة الموضحة" واعتبارها اصلاً للدراسات النقدية التي دارت حول شعر المتنبي ، واعتماد صاحب بن عباد والقاضي الجرجاني عليها كما سنرى ، يدفع بالنقد الذي احتوته الى تصدر حركة الفعل وردة الفعل الذي نشأ عنها الوسط المحايد ، كما انها

٠١ بلاشير ، ص ٦٠٠

٠٢ شعيب ، ص ٤٣٠ هذا اذا افترضنا ان صاحب التحق بالعلماء والادباء وهو في العشرين من عمره .

الهمت استمرار النقد المعادي للشاعر ، وتقويته ، وتركيزه ، وتنسيقه في رسائل ظهرت في مختلف البيئات التي تناولت شعراي الطيب بالنقد والتشهير .
وسنعمد الى دراسة هذه الرسالة لنتمس بمدى ما تميزت به من جدة وتركيز في الاسلوب والمادة ، ومدى تفردا وتأثيرها على النقد اللاحق ، لتتبع خط التأثر النقدي في مؤلفات القرن الرابع ، مع الوقوف عند مذهب الحاتمي الادبي كناقد كبير ، غزير العلم ، استطاع خلق حركة معادية للشاعر امتد اثرها ، برأينا ، الى القرن الخامس الهجري ، حيث تمثلت بشخص ناقد حاقد كأبي سعد العميد في " الابانة " ، لم ير في شعر المتنبي غير الهفوات والسيئات .

نقد " الموضحة " :

يقول ابو علي " نهدت له متبعا غواره ، ومقلما الظفاره ، ومذيعا اسراره ، وناشرا مطاويه ، ومنتقدا من نظمه ما تسمح به ، ومنتحيا ان تجمعنا دار يشار الى ربها ، فأجرى انا وهو في مضمار يعرف به السابق من المسبوق .
واللاحق من المقصر عن الحقوق . . (١) " . وطبيعي ان يجهد الحاتمي في تفصي الاصول ، ورد الخواطر الى منابتها ، وكشف السيئة دون الحسنه ، وفضح المعاييب دون التغاضي ، توكيدا لعزمه ، واظهارا لفضله ، وارضاء لطبعه ، فلا يلين له جانب ولا تصفوق ريحة الا بغريلة الحقد وصب النقمة على الشاعر الكبير .

ويقصد مستقراي الطيب في موكب مهيب يفيض في ذكر عظمته وابهته ، مبالغا في تصوير رقة حال الشاعر امام رفعتة وجبروته ، ليكون اللقاء الجاف الذي

حصل ، احد اقبح زياداته وغفلاته . ان لا يعقل ان يصبر المتنبي الشاعر عليه او تنحط نفسية الحاتمي الناقد اليه . ويسرف ابو علي كثيرا في تحقير ابي الطيب في داره - يرافق كل هذا غرور الحاتمي وتيهه وصبر المتنبي وضعته - ويكثر هذا في الاعتذار - حتى قبل ان يتعرفا على زعم الناقد - والحضور في دهشة وعجب الى ان يرق الحاتمي بعد ان يصيب غايته من معاتبته ، وترتاح نفسه من رياضته ، وتغليته والانة عريكته ، ويدخل احد الفتيان لتبدأ المنازعات واسئلة ابي علي الجريئة ويكون ما سيكون (١) .

" . ثم قلت : من الانصاف ان لا تتعدى شعرك الى غيره ، لان في تصفح محاسنه واستثمار افئانه ما الهى عن غيره . وها هنا اشياء تعتلج في صدرى منه ، احببت مراجعتك القول فيها ، فقال : وما هي : قلت : اخبرني عن قولك :
خَفِ اللّهُ وَاسْتَرْ ذَا الْجَمَالِ بَبْرِقِ فَأَنَّ لُحَّتَ حَاضَتٍ فِي الْخُدِّ وَفَرِ الْعَوَاتِقِ
اهكذا ينسب بالمحبين ؟ فقال : اما هكذا في كتابكم ؟ فكفر ، لعنه الله ، فقلت : اين ؟ فقال : في قوله تعالى : (فلما سأينه اكبرنه) - يوسف ٣١ - اى حزن شهوة له واستحسانا لصورته ، فقلت : لم يقل هذا احد من محصلي اهل العلم ، ولا شهد به ثقة . وانما روى بيت شان لم ينسب الى احد . (٢) .
الثقة من محصلي اهل العلم ، والرواية العربية ، والشعر القديم ومفهومه : هذا هو الاساس النقدي الذى ينطلق منه الحاتمي كمعظم النقاد ، ولكنه لن يقف عند هذه الاعتبارات ، فلا يبي علي شخصيته النقدية الفذة ، وذوقه الراقي ، ومذهبه الفني المميز ، وثقافته التي لا يرقى اليها شك . وقد اراد الانصاف في تهذيب ما حكاه عن الشاعر ولكنه ما فعل ، وكانت له ظروفه ، وقد يعذر . ولكننا

١ . نفس المرجع - الموضحة - تمتد اخبار هذا اللقاء الاول من صفحة

٨ الى صفحة ١٣ دون ان تخف حدة المبالغة التي يصورها

الحاتمي كل هذا .

٢ . الموضحة ، ص ١٣ .

لن نتغاضى عن اخلاصه لغنه واسلوبه وموضوعيته الخاصة ، طالما انه التزم بما تعهد واقتدر على ما اراد . وسنقبل على الرسالة كخلاصة نقدية لمذهب الرجل ، بموضوعية وفنية ، دون اعتماد الخط الذى تمثله ، او الظروف التي اوجبتها ، او الحالات التي رافقت نفسية مؤلفها ، لنتبين لها مركزها الرسمي في سلسلة النقد الذى عالج شعرابي الطيب في القرن الرابع الهجرى وما بعده بقليل .

اما هو فقد اقبل على شعرابي الطيب يفليه ويقلبه ، ليخرج بالسيئة التي توهن الشعر وبالخطأ الذى يعيبه ، ملحا على المعايير الفنية يكشفها ذوقه الفني بجرأة ودربة ، ملما بالاصول الجمالية التي تنفي القبيح وتزدرى الضعيف ، معايدا في رصد السرقة واقتفار الاخذ والاجتلاب ، معتمدا ذلك في الغالب على تصنع وتمحل ، مخطئا المحدث الذى يزل ، ومكفرا عن القديم الذى ابتدع ، مكثفا الاخطاء ، لتكون جلسات الرسالة معرضا لمساوى الشاعر الفنية ومجمعا لسقطاته الشعرية التي لا تغتفر . وسنرى ان ابا علي وفق في افراد كل ذلك . وخاصة في معاينة مواضع الزلل ، وابرازها بالمناسبة اللائقة والمعرض الضخم .

حدود الشعر :

حدود الشعر عند الحاتمي اربعة : وهي اللفظ والمعنى والوزن والتقنية . ويجب ان يكون الفاظه عذبة مصطحبة ، ومعانيه لطيفة ، واستعاراته واقعة ، وتشبيهاته سليمة . وان يكون سهل العروض رشيق الوزن متخير القافية ، رائع الابتداء بديع الانتهاء (١) . وهذه مفاهيم دارجة وان كانت لا تتفق كليا مع اوصاف ومعايير عمود الشعر التقليدى . فالحاتمي يصدر عن ذوق فني يفترض

الاعتدال ، فلا يرقى الى " شرف المعنى وصحته " ولا يقع عند السخيف المبتذل .
وكذلك اللفظ لا يتعدى العذوبة والاصطحاب الى البداوة فيجفو ، والرقصة
فيسف . اما ان يكون رشيق الوزن ومتخير القافية وسهل العروض فلم يسلم بعكس
ذلك اى ناقد سلم ذوقه ودق فهمه . ولا يبي علي في الاستعارة افتراضات لبقة
انتهى فيها حسه الجمالي الى حسن التمييز ، والتحسس الواعي للسياغة الشعرية
البليغة ، ورصد الموضع اللائق ، ليكون موقعها فوق موقع الحقيقة ، ودون الاحالة
والبعد الهجين . ولا نعتقد انه انطلق في الوقت ذاته من تعريف قدامة للشعر
لان منطلق هذا الاخير يغاير طبيعة تناول العمل الشعرى ومفهومه الذى صدر
عنه الحاتمي . كما ان طريقة النقد لا تتساوى في تقدير الذوق والتحويل عليه ،
ناهيك باختلاف الشخصيتين الادبيتين وثقافة وظروف كل منهما . ولن تنحصر
معايب شعر المتنبي ضمن هذه المعايير الشعرية الفنية ، بل تتعداها الى
مفهوم السرقة عند الناقد ، والى كيفية معالجة موضوعات الشعر ، والى التعريض
بمتعدد الاخطاء اللغوية ، والعروضية ، والفنية ، والوقوف عند المعنى المتدرج
من السلف الى الخلف ، وعند " الكلام الذى ليس كله مشتركا ، الى اخر القضايا
والمشكلات النقدية التى مثل عليها الحاتمي بشعراي الطيب خير تمثيل وادقه
معظم الاحيان .

في اللفظ :

" . . . ومن افحش المعايير الا تقع اللفظة مصاحبة اختها ، ولا
مزاوجة ما جاورها . . (١) " . لان الكلام لا يجرى في ذلك على نظم ، ولا يرد
على اقتران وممازجة ، ولا يتسق على اقتران . " وما يحتاج اليه القول ان ينظم
على نسق المعاملة وان يوضع على رسم المشاكلة . وما ذهبت فيه هذا المذهب

قولك :

ما أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَيْعِي أَنَا الثَّرِيَا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وهذا ايضا كلام جار على غير مناسبة ، لان الثريا ليست من جنس الشيب
والهرم ولا هما من جنسها . وكان وجه الكلام ان تقول : انا الثريا سفورا وعلوا
وذان السهى خفا ، وخبوا . او ان تقول : انا الشباب وذان الشيب والهرم (١) .
والشاعر لا يسأل ماذا كان وجه الكلام ان يقول ، بل ان يسأل ما قال ، وان
يعنى بما قيل . فالعيب والنقصان كالشيب والهرم ، سواء ، اصح ما يعتقده
الشاعر ام لا فهذا لا يعنينا طالما ان الصورة واضحة والتشبيه سليم ، وهو
كالثريا اناة وعلوا ، فالمجاز ان حصل معه القصد والمعنى ، بليغ ، ولا عيب
فيه ، وان لم يتضح هذا كل حين . وعند الحاتمي ان استعمال المحدثين
الفاظ العرب الجافية مستهجن ومباين لمذهب المطبوعين والمرهفين . يقول :
” ثم قلت : ومن غزلك الذى باينت فيه مذاهب المطبوعين والمرهفين قولك :
رَبْحَلَةٌ أُسْمِرُ مَقْبَلَهَا سَبْحَلَةٌ اَبْيَضُ مَجْرَدُهَا (٢)
وقد اخذتهما نسخا من قول بعض العرب في ترقيص بنية له (٣) :
سَبْحَلَةٌ رَبْحَلَةٌ تنمي نبات النخلة
قد يكون هو ” بعض العرب ” لفرض السرقة - النسخ - عليه . على ان الجفاوة
في الالفاظ حاصلة ومستكرهة ، وخاصة في الغزل الذى يقترح الرقة والعدوية .
ومن جاني لفظه قوله :

أَيُّطِمُهُ التُّورَابَ قَبْلَ فِطَامِهِ وَيَأْكُلُهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ إِلَى الْاَكْلِ

- ٠١ الموضحة ، ص ٢٣ .
- ٠٢ المصدر ذاته ، ص ٢٦ . الربحله : العظيمة الجيدة الخلق ، والسبحلة :
الطويلة العظيمة .
- ٠٣ المصدر والصفحة ذاتهما .

لفظة التوراب على سلامة مصدرها جافية جدا (١) . وقد تبدى المتنبي في الفاظه أحيانا وجفا ، وهذا لا يصاحب الطبع والحداسة . ويقع عنده الشاعر حين يتمحل ويتكلف قصد التفاح ، أو حين يزوق المعنى السخيف باللفظ المخيف أو حين يورث الغموض والأحالة قصد التعمية أو التضليل . وهي ساقطة في كل حال عند متأخرى الشعراء لأنها ليست في طباعهم ولا في أسماعهم أو على السنتهم . في حين أن ركافة الألفاظ وهلهلتها ، وغث الكلام وسفاسفه ، واللكنة والعجمة ، والافتقار الشديد ، واللفظ المستهجن المضطرب إلى غير ذلك ، من مظاهر الشعر المتأخر المحدث . وقد تنبه الحاتمي إلى ما احتواه شعراي الطيب من هذه المعايير اللفظية فاستوقفه عندها ، ليريه سماجته فيها ، وسخافاتة التي تكررت فاستنكرت . " وقد تبردت في هذه الأرجوزة على عادتك بأن قلت :

أَقَامَ فِيهَا الثَّلْجُ كَالْمُرَاقِ يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رَيْقُ الْبَاصِقِ
 وأشهد الله أن هذا من غث الكلام وسقط الشعر (٢) . وهذا كشعر المبتدئين رغم أنه ثقیل وسخيف كابتداء يتطلع به إلى حسن الموقع واستجلاب السمع .
 وما استدل به على لكمة قائله وغثائه وبرده وتصغيره المستقيح قوله :
 قَبِيلٌ أَنْتَ أَنْتَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ وَجَدُّكَ بِشَرِّ الْمَلِكِ الْهَمَامِ (٣)
 أو قوله :

فَخَذَا مَاءَ رِجْلِهِ وَأَنْضَحَا فِي الْـ مَدْنِ تَأْمَنُ بِوَائِقِ الزَّلْزَالِ
 أو قوله وفيه من اللكنة وركافة اللفظ والافتقار الشديد ما يثير :

- | | |
|-----|----------------------|
| ٠ ١ | الموضحة ، ص ٣١ . |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ٢٩ . |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ٣٤ . |

العارض الهتن ابن العارض الهتن اب ن العارض الهتن ابن العارض الهتن
واحسب ابا الطيب ناجى نجوم الدجى ليلة كلها حتى حياه بوجهه صباحها حين
انتظم له هذا البيت (١) . وهذا تهكم لطيف يتعثر بالسقطة فلا يغفل عنها .
ونحن لا نشك مطلقا بحسن ذوق الحاتمي وتذوقه ، فلا نعتبر هذا شعرا وان صدر
عن شاعر كبير . وكما وفق الحاتمي باستجلاب السقطات وفق بالشاهد ، فما استعصى
عليه . . ولن نتهمه اذا ادعى على الشاعر ، وفي شعراي الطيب مثل هذا النظم
المتهافت ، واللفظ المضطرب ، والكلام الغث المستكره :

فَتَى أَلْفُ جَزْءٍ رَأْيُهُ فِي زَمَانِهِ أَقْلُ جُزْءٍ بِعَضِّهِ الرَّأْيُ أَجْمَعُ

وقوله :

فَكَلَّمْتُ أَتَى مَا تَى أَبِيهِ وَكُلُّ فِعَالٍ كَلَّمٌ عَجَابٌ

وقوله :

يَا مَنْ نَلَوْدُ مِنَ الزَّمَانِ بِظِلِّهِ ابْدَأْ وَنَطَرْدُ بِاسْمِهِ أَبْلِيَسَا
خَيْرُ الطُّيُورِ عَلَى الْقُصُورِ وَشُرَّهَا يَا وَيَّيْ الْخَرَابُ وَيَسْكُنُ النَّاوُوسَا (٢)

لان الشعر ابعد من ان يقف عند المعنى المجرد او الحالة او التجربة فقط ،
سواء سميت هذه وصدقت او رقت واخلفت ، فكيف اذا اضطرب اللفظ وضعف ، او
جاء بما لا طائل تحته . وما يأخذه ابو علي عليه قوله :

كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خَبْرَتِي بِهَا وَكَانَ بَنَى الْأَسْكَدَرِ السَّدَ مِنْ عَزْمِي
وهذا لفظ مستهجن وتشبيه غير مستحسن (٣) . وقد كنا نعجب للغلو والاحالة

اكثر لو جاء عجز البيت رائعا كصوره . فصاحب "الموضحة" نظر الى لفظة
"الاسكندر" فاستهجن البيت كله لاجلها ، وما لا طائل فيه قوله :

- | | |
|-----|----------------------|
| ٠ ١ | الموضحة ، ص ٣٥ . |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ٣٧ . |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ٣٩ . |

دان بعيد مجيب مبغض بهج أغر حلوم مرلين شرس
ند ابى غرواف اخي ثقة جعد سري نه ندب رضى ندس (١)

ما نظن ابا الطيب كان جادا حين نظم هذا السخف ، ولو كان كذلك لاستحق العقاب . ولن نستغرب هذا حين ننظر الى تقييم الشعر في مكان اخر . يقول الثعالبي : لما انشد سيف الدولة قصيدته التي اولها :

أجاب دمعى وما الداعي سوى طلل دعا فلأباه قبل الركب والأبل

وناوله نسختها وخرج فنظر فيها سيف الدولة فلما انتهى الى قوله :

يا أيها المحسن المشكور من جهتي والشكر من جهة الاحسان لا قبلي
أقل أنل اقطع احم على مل أعد زد هش بش فضل ادن سرهل
وقع تحت اقل قدا قلناك . . القصة (٢)

يبقى ان جرم المتنبي اخف من جرم سيف الدولة ان صحت الرواية ، اذ لا يجاز على نظم كهذا ولعله جمع في هذه الابيات كل غثاة واستهجان واسفاف واستهتار بأذان الناس .

غثاة عيشي ان تغث كرامتي وليس يغث أن تغث المأكلي
أطعنها بالقناة أضربها بالسيف جحجأحها مسودها
أفرسها فارساً وأطولها باعاً ومغوارها وسيدها
سهي ضحاها هلال ليلتها دُر تقاصيرها زرجد ها (٣)

ويعمد الى الالفاظ السليمة الكريمة فيوردها في عبارة فاسدة غير

مستقيمة ، فيهوى ويخطي :

أبعد بعدت بياضاً لا بياض له لأنت أسود في عيني من الظلم

١ . الموضحة ، ص ٣٩ .

٢ . البيتية ، ج ١ ، ص ٨٣ .

٣ . الموضحة ، ص ٤٠ .

وهو على ما فيه مأخوذ من قول أبي تمام :

له منظرٌ في العين أبيضٌ ناصعٌ ولكنّه في القلب أسودٌ أسفعٌ (١)

"واخطأت أيضا في قولك مع ضعف لفظك وسخف عبارتك :

ذِي المعالي فَلْيَعْلَوْنَ مِنْ تَعَالَى هكذا هكذا وَأَلَا فَلَا لَا

شَرَفٌ يَنْطَحُ النَجْمُ بِرَوْقِهِ عَزَّيْقُلُ الْأَجْبَالَا

... فقولك (فلا لا) ركيكة جدا ، وانت تعجب بتكرير هذه اللفظة . قال

وكيف ؟ قلت : الست القائل :

جَوَابُ مَسَائِلِي أَلَهُ نَظِيرٌ وَلَا لَكَ فِي سُوءِ الْكَ لَا أَلَا لَا (٢) .

واني لأعجب كيف لم يتنبه الحاتمي في "موضحته" الى كثرة استعماله

"لذا" على ثقلها وقربها من "لا لا" ، غير ان صاحب الجرجاني قد

استدركا ما فات فما استبعدت مثل هذه السيئات . ولكن يسوء الحاتمي اكثر ،

تركيب الكلام ، والمعاظلة والهديان الذي لا يشفع به نشر ولا نظم ، فيواجه ابا

الطيب بأقواله :

فَقَلَقْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَ الْحَشَا قَلَا قَلْ عَيْنِ كُلْهِنَّ قَلَا قَلْ

او وَمِنْ جَاهِلٍ بِي وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عَلَيَّ أَنَّهُ بِي جَاهِلٌ

او وَقُوفَيْنِ فِي وَقْفَيْنِ شُكْرٍ وَنَائِلٍ فَنَائِلُهُ وَقْفٌ وَشُكْرُهُمْ وَقْفٌ

او وَلَا الضَّعْفُ حَتَّى يَبْلُغَ الضَّعْفُ ضِعْفَهُ وَلَا ضِعْفُ ضَعْفِ الضَّعْفِ بَلْ مِثْلُهُ أُلْفٌ

اذا استوت الالفاظ ، فلم تجف او ترك ، افسدتها العبارة وقبحها ما لا طائل

تحتها ، فضعفت في كل حال . لقد ادرك الحاتمي بتمرسه اللغوي الاصيل ،

وذوقه البلاغي وحسه الجمالي ، قيمة اللفظة حين تسلس في العبارة الفخمة

والمعنى اللطيف ، فازعجه استهتار المتنبي بها حين ينتزعها لغير موضعها ،

١ . الموضحة ، ص ٨٥ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٩٠ .

او حين يقرنها الى غير اختها ، فلا مزوجة ولا اقتران . والالفاظ مباحة عنده وانما السرفي الاستعارة الحسنة والصياغة الجميلة - كما سنرى - وفي تلاحم اجزاء النظم ، فلا تهافت او اضطراب . واذ تعذب الالفاظ وتصطحب ، يكون للعبارة ذلك التناسق والمشاركة . وابعدها ما يكون استعمال الكلام الخشن الجافي عن الطبع والروية ، والضعيف الركيك عن الاصاله والجزالة . والحاشي ان تكلف احيانا في اصطناع السرقة وسردها ، لم يعتمد تكييف الذوق او تسخيرها ، بل تركه على طبيعته ينفي القبيح ويستهن الساقط ، دون قسر السيئة او استجلابها استهدافا لغاية او استكمالا لرأى .

في المعنى :

ويجب ان تكون معانيه لطيفة واستعاراته واقعة وتشبيهاته سليمة . وقد عبر عن لطافة المعنى بافتراضات سلبية تناولت معاييرها بأبراز ما يهجنه او يحيله عن موقعه الاصيل في العبارة الشعرية . فهو لم يشترط له السمو والصحة ، كما ذكرنا ، ولكنه استبعد له الابتذال والصخب والافساد . واكثر ما يقبحه الاحالة والتعبير عنه بغير عبارته ، والغموض الذي يستعصي ، او الفلق المستفلق ، وبتره او افساده بالسخب والهديان . قلت : واخطأت ايضا في قولك :

وَضَاقَتْ الارضُ حَتَّى صَارَ هَارِبُهُمْ اِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا

افتعرف مرثيا يتناوله النظر لا يقع عليه اسم شيء . واحسبك نظرت فيه الى قول جرير :

مَا زِلْتُ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خِيَلًا تَكُرُّ عَلَيْكُمْ وَرَجُلًا

فأحلت المعنى عن جهته وعبرت عنه بغير عبارته . وقول جرير من التخييل المليح . . (١) .

وقف الحاتمي عند المعنى ولم يستلهم الصورة . فأما ان يكون المعنى معقولا فيلطف ويصح ، او متخيلا بعيدا ، فيستحيل . ونحن نرى ان الاحالة في الشعراو حتى في الصورة الشعرية الواحدة من اروع واجمل ما فيه . . . فقد برع المتنبي في تجسيد الحالة بالصورة البسيطة الواضحة ، وجاء تشخيصه لنفسية الهارب الفزع مليئا بالحركة ، واقعي التصور ، سهل التخيل . فهم كانوا ينظرون الى المعنى الشعري مجردا عن الصورة ، فأما ان يعقل او يخرج الى الاحالة . وكذلك كان لهذا البيت المشكلة " الذي تماهى النقاد في الوقوف عنده :

أَحَادٌ أَمْ سَدَّاسٌ فِي أَحَادٍ لِيَلْتَنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِ

وقلت : ما اردت ؟ فقال : اردت الليلة واحدة ام ست ليال في ليلة ، استطالة لها واستبعادا لمداها . فقلت : اجل واراك نظرت فيه الى قول الاول (١) . . . قلت : فهو " لا " كلهم جرى على مدرجة واحدة في استطالة الليل ، مغاليا كان فيها او مقتصدا ، غير انه لم يقرن الى صدر بيته ما يناقض عجزه وينافيه ، ويباينه كل المباينة ولا يقتضيه ، كفعلك . فانك وصلت صدر بيتك بعجز افسده ، وبعد كل البعد عنه . وذلك انك قلت : الليلة واحدة ام ست ليال في ليلة . ثم صغرت على مذاهب العرب في تصغير المعظم في قولهم : " دويهيبة " . . . ثم قلت (المنوطة بالتنادي) فأحلت . قال : كيف ذلك ؟ قلت : كيف تناط بالتناد ما تخيلته ليلة واحدة او ستا في واحدة ؟ وانما نظرت في قولك (المنوطة بالتنادي) الى قول الشاعر :

قُلْتُ لَضِيفِي حِينَ نَبَهْتَهُ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ مَا طَرَهُ
مَا لِي أَرَى اللَّيْلَ بِلَا آخِرٍ كَأَنَّهُ قَدْ نَيْطَ بِالْآخِرِ (٢)

١ . يأتي بابيات في هذا المعنى لشاعرين مجهولين ولعدي بن الرقاع

وللفرزاق وشار .

٢ . الموضحة ، ص ١٠٠ . اخبار هذا النقاش حول هذين البيتين تمتد من ص ٩٨ الى ص ١٠٠ في الموضحة .

فهذا جعل الليل في استطالته منوطا بالآخرة ، فلم يقرن ذلك بما افسده
وشوه معناه ، ولا احواله احوالك بيتك حتى استفهمت استفهام شاك في انها ليلة
واحدة اوست في ليلة . ثم ناقضت باخبارك انها منوطة بالتنادى . . (١) .
هذا البيت فاسد بالاجمال ، ولا يحسد المتنبي فيه على صياغة او صورة او
معنى . ولعل التصغير قد قضى على كل حسن مرتقب فيه فصغر وقع الاحالة امام
قبحه وثقله . فقد افسد العجز البيت كله ، لانه ناقض الاستفهام المحدود في
الصدر ببعده واحالته ، وبإينه دون توقع وارتقاب - وقد زاد الحاتي على جملة
مساوئه السرقة ، فعراه من كل احسان وصنعة . وهو كابتداء من اقبح ما يكون على
تعدد علته . واكثر ما يرتقي ذوق الحاتي في وقوعه الناجح على مثل هذه الابيات
المساوي التي تعددت وحفل بها شعر الرجل . " ومن مستغلق كلامه وجاني تشبيهه
قوله :

أَفَلَا عَدَلُوا فِيهَا أَجَبَتْ بِأَنَّهُ حُبِّيَّتَا قَلْبِي فَوَادَا هَيَا جُمْلُ

ومن الغلق المستغلق قوله :

أَرْضُهَا شَرْفٌ سَوَاهَا مِثْلُهَا لَوْ كَانَ مِثْلُكَ فِي سَوَاهَا يَوْجَدُ (٢)

ففي كل مرة يفسد التصغير كل شيء . وهذا التلهي عن الخلق الجيد
والمعنى اللطيف يفسره الغموض والتعقيد الواهي ، يؤكد في رأينا حاجة الشاعر
الى اى نظم ، في حالات العجز او رغبته في التعمية قصد التفاضح ، او التضليل
عن المعنى السخيف الذى يحمله . وهو قبيح سمج في كل حال . وما اخذه فبتر
معناه وافسده وجاء بالسخف الشديد ، قوله (٣) :

٠١ الموضحة ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٣٢ .

٠٣ المصدر ذاته ، ص ٨٩ - ١١٠ تباعا .

مُبرِّعِي خَيْلِهِم بِالْبَيْضِ مَتَّخِذِي هَامُ الْكُمَاةِ عَلَى أَرْمَاجِهِمْ عَذْبَا
 هَا فَاَنْظُرِي أَوْ فُظِّنِي بِي تَرِي حُرْقًا مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرْفًا مِنْهَا فَقَدْ وَالَا
 عَلِ الْأَمِيرِ يَرَى دُلِّي فَيَشْفَعُ لِي أَلِ الَّتِي تَرَكَّتْنِي فِي الْهَوَى مَثَلَا

ولو كان هذا الشعر لغيره لعذر . يقول الحاتمي تعليقا على البيتين الأخيرين :
 " وذلك أنك عرضت الممدوح للقيادة ، برجائك إياه أن يكون شاعرا لك إلى من
 تحبه . وهذا من اقبح خروج واسخف معنى تعاطاه شاعر في مخاطبة ممدوح .
 وإنما احتذيت فيه قول أبي نواس . . (١) . " . يبقى أن لطافة المعنى يجب أن
 تتأرجح بين السخف والاحالة ، فلا تشط إلى هذه ولا تنحط إلى تلك . وهذا
 الاعتدال يكمل رأيه في اللفظ ، كما مر ، وفي بعض القضايا الأخرى كما سيمر .
 وقد اردف تطلعه إلى المعاني الشعرية ، والالفاظ ، والتقفية ، والوزن ، بقضايا
 جديدة لا ندري من أين استقاها فيقول : " . . وربما اخليت واخلفت واعذرت
 واهللت ، وما أراك تتطلع على موجب هذه الالفاظ . قال : وإي موجب لها !
 وإنما توردها تسمخا وشغفا بالاطالة وتسحبا بالدعوى الباطلة . فقلت : لا
 تطل عناج القول في ما يخرج عن مذاهب أهل الفضل فتسمع من القول ما يضيق
 ذرع صبرك عنه . . . بل يقال للشاعر إذا أتى بأبيات مشتملة على معان مبتكرة
 والفاظ متخيرة ، ثم أورد في اثنائها بيتا خاليا من هذا الوصف : قد اخلى ، ويقال
 له إذا أتى بمعنى لم يستوفه : قد اعذر . وإذا خالف بين قافية الضرب وقافية
 المصراع في افتتاح القصيدة : قد اخلف . كما قال ذو الرمة :
 أَلَا يَا أَسْلَمِي يَا دَارِمِي عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجُرْعَائِكَ الْقَطْرُ
 فكأنه لما قال " على البلى " وعد بنظم قصيدة على روى الالف ، وكأنه
 لما قال " القطر " اخلف ذلك الوعد إذ جعلها رائية (٢) . " قد يكون ابتكر

١ . الموضحة ، ص ١١٠ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٢٥ - ٢٦ .

هذه الدعاوى . الا انها بليغة في كل حال ، ودليل ذوق راق ، وتذوق دقيق وواع
للشعر وجناياه . ويكاد يستنفد في غوصه على البيت الشعري معظم قضاياها ، فلا
يترك سيئة الا ويكشفها ، وهذا اجتهاد فني رائع دون النظر الى الغاية او
الحالة او الظرف . يجي* له في الاعذار بما يلي : " ومن تقصيرك فيما سرقتك قولك ؛
بأنوا بخرعوبة لها كفل
يكاد عند القيام يقعد لها
فأنك اخذته بقول المحدثين :

تمشي فيقعد لها زوادفها فكأنما تمشي الى خلف

فهذا هو الاعذار . الا ترى انك لم تستوف المعنى لانك انما اخذت الشطر الاول
من هذا البيت وغادرت قوله " فكأنما تمشي الى خلف " . (١) . فكما وقف الحاتمي
في تنبيهه الى هذه القضايا البلاغية الشعرية وفتى في استجلاب المثل والشاهد ،
ليؤكد استعداد المسبق لمواد المناظرات ، ومراجعته لها وزيادته عليها بعد
وقوعها ، استيفاء للغرض وشمولا للفائدة .

في الوزن والتقفية :

وأظنه حسب الأسنة حلوة
فعدا أسيراً قد بللت ثيابه
أو ظنها البرني والآزادا
يكم ويل ببوله الأقخادا (٢)

... وان يكون سهل العروض وشيق الوزن متخير القافية . والشعر هنا ليس
كذلك ، على الاقل في التقفية . " فالآزادا قافية قلقة ، مجتذبة ، مجتلبة ،
معلولة غير مقبولة " . وسبيل الشاعر ان يعنى بتهذيب القافية فأنها مركز البيت

٠١ الموضحة ، ص ٥٤ - ٥٥ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٤٢ .

حمداً كان ذلك الشعراء وذلماً ، وتشبيهاً كان أونسيباً ، ووصفاً كان أو تشبيهاً .
وان يتأمل الغرض الذي يرميه فكره ، فينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمراراً
ومع أي القوافي يكون أشد اطراداً ، فيكسوه أشرف معارضه ، ويبيرزه في أسلم
عباراته ، ويعتمد أقرار المعاني مقارها وإيقاعها مواقعها . وقد حكى عن الخطيئة
أنه قال : نقحوا القوافي فأنها حوافر الشعر . . (١) . وجاء في العمود
الشعري : التحام أجزاء النظم والتثامها على تخير من لذيق الوزن ، ومشكلة
اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما (٢) . فالتحام
أجزاء النظم على تخير الوزن الأحسن استمراراً ، والقافية الأشد اطراداً ،
مع تأمل الغرض الذي يرميه الفكر ، وإبراز ذلك بأشرف معرض وأسلم عبارة ،
هو من أبرع ما حصله النقد العربي في معالجة البيت الشعري الجيد . ولو
أنهم تخطوا وحدة البيت هذه إلى وحدة القصيدة ككل ، لتغير مجرى شعرهم
ونقدهم على السواء . فأن تقرأ المعاني مقارها وتوضع مواقعها ، كما يقرر الحاتمي
على سلامة الوزن وتهذيب القافية وحسن الأداء ، أسلم من أن يعاظم الشاعر
أو يهذي ، أو يركب الكلام على منافرة وتفاوت ، أو يقتسر القافية على اجتهاد
الوزن وسوء العبارة . وقد كان بإمكان أبي الطيب ألا يجهد نفسه باجتلاب
تلك القافية المعلولة (الأزاذا) لولا أن صفة ممدوحه مساور بن محمد الرومي ،
الاستاذ ، وهي الوزير بلغة أهل الشام إذ ذاك ، ومعاملته " لبني يزدان " ،
وضرورة ذكر ابن أخيه " معاذ " فرضت عليه مجتمعة اختيار هذه التقفية
القلقة ، وإن يفتتح مدحته بهذا المطلع :

أَمْ مَسَاوِرًا قَرْنُ شَمْسٍ هَذَا أَمْ لَيْثٌ غَابَ يَقْدَمُ الْأَسَاذَا (٣)

٠١ . الموضحة ، ص ٤٢ .

٠٢ . المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، ص ٩ .

٠٣ . العكبري ، شرح ديوان المتنبي ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

فقد اضطرته المناسبة الى انتهاز هذا المسلك ، واعوزته الحنكة ، على غرام بتصيد النادر المتكلف ، والجاني المستهجن ، اغلب الاحيان . والشعر الجيد لا تقيد به المناسبة او يضطره الظرف ، والا فلا يكون . وقد سلم ذوق الحاتمي وسلمت اراؤه في التقفية ، بقدر ما جاءت قافية المتنبي "مجتذبة مجتلبة ، قلقة ومعلولة غير مقبولة" ، برغم كون هذه المفاهيم النقدية اجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الان (١) . كما يقرها المرزوقي في اوائل القرن الخامس الهجري في تبيانها لعمود الشعر العربي التقليدي . ومن اخطاء القافية ذكره الارداق وسوء استعمال الـهاـ كحرف روى ، يقول : "واخطأت في الكلمة التي اولها : "كدعواك كل يدعي صحة العقل " بأن قلت :
تَمُرُّ الانابيبُ الخواطرُ بيننا وتذكرُ أَقْبَالَ الاميرِ فتَحَلُّو لي
فأنك اتيت بببيت مردف في قصيدة غير مردفة ، وهذا شاذ . فقال : هذا وان كان شاذاً كما ذكرت ، فإنه عذب على اللسان غير قلق في الانشاد ، وقد جاء مثله للعرب :

وبالطَّوْفِ نَالاً خَيْرَ ما نالَهُ الْفَتَى وما المرءُ أَلَّا بالتَّغْلُبِ والطَّوْفِ

ثم قال :

فراقٌ حبيبٍ وانتهاءٌ عن الهوى فلا تعدِّليني قد بدَا لَكَ ما أُخفي
فقلت : لعمري ان قوما لا علم لهم لا يرون هذا شاذاً ، ولا يرون الواو المفتوح ما قبلها ولا اليا شاذاً ردفاً ، يزعمون انها ليسا بحرفي مد ، لان الصوت لا يمتد بهما كامتداده باليا والوار المكسورة والمضموم ما قبلهما . وذلك غلط من قائله ان كان فتح ما قبلهما لا يخرجهما عن جنسهما ان كان مخرجهما في الحالين من مكان واحد من الضم ، فصورتها في اللفظ واحدة . وانما الفتحة تنقلهما قليلا ، فلا يمتد الصوت بهما كل الامتداد ، ولكنه يمتد امتدادا

يستحقان به ان يسميا حرفي مد • فاذا جاء للعرب بيت فيه ردف مع ما لا ردف فيه معا واعتد شاذا ، كما جاء لهم الاقواء والاكفاء والايطاء ، فليس لمحدث ان يرتكب مثل ذلك ، ولا يتسمح في قوافيه بشي من المعائب ، وان كانت موجودة في اشعارهم على طريق الشواذ •

فقال : قد اكرت القول فيما لا اعتد بشي منه ، وانما اجرى على طبعي ، واقول ما يسوقه لساني •• (١) • وقد جاء له بشعر مردف لابن بيض في خالد القسري وسأله ان كان يجوز " لمحدث ان يأتي بمثل هذا ويحتج به او بمثله ؟ كلا •• (٢) •

فليس للمحدث ان يقع في الاخطاء التي جهلها السلف • وقد قبل شاذهم لانهم لا علم لهم به • هكذا انظر النقاد المتأخرون الى شعر معاصريهم من المحدثين ، او هكذا ارادوه لهم • فلا يحتج بشواذ المحدث لانه ليس له ان يرتكبه ، منطق صائب وان كان التعويل على القديم لا يترك للمحدث شيئا • وقد قلنا ان الحاتمي ينطلق من القديم الصحيح ولكن للرجل شخصيته النقدية وذوقه الخاص ، فهو يخطي القائل في ان فتح ما قبل الوار والياء يخرجهما عن جنسهما ، لان مخرجهما ، برأيه ، من مكان واحد في الحالين وصورتها في اللفظ واحدة ، وهذا التحليل الصوتي لحرفي المد ، في الامتداد والاردا ف ، يؤكده تمكن الحاتمي من اللغة واصواتها ، والشعر وشواذاته ، وتخطيه القديم الذي اخطأ عن جهل ، والمحدث الذي ليس له ان يشذ عن علم •• وما يتعلق به عليه في التقفية قوله :

أَنَا بِالْوُشَاةِ إِذَا ذَكَرْتُكَ أَشْبَهُ تَأْتِي النَّدَى وَيُدْأَعُ عَنْكَ فَتَكْرَهُ
وَإِذَا رَأَيْتَكَ دُونَ عَرَضِي عَارِضًا أَتَقْنَتُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعِي نَصْرَهُ

١ • الموضحة ، ص ٢٦ - ٢٧ •

٢ • المصدر ذاته ، ص ٢٧ •

ما حرف الروى في هذين البيتين ؟ قال : الهاء . فقلت له : فأن جعلت الهاء حرف الروى لم يجز ذلك . لان هاء الضمير لا تكون روياء ، الا اذا سكن ما قبلها كقول طرفة :

الا يا أَيُّهَا الظُّبَيُّ الذى يَبْرِقُ شَنْفَاهُ
ولولا الملكُ القاءُ لَهْهُ الشُّمْنِي فَأَهْ

فأن جعلت الراء حرف الروى والهاء صلة ، وهو الوجه فما تصنع بقولك : (اذا ذكرتك اشبه) اللهم الا ان تذهب الى انه لم يصرع . . (١) . . يسكت المتنبي عن هذا ويطلب النصفة ، ولكن النقد اقوى ، وابوعلي قادر على الكشف والتخطئة وابرار المعايير . فالقافية يجب ان تختار على لذيذ الوزن ولطافة المعنى ، وسلامة اللفظ والا فلا . والملاحظ ان الروح الغنية التي يصدر عنها نقدا الحاتمي لا تقف عند اى اعتبار ، فلا تسكت عن الخطأ ولا تتجاهل العيب ، تغلي الشعر لتخرج بالسيئة ، فلا تغوتها شاردة ، وهذا نقد نادر عزيز قل ان حفل به نتاج النقاد القدامى ، ولعله برز جيدا مع الحاتمي لانه قصد لذاته ، فهو اختيار لتتبع عورات الرجل وسيئاته الشعرية ، والعبقرية حاصلة ، والمادة متوفرة وسنرى انه استحسّن له بيتا واحدا فقط لانه عرف كيف يلطفه بعد ان احتذاه وهذا حسن مشبوه كما يلاحظ .

في البديع والنكات البلاغية الاخرى :

البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون

ما هو (١) ومن الشعر البديع : الاستعارة : وهي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها ، مثل أم الكتاب ، وجناح الذل ، أو " والصبح بالكوكب الدرى مخور (٢) " . وابواب البديع الأربعة الأخرى هي : التجنيس ، والمطابق ، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي " وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت أو البيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحد هم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذ أتى نادرا ويزداد حظوة بين الكلام المرسل . . (٣) " . لكنه كثرت في أشعار المحدثين ، حتى انتهى مع البعض إلى الضنعة . ولعل الاستعارة ، أحد أهم أبوابه ، أروع ما يتطلع إليه الخيال الشعري الخلاق ، والعبقرية الشعرية المولدة ، لأنها تتخطى الحقيقة ، في البيان ، إلى المجاز المغاير لواقع المستعار له . وسواء بعدت حتى الأحوال شرطان تكون واقعة ، أو اكتفت بالواقع البياني ، كما أريد بتعريفها ، تظل للاستعارة قيمتها الجمالية ، وإحاطة البديع ، بصورتها الشاخصة ، فلا تعلق ولا تستهجن . وإنما مهما تميزت لا نستطيع فصلها عن الصورة الشعرية التي تولد لها أو تتولد عنها أو تبرزها فتتضح . فقد تجيء الصورة واقعية ، حقيقية ، فتحسن ولكن الاستعارة تفترض لها المجاز لأنها إذا نقلت الحقيقة مجردة ، لا تكون بديعا ولا تكون استعارة لطيفة . يقول الحاتمي : " وكل استعارة لطيفة ، توجب بلاغة بيان بالحقيقة غير نائبة منابها ، لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت الحقيقة أولى بها من الاستعارة (٤) " .

-
- ١ . ابن المعتز ، ص ٥٨ . ويذكر ابن المعتز كذلك أنه أول من جمع فنون هذا البديع الذي لم يسبقه إليه أحد ، ص ٥٨ .
 - ٢ . المصدر ذاته ، ص ٢ .
 - ٣ . المصدر ذاته ، ص ١ .
 - ٤ . الموضحة ، ص ٩٢ .

وعلى هذا لا تكون الاستعارة لطيفة الا اذا كان موقعها فوق موقع الحقيقة . وحقيقتها ، بالنسبة للحاتمي ، انها نقل كلمة من شيء قد جعلت له الى شيء لم تجعل له (١) ولكنه اراد لها ان حصلت متخطيا تعريف ابن المعتز :

- أ - ان تكون واقعة فلا تحل في غير محلها .
- ب - الا تغلق فتستهجن .
- ج - ان يكون موقعها في البيان فوق موقع الحقيقة .

وبهذا تلتطف وتحسن كما يفترض لها ان تكون . يقول ابو الطيب :
الْيَسَّ عَجِيْبًا اَنْ وَصَّفَكَ مُعْجَزٌ وَأَنْ ظَنُّوْنِي فِي مَعَالِيكَ تَظْلَعُ
فأستعار الظل للظنون وتعجب في غير متعجب منه . وهي استعارة قبيحة برأى الحاتمي ، لان من اعجز وصفه لم يستنكر قصور الظنون وتحيرها في معاليه .
فقال المتنبي : " انما جريت على عادة العرب في الاستعارة . فقلت : اجل ، الا انها استعارة مستهجنة قلقة حلت في غير محلها ، ووقعت في غير موقعها . والاستعارة اذا لم يكن موقعها في البيان فوق موقع الحقيقة ، لم تكن استعارة لطيفة . . (٢) " . فاذا استعيرت لما يجب ان تستعار له كان لها الفضل . وهي على ثلاثة اضرب افتعرفها ؟ فقال : مالي ولهذا ؟ قلت : فأنا اذكرها ضرورة ، لابين انك بمعزل عن الاحسان في قولك : " فأنا ظنوني في معاليك تطلع " .
فأولها :

- ١ - الاستعارة المستحسنة وهي التي موقعها في البيان فوق موقع الحقيقة ، كقول الله تعالى (انا لما طغا الماء) - الحاقة ١١ - فحقيقة طغا علا .

٠١ - الموضحة ، ص ٦٩ .

٠٢ - المصدر ذاته ، ص ٦٩ .

فلما قال تعالى طغيا جعله علوا مفرطا ، فصار لهذه الاستعارة خطفي البيان
لم يكن للحقيقة . ومن الاستعارة المستحسنة قول الاعشى :

ولقد سَلَبْتُ الكاعِبَ الـ حسناء حَسَنَ شبابِها

يريد تمتعت بها الى ان افنيت شبابها .

النوع الثاني :

٢ - وهو الاستعارة المستهجنة ، وانما سميت مستهجنة لانهم استعاروا لما
يعقل اسما ، والفاظا لا يعقل ، كقول الحطيئة :

فما بَرَحَ الْوِلْدَانُ حَتَّى رَأَيْتُهُ عَلَى الْبُكَرِ يَمْرِيهِ بِسَاقٍ وَحَافِرٍ

النوع الثالث :

٣ - والنوع الثالث من الاستعارة احسن من الثاني لانهم استعاروا لما لا
يعقل اسما لما يعقل ، كقول حميد بن ثور الهلالي :

عَجِيتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ غَنَاؤُهَا فَصِيحًا وَلَمْ تَفْغُرْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا

قلت : والاستعارة التي استعرتها منافية هذه الاقسام الثلاثة ، من اجل انه
ليس للظن فعل حقيقي استعرت الظل موزعه . وانما يقال ظن عازب ، وظن
كاذب ، وظن المعنى ، وظن مصيب . وهذه كلها استعارات واقعة . ولم يسمع من
شاعر فصيح ولا عربي صريح : ظن ظالع . واستعارة الظل للريح وان كانت بعيدة
اولى واقرب . فأبدلت استعارة واقعة لطيفة من قولهم : ظن عازب ، وظن
كاذب ، وظن المعنى ، ومصيب باستعارة خافية بعيدة من قولك : " في معاليك
تظلع " (١) . اى ان فائدة الحال ان توضع الاسماء المستعارة مواضع الاسماء
الحقيقية ، فتلطف الاستعارة ولا تجفو . لقد شاء لها الحاتمي ان تكون
واقعة ، فلا يستحيل الفعل الحقيقي للمستعار منه ، ولا يفترض الا ان تكون
الاستعارة صفة ملازمة " لهذا المستعار ، او احدى خصائصه ، ومن واقعه

المعروف . ولكن لماذا ربط هذا الواقع بالمعروف عند حذاق الشعراء او عند مذاهب العرب ؟ كأن على الشاعر الا يتخطى واقع الاستعارة ، وهي تشترط موقعا فوق موقع الحقيقة . فاذا بعدت او خفيت او احييت سمجت واستهجن . وهذه برأينا ، حدود باطلة ، فما ضر ان يستعمل ابو الطيب الظل للظنون ؟ اليس له ان يبتدع ثم ان النوع الثاني " المستهجن " قد يتقبل النظر . فان يستعار للرجل موضع قدمه حافرا ، وموضع شفته مشفرا ، وظفره ظلغا ، دون التنبيه الى عميق الدلائل التي قد يكون اعتمدها الشاعر ، قبيح وغير " واقع " ، ولكن ليس ، كقاعدة مطردة ، استعارة الفاظ واسماء ما لا يعقل لما يعقل قبحا وعيبا . الم يستعبروا للنساء عيون المها وجيد الغزال وصفحة القمر ؟ وهذا الاتكاء على القديم المقدس الا يحق للشاعر المبتدع ان يتعداه او يتجاوزه ؟ يقول الحاتمي لابي الطيب :

..... واخطأت ايضا في قولك مع ضعف لفظك وسخف عبارتك :

ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلَوْنَ مِنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَأَلَّا فَلَا لَا
شَرَفٌ يَنْطَحُ النُّجُومَ بَرُوقِيٍّ هـ وَعِزُّ يُقْلَقُ الْأَجْبَالَا

قلت : الم تقل ينطح النجوم بروقيه ، والروقان القرنان ؟ قال : اجل انها استعارة . فقلت : لعمرى انها وان كانت استعارة ، ولكنها استعارة خبيثة جارية في المعازلة (١) التي نفاها عمر بن الخطاب عن زهير وذكر اجتنابه اياها . وهذا من ابعد الاستعارات واشدها مباينة لمذاهب حذاق الشعراء (٢) . ولطيف الاستعارة عند ابي علي ، كما لاحظنا ، لا يخرج عن هذا الواقع ، فيواجه ابا الطيب بالشاهد المليح عليها ، وعلى نوع جديد من فضائلها ، يقول : " الا ترى الى قول امرئ القيس :

١ . المعازلة كما يعرفها له الحاتمي : مداخلة الكلمة في الكلمة اذا لم تكن احداها من جنس الاخرى ، ولا كانت مناسبة لها ولا مشتقة منها ، الموضحة ، ص ٩١ . ثم يلومه على مواجهته سيف الدولة ، على عظمة سلطانه ، بمثل هذه الاستعارة الفظيعة .

٢ . الموضحة ، ص ٩٠ - ٩٢ .

وقد أُغْتَدِيَ والطَّيْرُ فِي وَكَاثِبِهَا بِمَنْجَرٍ قَيْدِ الْأَوَايِدِ هَيْكَلٍ
وهذا النوع من الاستعارة يسمى الاردا ف ، وهو ان يريد الشاعر الدلالة
على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الذي يدل على ذلك المعنى ، بل
بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له . فأن دل على التابع دل على المتبوع
... (١) . اما اختيار الحاتي فشهد على ذوقه الرفيع دون تكلف او
تميع . وصور البديع ، والبلاغة ، واللغة واضحة في ذهنه ، فلا يقف عند
استثارة . يشتكي اليه المتنبى اغراقه في تخطئته ، وغلول ، وبعد ، عن الحقيقة
فيستوقفه عند الفاظه ليريه الفرق بين الاستعارة والحقيقة ، وبين الغلو
والمبالغة . يقول : " قال عنتره يصف فرسه :
فَأَزُورُ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بَلْبَانِهِ وَشَكَا أَلْيَ بَعْبِيرَةٍ وَتَحْمَحُمُ
فجعل اشتكا الفرس اليه ، ان كان من الحيوان الذي لا ينطق بحمحمته
وعبرته دون النطق والعبارة . فلم يخرجها عما هو له ، ثم كشف المعنى في البيت
الاخير فقال :

لو كَانَ يَدْرِى مَا الْمَحَاوِرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوَعْلَمَ الْكَلَامُ مُكَلِّمِي
فهذا المبالغة في الوصف من غير عدول عن الحقيقة (٢) . وهو
غير الغلو الذي يبتعد عنها .

اما ابواب البديع الاخرى فقد اخذ عليه بعده عن الاحسان في
استلهاها ، وسوء استعمالها ، فما ابتعد عن الذوق الذي واكب حسه
الجمالي وتحسسه الفني خلال معظم انتقاداته له ، ناهيك بروح المذهب
القديم والواقع الادبي الشائع الذي صدر عنه في الغالب . فحبه للطبع
والعدوية ينفر من كل صنعة او تصنع . يقول : " . . . واذا تكلف هذا

١ . الموضحة ، ص ٩٢ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٩٤ — ٩٥ .

المضمار ، وتعاطى الصنعة في شعره ، لم يحسن احسانه فيما جرى فيه على شاكلته الاولى . الا ترى الى قوله :

وَقَبْلُ كَمَا قَبْلَ التَّرْبِ قَبْلَهُ وَكُلُّ كَيْيٍّ وَاقِفٌ مَتَضَائِلُ

فجانس بقبل وقبله ، ويكم وكبي فلم يصف لفظه ، ولا مائده على الاحسان طبعه ، وانقطعت دون الاصابة مادته . (١) . او حين يتفاح فيغث :

فَفِي كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدُّمَسْتَقِّ مُقَدِّمٌ قَفَاءُ عَلَى الْأَقْدَامِ لِلْوَجْهِ لَائِمٌ

وهذا من الطباق الغث (٢) وغير الخطأ الغني هناك السرقة التي يجتهد الحاتمي في تبليانها او المعنى المشترك الذي كثيراً ما يخفق حتى في استجلابه او نسخه .
" ومن قبيل التشبيه قولك تصف كنيبة :

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رُبْعِيَّةٌ يَصِيحُ الْحَصَى فِيهَا صِيَاخُ اللَّقَالِقِ

فقال : اما تشبه اصوات الحصى من تحت حوافر الخيل اصوات اللقالق ؟ فقلت : هبه اشبهه فهل هو من محاسن التشبيه ؟ (٣) . انه كذلك ، برأينا ، وقد اخفق ذوق ابي علي في تحمله وتجنیه هذه المرة . يرد هذا التشبيه الى قول ابن المعتز : " وبلدة صائحة الصخور " . حتى لو كان ورد الى ذهن المتنبى بيت ابن المعتز هذا ، لا ننسبه الى اخذ ، لان الوصف والتقرير غير التشبيه ، والصخور غير اللقالق . ففضية الحسن والاستحسان عنده تكاد تكون ذاتية يحكمها ذوقه الشخصي .

كَأَنِّي دَخَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خَبْرَتِي بِهَا وَكَأَنَّ بَنَى الْأَسْكَدَرِ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي
وهذا اللفظ مستهجن ، وتشبيهه غير مستحسن (٤) . للنقد اعتبارات اخرى غير الذات ، وللفن اكثر من معيار او شاهد . " وقلت له في قصيدتك هذه :

- | | |
|---|---------------------------|
| ١ | الموضحة ، ص ٧٤ . |
| ٢ | المصدر ذاته ، ص ٣٥ . |
| ٣ | المصدر ذاته ، ص ٣٠ - ٣١ . |
| ٤ | المصدر ذاته ، ص ٣٩ . |

كَأَنَّ بَنَاتِ نَعَشٍ فِي دُجَاهَا خَرَائِدُ سَافِرَاتٍ فِي حِدَادِ
ولا تعلق للخرائد من النساء دون غيرهن بهذا التشبيه ، اذ كانت الخريدة الحبيبة
والخرد الحياء • وليست النجوم في الدجى اشبه مناسبة للخرائد في السواد
منها لمن لا حياء له من النساء • وانما قلت خرائد ليلتبس الموضع ويخفى الاخذ
... (١) • التعليل هنا سخي ف قد اعتمده ليصل الى تهمة الاخـذ
والسرقة •

قلنا ان استعراض الاخطاء الفنية لم يكن غاية مباشرة لدى الحائمي ،
بل سببا الى السرقة : الموضوع النقدي المقترح • فالعيب الواحد الذي تشترك
فيه جميع الابيات المنتقدة هو الاخذ ، ولكن الكشف الفني - الوسيلة على العموم -
جاء صادقا في الغالب اكثر من رصد السرقة والاستجلاب ، لان ابا علي تعمد
العودة بكل بيت الى اصل ما ، لاسباب وغايات جانبية احيانا ، فما اصاب كثيرا •
وحين استدرك الاخطاء النقدية العامة لم يكن يصدر الا عن المفهوم الشعري
العام الذي يلتزم عمود القصيدة او العمود الشعري ، على نسب مختلفة وبشكل
جديد اخر ، عدا الذوق الادبي الذي تميز في هذا القرن بالذات • وقد اعتبر
كل خروج على الطريقة الملتزمة تكلفا وفسادا فقبحه واستهجنه •
” ومن سبيل الشاعر ان يتحرى لقصيدته احسن الابتداء ، كما يتحرى

لها احسن الانتهاء عند بلوغ حاجته ، وان يجعل افتتاح كلامه احسن ما
يستطيعه لفظا ومعنى • وان يبتدىء قصيدته بما شاكل المعنى الذي قصد له
... (٢) • وهذا سبيل يشتبه في القصيدة لانه يستوقف الطبع فيرتاح له •
وافضل من لاحظ به شكل دقيق ومفصل ابن قتيبة في عرضه لعمود القصيدة
العربية كما درج عليها القدماء • وعلى هذا يكون افتتاح المتنبي قصيدته بهذا
الشكل خطأ :

١ • الموضحة ، ص ١٠٢ •

٢ • المصدر ذاته ، ص ٦٢ •

كَلَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
 "فإنك افتتحت مدحه بما تفتتح به المرامي واحتسبته كان طعنة المنايا
 عن قليل من مواجهته بها . . (١) . . د ع الحالة النفسية والظروف الخارجية
 التي استودعها ابو الطيب بعد مفارقة سيف الدولة ، والاسى الذى تجمع في
 فؤاده اثر ذلك ، والبوح الصادق الذى حملته هذا المطلع ، الى الشعر كشكل ،
 لا كتعبير ، او كموضوع ، ترى ان ابا الطيب قد اساء وخرج عن طريقة المدح
 الصحيحة . وكذلك الخروج عن الطريقة في النسيب والتأبين الصحيح ، او
 الخروج المتكلف المتعسف ، او صريح المدح وهجينه الى غير ذلك مما يهجن
 الشعر السليم (٢) حتى ابدال الحسنه بالسيئة تنبه الحاتمي اليه :
 تَهَلَّلْ قَبْلَ تَسْلِيْعِي عَلَيْهِ وَأَلْقِ مَالَهُ قَبْلَ الْوَسَادِ
 ولولا تسمحه في تناول هذه المعاني التي تقدم اربابها فيها وسبق الى
 اختراعها ، لخل لسانه كما يخل لسان الفصيل الملهج . . (٣) . . عـدا
 الوقوف عند الوهي في معاقدة الكلام ، والتهجين في الاقسام ، او مستكره التركيب ،
 او الهذيان او التكلف الشديد البعيد عن اللفظ السديد . يقول : ومن المستعجم
 المبهم قوله :

وَكَمْ وَكَمْ حَاجَةٌ سَمَحَتْ بِهَا أَقْرَبُ مِنِّي أَلْيَ مَوْعِدُهَا
 وهذا من مستهجن الكلام ومستكره التركيب . . (٤) . . الى استعمال التعابير
 الصوفية التي حرموا على الشعراء منازعتها ، فكأنها ليست في قاموسهم
 الشعري ، يقول : وربنا اوردت البيت مشتملا مستودعا من المعنى المستحيل على

-
- | | |
|----|--|
| ٠١ | الموضحة ، ص ٦٧ . |
| ٠٢ | اورد الحاتمي تمثيلات على هذه القضايا من شعر المتنبي ، <u>الموضحة</u> ، ص : ١٣ و ٢١ و ١٨ و ٤٤ . |
| ٠٣ | <u>الموضحة</u> ، ص ٥٢ . |
| ٠٤ | <u>المصدر ذاته</u> ، ص ٤٧ . |

ما يهجن القصيدة بأسرها ، ولو كانت من لباب اللفظ ونصاب الفصاحة ، كقولك في القصيدة التي أولها : سرب محاسنه حرمت ذواتها " وكأن هذا البيت من كلام الشبلي أو سمنون الصوفي . . (١) . وجاء في البعد عن الفصاحة فصله المبتدأ عن الخبر ، يقول : " ومن المستغلق فيها قوله :

أَنْتَ يَكُونُ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمُ وَأَبُوكَ وَالثَّقْلَانِ أَنْتَ مُحَمَّدُ

تقدير الكلام : كيف يكون آدم أبا البرية وأبوك محمد وانت الثقلان . وربما يريد انت الانس والجن ، وآدم واحد من الانس ، وأبوك محمد ، فكيف يكون آدم أبا البرية ؟ وقد فصل بين المبتدأ الذي هو (أبوك) وبين الخبر الذي هو (محمد) بالجملة التي هي قوله (والثقلان انت) ، وهذا تعسف شديد ، ومذهب عن الفصاحة بعيد . . (٢) .

وسيجي تطرقه للاخطاء النحوية واللغوية مرادفا لاستيعابه الوضع اللغوي البلاغي ، ودقة مسلكه وتنبهه لابسط القضايا وخطرها . " وما اخطأت ايضا في نعته ولفقته ايضا من موضعين قولك :

ضَيْفٌ أَلَمْ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ السَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ بِاللَّمِّ

فأما التلفيق فقولك : (ضيف الم برأسي) وهذا من قول دعبل . على انك قد غادرت بعض المعنى ولم تستوفه لانه قال : " احب الشيب لما قيل ضيف " فسماه ضيفا . ثم ذكر محبته اياه ثم اتبع ذاك بذكر العلة في محبته فقال : " كحبي للضيوف النازلينا " واما الخطأ فقولك : (غير محتشم) تريد غير منقبض . وهذا خلاف ما عليه محصلو اهل العلم ، اذ كانت الحشمة في كلام العرب الغضب . وسي حشم الرجل حشما ، لانهم يغضبون له (٣) . كلام العرب هو الحكم الحقيقي ، وكذلك ما عليه محصلو اهل العلم .

- | | |
|-----|---------------------------|
| ٠ ١ | الموضحة ، ص ٢٣ . |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ٤٧ . |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ٨٦ — ٨٧ . |

- طَلَبَ الأَمَارَةَ فِي الثَّغُورِ وَنَشِئَهُ • مَا بَيْنَ كَرْخَايَا إِلَى كَلْوَادًا
- "من اين لك هذه اللغة في (كلواذا) ؟ ما احسبك اخذتها الا عن الملاحين •
- قال : وكيف ؟ قلت : وانك اخطأت فيها خطأ تعثرت فيه ضالا عن وجه الصواب •
- قال : ولم ؟ قلت : لان الصواب كلواد بكسر الكاف واسكان اللام واسقاط اليا •
- قال : وما الكلواد ؟ قلت : تابوت التوراة بها سميت المدينة • (١) • بقدر ما
- اسف ابو الطيب في التعبير احسن ابو علي في التعليق • " واخطأت في قولك :
- وَصَلَّتْ إِلَيْكَ يَدٌ سَوَاءٌ عِنْدَهَا الـ بَازِيٌّ الْأَشْهَبُ وَالْغَرَابُ الْأَبْعُ
- فأنك شددت اليا في (البازي) تشديدا لا وجه له ، ووصلت الف القطع في
- الاشهب • ولا اعلم احدا من الفصحاء شدد اليا في البازي الا البحتري ، وعليه
- اعتمدت وعلى لفظ بيته ركت (٢) • " ومن الاخطاء التي احتملها له قوله :
- وَأَنْكَ بِالْأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَلِمًا شَيْخٌ مُعَدٌّ وَأَنْتَ أَمْرَدٌ هَا
- فأنك اجريت المضمرة في قولك (انك) مجراه في الظاهر ، وفيه قبح شديد •
- وانما يحسن (انك) بمعنى انك مع الظاهر • • • واخطأت ايضا في قولك :
- وَقَتْلُنْ دَفْرًا وَالدُّهَيْمُ فَمَا تُرَى أُمُّ الدُّهَيْمِ وَأُمُّ دَفْرٍ هَابِلٌ
- قال : وما وجه الخطأ ؟ قلت : ما اردت بقولك (وقتلى دفرا والدهيم) ؟
- فقال : هما من اسماء الداهية ، وقد تسمى الدنيا دفرا • فقلت : هذا خطأ
- في الدفر لم يقله احد ، ولا رواه راو ، ولا ادعاه على العرب مدع • (٣) •
- ويرجعه في كلمة الدفر " الى صاحب كتاب العين وابن دريد في الجمهرة
- ليريه " قول اهل العلم ومستودع كتب اللغة " في احد اسماء الداهية •
- " ولم يدع ذلك احد من العلماء ممن يستضاء بنوره ، ويورد غير مائه • ولكنها

- | | |
|-----|----------------------|
| ٠ ١ | الموضحة ، ص ٥٦ • |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ٥٧ • |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ٥٩ • |

هذه الدنيا تسمى حبينا ، لتكسيتهم اياها بأمر حبين ٠٠٠ فقولك : أم الدهيم و أم
دفر هابل " لا انتظام لمعناه ٠ ومحصل المعنى في بيتك ان أم النتن و أم
الداهية تاكل ٠ وهذا من المعاني المفقودة التي تصم ناطقها ، وتهين قدره ،
وتسم بميسم النقص شعره ، لانه قد جمع فساد المعنى والخطأ في اللغة (١) ٠
كما جمع الحاتمي الى ذوقه وقدرته اللغوية ، ولعه بالعودة الى الاصل
لاستعراض تدرج المعنى الواحد ، اظهارا للسرقة ، وعرضا لمحصله الثقافي
وبراعته في التحصيل والكشف والنقد ٠

في السرقات الشعرية :

قيل عن ابي الطيب : ما تفرق عند غيره تجمع عنده ٠ ٠ ومن ثم
اتيح لشعره ان يكون جماعا لمذاهب الشعر العربي جميعا ، واتيح له ان يملك
نواصيها كلها في توفيق نادر وملكة طيبة ٠ وقد تناول المتنبي الوان التجديد
والاغراب التي اسرف المحدثون فيها واستعملوها عن قدرة وتمكن فسمها بها الى
الاج الذي كان لها فيما سبق ٠٠٠ وسرقة شعر المتنبي هذه الحكمة
العميقة التي ضمنها شعره وذلك القالب الغنائي الفلسفي الذي صاغ ابياته
فيه ، وهذا لا ينفعننا من القول بأن صياغة شعره الرائعة قد تضم افكارا عادية
شائعة (٢) ٠ وقارئ شعره والنقد الذي دار حوله تطالعه حقيقة ترفض
كل شك : وهي ان هذا الشعر خلاصة الشعر العربي اجمع اويكاد ، اذا
درسته حصلت على الكثير مما جادت به قرائحهم والسنتهم ، ومما حفلت به
دواوينهم ومجالسهم ، وهذا لا ينفي عنه صفة العبقرية في الصياغة وتصوير

٠ ١ اميليو غرسيه غومس ، ص ٢٣ — ٢٤ ٠

٠ ٢ المصدر ذاته ، ص ٢٣ — ٢٤ ٠

المعاني ، المستقاة او المبتدعة احيانا ، بالصورة الدينامية الشاخصة ،
وبالمعرض البديع اللائق ، سوى تجسيد مختلف الحالات النفسية التي تحملها
موسيقى شعره وصوره بعفوية نادرة حتى الان . ولا نرى له فصلا عن التراث
وقد نشأ عليه واستلهمه ، فبرع في تسويته وعرضه . ثم ان التوارث الحضارى
الطبيعي يفترض نوعا من التأثير والتأثير في الادب كما في مختلف مظاهر
الحياة والفنون . وقد تنبه اليونان الى ذلك في الفلسفة فرأوا ان لا شي
يصدر عن لا شي ، مؤكدين بذلك طبيعة هذا التسلسل الحضارى العام
في عديد المجالات . ففي الادب ينشأ الشاعر عن ماضي التراث وحاضره ، اى
تراث ، او لا يستطيع غير ذلك ، فينصر في هذا الزخم الحضارى او العكس
فيه ، او ينفرد سلبا او ايجابا بعد تماس دقيق ، فتتفتق المعاني او الصور
والالفاظ والاشكال لديه - وهنا نرفض خرافة ان القديم استقل بالابداع
فاستغده - ليكون له الجديد المبتدع او القديم المستجد ، على روعة
الصياغة او عاديته ، فتحصل العبقرية والجدة والامتع ويخلد الشاعر .
والواقع ان المعاني الحاصلة في الذهن تحتاج الى تفتيق وكشف كالمعاني
التي هي خارجة ، اذا لم تكن قد عرضت تكشف فتكون كالمخترعة ، او اذا
عرفت فألبست حلة جديدة ، تكون قد ولدت من جديد . وعند ذلك لا نرى
مجالا للطعن بالسرقة الا في حالة السطو على الصورة الخاصة التي جهد
اليها الشاعر السابق ، فاذا احسن عرضها روعي بذلك " حسن الاخذ " ،
واذا اساء اتهم بالسقوط دون الاغارة ، او السرقة " بحد ذاتها . وقد عد
بعض الاقدمين " السرقات " ضرا من الفنية الادبية ، اى انها مجال الحذق
والمهارة ولا يستطيعها كل اديب ، وانما الذى يقتدر عليها هو الحاذق
المبرز الذى يستطيع ان يقطع صلة ما سرق بأصله وبصاحبه ، بحيث يبدو

امام القارىء شيئاً جديداً بعيد الصلة عن اصله القديم (١) . وذكروا فنونا من
الاخذ اشهرها التضمين والاقتباس وحسن الاستعارة الى غير ذلك مما يجعل
السرقه فنا وصاحبها فنانا .

اما المعاني الادبية في مجالي الاتباع والابداع ، فقد قسموها الى
مشتركة وخاصة . ونفوا الاخذ عن الاولى . كما استبعدوا السرقه عن المعاني
الخاصة التي اصبحت مشتركة ، او عن المعاني العادية المبتذلة التي يعرفها
الجميع . على ان عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس قد فلسف هذا التقسيم
بالنسبة للسرقات الشعرية ، فاطلق على المعنى المشترك العام : المعنى العقلي
وعلى المعنى الخاص : المعنى التخيلي . وقرر ان السرقه لا تكون في المعنى
العقلي ، ولكنه نفى ان تكون السرقه في المعنى التخيلي كذلك (٢) . حتى
انهم في " الاخذ قد فرقوا بين مختلف انواعه كما فعل ابن وكيع والجرجاني مثلاً
في دراسة شعر المتنبي ، او صاحب العمدة والحائمي في " حلية المحاضرة " .
بشكل عام . وقد كان من المتعارف عليه بين الباحثين العرب - او بمعنى اقل
ما يشبه ان يكون متعارفاً عليه - ان مشكلة السرقات خاصة بادبهم دون الادب
الاخرى . ويبدو هذا في تناولهم لجوانب هذه المشكلة تناولاً لم يهتدوا فيه
بقراءة خارجية ، توضح لهم غوامضها وتوسع من دائرة بحثهم لها (٣) .
ولكنهم اشاعوها في نقدهم واولوها كبير عنايتهم حتى انهم خصصوا رسائل فيها
تناولت شعر بعض الشعراء الكبار فغرلته ونزعت عنه كل فضل ، كما حدث لابي
الطيب وابي نواس وابي تمام وغيرهم . وهي بعد ظاهرة طبيعية في كل الاداب

-
- ١ . طبانة ، السرقات الادبية ، ص ١٤١ .
 - ٢ . عبد القاهر الجرجاني ، اسرار البلاغة ، ص ٢٩٩ وما بعدها .
 - ٣ . محمد مصطفى هدار ، مشكلة السرقات في النقد العربي ، الصفحة الاولى
من المقدمة .

على تفاوت في التركيز والتناول . ولكنها مشكلة في النقد العربي موقف عندها النقاد جميعهم تقريبا ، قدما ، ومحدثين ، فما طرخوا الشعر بدونها . وقد ربطها الدكتور محمد مصطفى هدارة ، كما برزت له في مؤلفات الاقدمين ، بالخصومة بين القدماء والمحدثين ، وعمود الشعر ونهج القصيدة ، وبمشكلة اللفظ والمعنى ، وبالرواية والرواة كما استدركها محمد بن سلام الجمحي اولا . واستعرضها الدكتور بدوي طبانة من خلال موضوعي الاتباع والابداع ، وانواع المعاني واعتبارات اخرى ، كما استقرأ اصولها ومنهجيتها الاستاذان طه ابراهيم ومحمد مندور وغيرها ، معتمدين جميعا على تحقيقات النقاد العرب لها ابتداء من الجمحي الى عبد القاهر الجرجاني وما بعده . ومن هذا كله يتضح لنا ان نقاد العرب قد درسوا مشكلة السرقات دراسة عميقة ، ووضعوا لها اسسا ثابتة ، وجدت بتأثير الشخصيات النقدية العظيمة التي برزت في العصر العباسي - وخاصة في القرنين الرابع والخامس - فكان لها اكبر الاثر في رفع مستوى دراسة النقد العربي لمشكلة السرقات بما احدثت من نظرات تعتبر ارقى ما وصلت اليه الدراسة الحديثة بالنسبة لهذه المشكلة (١) .

تبقى اهمية تناولها ومدى تركيزها في النقد الواحد الهادف . فهي مع الحاتمي غيرها مع العسكري مثلا ، ومع ابن وكيع غيرها مع الجرجاني ، ومع صاحب غيرها مع الثعالبي . حتى انها في الرسالة الموضحة ، من ناحية غائية ، غيرها في الرسالة التي خصصها ابو علي نفسه لسرقات المتنبي من ارسطو . في الرسالة الاخيرة يهدف رصد السرقات الى خدمة الشعر والشاعر والمنحى الخاص الذي تنبه له الناقد . اما في الموضحة فقد قصدت لهدم الشاعر وتتبع سيئاته وكشف عوراته الادبية ، وقد استغلها الحاتمي كثيرا لعرض اخطأ

ابي الطيب الفنية ، بطريقة جانبية ، او لاستجلاب ساقط شعره خدمة لظروفه الخاصة ، وموقفه النقدي الملتزم من الشاعر الكبير .
وكانت الرسالتان موضوعها الرئيسي بالنسبة للناقد والشاعر ، فجاءت القضايا الادبية الاخرى مكملة لها ، منتهية اليها في كل حال . يأخذ الحاتمي البيت الشعري فيقف عند سيئاته ثم ينسبه الى الشرق اولا واخرا . وهكذا ترد الابيات المستعرضة الى اصولها القديمة او السابقة سواء كانت السرقة حاصلة او متخيلة او معتمدة كما سنظهر بعد قليل .

السرقة بين الناقد والشاعر :

فقال الانباري (١) : فان كان قد سبق الى المعاني فيما ذكرناه ، فلم يسبق الى قوله :

فليس تزوراً إلا في المنام	وزائرتي كأن بها حياء
فعاقتها وباتت في عظامي	بذلت لها المطارف والحشايا
كأننا عاكفان على حرام	إذا ما فارقتني غسلتني

فقلت له : حاله في هذا اسوأ منها فيما تقدم ، فإنه اعتمد على قول ابن القعقاع وقلت وقد احلت في قولك : " إذا ما فارقتني " .

فقال الانباري : قد قال :

وصار طویل السلام اختصارا	أرى ذلك القرب صار ازوراراً
أموت مراراً وأحيا مراراً	تركنتني اليوم في خيرة
لكننا الظلام وكنت النهارا	فلو خلق الناس من دهرهم

٠١ الانباري : هو ابو علي الحسين بن محمد الانباري ، ولعله الانباري الذي ناب عن المهلب في الوزارة وصاهره على بنته زينة . (انظر ، الموضحة ، ص ٢٠١ .

وقال :

أُسِيرُ إِلَى أَقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ عَلَى طَرْفِهِ مِنْ دَارِهِ بِحُسَامِهِ

وقال :

أَلَمْ طَمَاعِيَةُ الْعَاذِلِ وَلَا رَأْيِي فِي الْحُبِّ لِلْعَاذِلِ
يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ وَتَأْبَى الطَّبَّاعُ عَلَى النَّاقِلِ

فقال ابو الطيب : اما يلهيك احساني في هذه الابيات عن اساءة ، ان كانت ، في غيرها ؟ فقلت : ما اعرف لك احسانا ، ولا اعترف لك باختراع ان كانت هذه الابيات التي تتخيل انك السابق الى معانيها ورب الاحسان فيها مسترقة ملصقة ، فيما تقدم من نظمها وابتكره اصحابها من معانيها ، شاغل عن تكرير لها وتبديل لالفاظها (١) . هذه المبالغة صدمة ، ولكك لا تستطيع فصلها عن واقعين : الحقيقة او ايها بها ، وهي ليست تهمة باطلة في اى حال . يقول الحاتمي : اما قولك : " ارى ذلك القرب صار ازورا " فمن قول بعض

المحدثين :

أُقْبِلْتُ ثُمَّ أُعْرِضْتُ لَا لِذَنْبٍ بِأَبِي مَنْ دُنُوها عَادَ بَعْدًا

واما قولك : (اموت مرارا واحيا مرارا) فمن قول العباس بن الاحنف :

وَنَفْسِي مُعَلَّقَةٌ بِالرَّجَاءِ تَمُوتُ مَرَارًا وَتَحْيَا مَرَارًا

سرقة لا شك فيها . وقولك : (لكانوا الظلام وكنت النهار) فمن قول الآخر :

بَيْضَاءُ فِي وَجْنَتِهَا أَحْمَرًا يَعْجِيهَا جَارَاتُهَا الْقِصَارُ

هِنَّ اللَّيَالِي وَهِيَ النَّهَارُ

يستطيع الحاتمي ، بالشاهد الشعري ، الحصول ان يدل على السرقة ، فما تخفى ، وان يلزم الشاعر واقع ما قال وقيل ، فلا ينجو . وقولك : " اسير الى اقطاعه بثيابه " من قول احمد بن ابي طاهر :

مَنْ مَالِهِ مَالِي وَمِنْ جَاهِهِ جَاهِي وَمِنْ مَرْكَبِي مَرْكَبِي
 وقولك : " ولا رأى في الحب للعاقل " من قول الاول :
 وما مِنْ فِتْنٍ فِي النَّاسِ يَحْمَدُ أَمْرَهُ فَيُوجَدُ إِلَّا وَهُوَ فِي الْحُبِّ أَحْمَقُ
 وقولك : " وتأبى الطباع على الناقل " من قول الاول :
 " وكيف بتركي يا ابن ام الطبائع "

هذا البيت لام حاتم الطائي ، وقد رده الحاتمي نفسه الى حكمة ارسطوطاليسية
 في رسالته الاخرى عن ابي الطيب . وكأن على ابي علي ان يرد كل احسان تقترحه
 الجماعة الى اصل قديم او حديث ، فيتضائل الشعر امام الواقع المعيب . يتعجب
 الانباري لقول ابي الطيب :

كَذَا قَضَتِ الْاَيَّامُ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ
 فقلت : لله درابي العتاهية في قوله :

مَوْتُ بَعْضِ النَّاسِ فِي الْآرِضِ ضَعْفٌ عَلَى بَعْضِ فُتُوحِ
 الا ان ابا الطيب اكرم لفظا (١) لم يغبن الفن هنا لانه لا يستطيع هدم الذوق ،
 وذلكاء الحضور ، امام تحيز الذات وتعنتها . فقال الانباري : ومن عجيب الكلام
 قوله :

وَمَنْ نَكَّدَ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرَّانِ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ
 فقلت : العجيب قول النظام البائس :

وَمَنْ نَكَّدَ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرَّانِ يَرَى عَدُوًّا فِيهِوَى أَنْ يُقَالَ خَلِيلُ (٢)
 لا نظن الجماعة تسكت عن تهمة كهذه ، الا ان يكون الحاتمي قد اضاف
 ذلك الى مواد المناظرة بعد ان استدركها من جديد ، او ان يكون ابو الطيب
 مغفلا حقا ، ان كان رجع الى قول النظام البائس او خائنه ذاكرته او خانها ففعل
 كما فعل طرفة بن العبد ببيت امرئ القيس ، كما لا نخاله غبيا الى درجة الصمت

٠١ الموضحة ، ص ١٣٤ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ١٣٥ .

عن هذا الافتعال السخيف ، ان لم يكن تعمد ذلك ، ولكن الناقد شاء له ما شاء .
وها ابو علي الحاتمي يصف كل شك بحسن نيته كناقد فني مخلص في مجال السرقة .
فقال الانباري : اتعرف لاحد هذا المعنى :

بنو كعب وما أثرت فيهم يد لم يدمها إلا السوار

فقلت له : ليس كل معنى استرقه يحضرنى ولكنني اعرف له في هذه الكلمة (١) . وهل
يجب ان يكون وراء كل معنى اتاه الشاعر سرقة يجب ان تحضر ؟ لقد عراه من كل
فضل ، وهذا من غريب الصنعة في استحضار السرقات واستجلابها .

" فلما غشي ابا الطيب موج هذا الكلام قال : رويدا ، اما ما نعيته علي
من السرقة فما يدريك اني اعتمدته ، وكلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض ، وآخذ
بعضه من بعض ، والمعاني تعتلج في الصدور ، وتخطر للمتقدم تارة وللمتأخر
اخرى ، والالفاظ مشتركة مباحة . وهذا ابو عمرو بن العلاء سئل عن الشاعرين
يتفقان في اللفظ والمعنى مع تباين ما بينهما ، وتقاذف المسافة بين بلادهما ،
فقال : تلك عقول رجال توافقت على السنتها . وبعد فمن الذي تعرى من الاتباع ،
وتفرد بالاختراع والابتداع ، لا اعلم شاعرا جاهليا ولا اسلاميا الا وقد احتذى
واقفى ، واجتذب واجتلب (٢) . ما اعرف لك احسانا ، ولا اعترف لك باختراع ،
وليس كل معنى استرقته يحضرنى : هذا هو جوهر النزاع الادبي بين الرجلين .
وهو يكمل ، بشكل جديد ، حركة الفعل وردة الفعل حول الشعر الواحد .
ودفاع ابي الطيب الوحيد ، والذي يحسم الموقف النقدي من السرقة بشكل
قاطع ، ونتقبله ، هو الكلمة الفصل والتعليل الاوفق لهذا الصراع الحاد :
اما ما نعيته علي من السرقة فما يدريك اني اعتمدته . . وكل كلام بعد هذا لا
يبرر عجز الشاعر عن الخلق الدائم والولادة المستمرة . فقد يصح ان المعاني

٠١ الموضحة ، ص ١٣٧ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ١٤٣ .

تعتلج في الصدر فتخطر للمتقدم تارة وللمتأخر أخرى ، ولكن التفرد بالابتداع شيء ، والتعري من الاتباع او الاتباع بشيء آخر . . ولم يسلم من هذا شاعر قديم ولا محدث ، من امرئ القيس الى ابي الطيب فالمعري فالعصر الحديث غالبا ، ويبقى السؤال الا واحد : هل يتعمد الشاعر السرقة او لا ؟ ابو الطيب لم يقطع بجواب ولو فعل . فالسرقة لا تتعمد في الغالب ، ولا يجب ان تكون كذلك ، ولكن الشاعر في حال الخلق ، وحتى في اعز حالات الوعي والصبر ، لا يستطيع كبت او تغلية هذا المخزون الثقافي المتراكم حتى ولا ضبطه وتعريته . على سديمية العاطفة وحرارة الحالة الشعرية في حال التعبير الحقيقي عن التجربة الاصلية المختمة ، وعلى تلبيه بالكشف والتصوير دون الوقوف عند المقول وغير المقول في الالفاظ والمعاني على العموم ، فيستعيد او يكرر دون وعي منه .

وبعد ان يتلهى المتنبي بكشف سرقات الآخرين ينفرد له الحاتمي رادا على الرد الذي استحسنته الجماعة بحما من فيقول : " فقلت له : اما قولك ان المعنى يعتلج في الصدر فيخطر للمتقدم تارة وللمتأخر أخرى ، وان الالفاظ مشتركة ، فليس الامر كما تخيلته ، ولا الكلام كله مشترك ، ولا ان الاول ليس بأولى به من الآخر . ولو كان كذلك لسقطت فضيلة السابق ، ولبطلت مهلة المتقدم ، ولما قدمت شعراء الجاهلية على شعراء الاسلام ، وقدم الصدر الاول من الاسلاميين على الصدر الاول من المحدثين = وانما حكم لهم بالفضل ، وسلم اليهم خصلة من اجل ما ابتدعوه من المعاني ، وسبقوا اليه من الاستعارات ، وابتكروه من التشبيهات الواقعة والامثال الشاردة ، وذللوه من طرق الشعر الحزنة = ولما تغايروا بالسرق والاجتلاب والنقل والاجتذاب (١) . .

وَذَرْنَا وَقَوْمًا أَنَّهُمْ عَمَدُوا لَنَا
أَبَا ثَابِتٍ وَأَقْعَدَ فَأَنَّكَ طَاعِمٌ
فأخذه الحطيئة ، فاحسن العبارة عنه ، واستوفى المعنى فيه ، فصار أحق به
من المخترع له بقوله :

دُعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعَدَ فَأَنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي (١)
فلا يطلب الى الشاعر ان لم يبتدع ، ان يتوكأ على القديم فيسترق ، ولكنه ان فعل :

أ — ان يأخذ المعنى دون اللفظ .

ب — ان يطويه ان كان مكشوفاً ويكشفه ان كان مستورا .

ج — ان يحسن العبارة عنه .

د — وان يختار الوزن العذب له . . ليعلق بالاسماع وبالقلوب .

وهذا من لطيف ما قيل في حسن الاخذ والتضمن ، طالما ان الشاعر
لن يتبرأ منه " فأما ان يجتلب الشاعر المعنى ويقصر عن استيفائه تقصيرك ، ويسبي
العبارة عنه اساءتك ، ويقع ابداً دون الاول بغير محتمل له ، ولا متسمح فيه ،
ولا محكوم بالاحسان في شيء منه (٢) . . وطبيعة النقد تفترض مثل هذه المبالغة
فيغيب عن خاطر الحاتمي كل احسان اتاه ابو الطيب ، ولا يرى له الا احسانا
واحداً في الاخذ واخرفني زيادة اللفظ الكريم . " وقال ابو نواس :
الى فتى أُمُّ مَالِهِ اَبْدًا
تسعى بجيبٍ في الناس مَشْقُوقُ
فقلت واحسنت :

مَلِكٌ اِذَا امْتَلَأَتْ يَوْمًا خَزَائِنُهُ اَذْأَقَهَا كُلَّ امٍّ لِلْوَلَدِ (٣)
وعنده ان " الالفاظ مباحة الا استعارة لطيفة او تجنيسا او طباقا ، فان هذه
تختص بأربابها . واذا اتى بها اخر بعد اول قضي عليه بالسرق ، على انه في

١ . الموضحة ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ١٥٤ .

٣ . المصدر ذاته ، ص ١١٢ .

المجازان يتوارد اخر واول في بعض ذلك (١) . وكان قد قضى عليه بالسرق حين وقف عند استعاراته ، ولم يتنبه الى انه في المجاز يتوارد الاول والاخر في بعض ذلك . وسرقة البديع اقبح من غيرها ، اذا كانت الاستعارة او الصورة مثلا ، تحمل المعنى الذى يجسده الشاعر . وبينما هو يحصر السرقة في وجوه البديع هنا ويبيح الالفاظ ، تراه قد ادرك قبلا ان الالفاظ ليست مشتركة وان الكلام ليس كله مشتركا ، الا ان تكون " مشتركة " غير " مباحة " فلا يزلق .

وقد افتن الحاتمي فعلا في استخراج السرقات واجهد نفسه بذلك ، لكنه اكد اكثر من حقيقة . احدها واقع شعراي الطيب وحقيقته : فأنك تلاحظ حتى في اقصى حالات التصنع في اصطياد السرقة ، ان اكثر معاني الرجل قد سبق اليها ، وان ابتداعاته ليست كلها مخترعة . وهذا بدوره يؤكّد قولنا ان شعراي الطيب يكاد يكون خلاصة الشعر العربي اجمع . كل احسان مشهور تقترحه الجماعة او الحاتمي نفسه او يعتمد ابو الطيب تغطية لاساءة سبقت يرصد له الناقد اصلا ما في الشعر القديم . وقد لا يكون اعتمد الشاعر ذلك او حتى فكر به ولكن الشاهد يخلق الشك فتعيد النظر ورغم كل الظروف التي تجمعت واحاطت بهذا النقد يبقى العمل الفني فوق كل شيء . فلا تستطيع تكذيب الناقد — لان المتنبي نفسه ما فعل وتعليل هذا ، في الحالات التي كان يجب فيها الا يسكت الشاعر ، ان الحاتمي اضاف الكثير على حوادث المناظرات الحقيقية — ولا تستطيع الشفقة على الشاعر في الوقت ذاته . فكثيرا ما يستعيد ما ابتدع ، على تفاوت في مشاهدة المعنى من قريب او بعيد ، دون ان يعي او يعتمد ذلك ، لان اختصار التراث في ذهنه يفقده السيطرة ، في حالات الخلق الحارة المضطربة ، على جيشان

المعاني والصور والالفاظ ، فينزلق . . وحقيقة اخرى اكدها هذا النقد وهي عظمة الحاتي وبراعته في ملاحظة المعنى المسترق مهما دق او خفي ، وسرعة الكشف والتحصيل على عميق الثقافة وتشعبها وتأصلها في التراث الى حد الشمول . اما صورة الشاعر بهذا الشكل الضعيف الساذج ، الجبان احيانا ، المأخوذ ، على انزواء وخوف وحدائة ، فقد ارادها الحاتي له كذلك بعد ان استدرك فصول المناظرات ، اظهرها لعظمته وابهته هو ، وتحقيرا لمجد الشاعر وشهرته ، كجزء من حملة التهديم والتحقير والثلب التي انتدب لها .

والحاتي كرميله ابن وكيع عريق في دراسة السرقات اصيل في معالجتها ، فلا تفوته فرصة لا ابتداء وجه جديد لها او تعبير اخر يوكد واقع الشعر ورأيه هوفيه . ويزعجه ان يرى السرقة دون ان يكشفها حتى ولو كانت مستحبة محمودة . فيرى فيها نسخا وسلخا واغارة واخذاء ، وتقصيرا شديدا في كل ذلك ، واجتلابا واجتذايا وغير ذلك دون ان يتذكر حسن التضمين او الاقتباس او الاضطراب الحسن ، فطبيعة نقده تستلزم التشهير الغالب في السرقة على حساب الرأي احيانا . حتى انه قد يخلق الشعر او ينسبه الى شاعر مغمور — وهنا يلاحظ ان الشعر المجهول القائل مجهول الزمان كذلك فيصح فيه ان يكون سارقا او مسروقا — او الى قائل ، يتأكد غالبا ان الشاعر قد لا يكون خطره ببال ، او يأنف ان يتدنى اليه ، خاصة اذا كان المعنى المتهم سخيفا او شائعا لدرجة الابتذال . حتى ولو اتفق المعنيان تبقى مسألة هل اعتمد الشاعر ذلك ام لا ؟ والغالب ان لا . قلنا ان ابا علي يهيمه رد كل بيت ورد في الموضحة الى اصل سابق ، سوى استعراض مختلف الاخطاء الفنية الاخرى والتي صدق فيها الناقد واخلص كثيرا ، وعلى هذا تفترض براعته وغاية نقده ، فلا يفلت من صنعة واعتمال ، فيقع . يقول الحاتي : « واعرف منها قوله :

فَخَلَفَهُمْ بَرْدُ الْبَيْضِ عَنْهُمْ وَهَامَهُمْ لَهُ مَعَهُمْ مَعَارِ
وهذا كأنه من كلام الصوفية — فكان على الشاعر ان يلتزم حدود الشعر
فلا ينزلق الى الصوفية او الفلسفة — فقال الانباري اتعرف لاحد مثل قوله :
أُمِلْتُ لَيْلَةً سَارُوا كَشَفَ مَعْصَمِهَا لَيْلَبْتُ الْحَيَّ دُونَ السَّيْرِ حَيْرَانَا
فقلت : نعم قول محمود الوراق ومنه اخذ المعنى :
قُلْتُ أَرْفَعِي السَّجْفَ نَسْتَمْتِعُ بِمَجْلِسِنَا فَالْشَّمْسُ مَا غَيَّبَتْ مِنْ وَجْهِكَ الْكُلُّ
فقال الانباري : اين هذا من ذاك ؟ فقلت : هو هو ان انعمت النظر (١) .
فهذا تكلف ظاهر لان ليس هذا من ذاك ، حتى ولو كان ، فالشاعر
يجب الا يتهم بالسرقة ، لانه لا حاجة به الى ان يعتمدها ، على بساطة
الحالة وسهولة الابداع ، ان كان ، ناهيك بخفاء المعنى المتشابه وبعده ،
وانفة ابي الطيب من ان يسترق معاني كهذه من شاعر كمحمود الوراق . وهو
لا يني يفرد له الاجتلاب لتسهيل تخطئته ولو على حساب الفن . قال :
ففيها اقول : " يريك خرقا وهو عين الحاذق " .
فأحفظني ذلك القول منه وقلت : اراك تعتدنا نعم . فقال : حاشا
الله . فقلت : اما هذا مسلوخ سلخ الاله اب من الراجز يصف ناقة : " خرقا " الا
انها صناع " . او من قول حميد بن ثور :
فَقَامَ وَسَّانَ وَلَمَّا يَرْقُدِ اِلَى ضَنَاعِ الرَّجْلِ خَرَقَا الْبِدْرِ
وهذان البيتان من اوجز ما قالته العرب (٢) . لا نرى للمعنى خطورة تستأهل
احفاظ ابي علي واتهام الشاعر بسلخه المعنى " سلخ الاله اب " من الراجز ،
وواضح عدم الاعتماد على هذين البيتين . وكذلك النسخ ، يقول : وما اسقطت ايضا
فيه وأسأت في اخذه :

٠١ الموضحة ، ص ١٤٠

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٢٨

الاديب المهذب الأصيد الضرر ب الذكي الجعد الرئيس السهام
فأنك نسخته نسخا من قول البحترى :

كألمتني الايام لما تحرر ت بطل الرئيس ذي الأنعام
بالاديب المهذب الفاضل القر م الابي الندب الوفي السهام

وما ظننت احدا تجرأ على هذا اجتراءك عليه ، فإن احداث المتأدبين ممن يتعاطى نظم الشعر يترفع عن مثله . ولست اجد ايضا للجعد مذها في المدح ، اذا كان الجعد القصير (١) . " ليس في بيت ابي الطيب شعر ، وهو من تقسيماته وتكلفه الضعيف الواهي ، سوى السرقة الناسخة التي افسدها الحاتي عليه . وما قصر في اخذه ونسخه قوله :

لا بقومي شرقت بل شرقتوا بي وبنفسي فخرت لا بجودي
فأنك اخذته من قول الاول :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والأقداما
وجعلته ملكا هماما (٢)

وما سرقه فلم يزد على ان كرر لفظه في غير وزن البيت المسروق منه قوله :
فأن الجرح ينفر بعد حين اذا كان البناء على فساد
فأنك اخذته لفظا ومعنى من قول البحترى :

اذا ما الجرح رم على فساد تبين فيه تفريط الطبيب
ويأتيه بنموذج لا غارته على المعاني فيقول : واخطأت ايضا في قولك مع ضعف لفظك وسخف عبارتك :

ذي المعالي فليعلون من تعالى هكذا هكذا وألا فلا لا
فأنك اغرت في البيت الاول على بكرين النطاح في قوله :

٠ ١ الموضحة ، ص ٨٨ .

٠ ٢ المصدر ذاته ، ص ٥٤ .

هكذا هكذا تكون المعالي طُرقُ المَجْدِ غيرُ طُرقِ المَزاحِ
وبأخر على اخذ واضح ، والارجح ان المعنى المأخوذ عنه ، قد اعجبه فعلق بذهنه ،
ولم يع حين نظم بيته ان قد راجع ما قاله محمد بن يحيى ، والذنب يعود الى
محفوظه الضخم الذي يقذف الخواطر الى لسانه بحالات النظم اللاواعية فيفتضح
امره .

” فقال ابو محمد فما تقول في قوله :

كفى بجسمي نحولاً أنني رَجُلٌ لولا مخاطبتي أياك لم ترني

امخترع هو ؟ فقلت : كلا ، هذا من بيتين انشدناهما محمد بن يحيى :

لما بليت من الهوى خفت العيون من ان تراني

لولا كلامي ما اهتدت عين الجليس الى مكاني (١) .

ولا بد اخيرا من الوقوف عند عبقرية الحاتمي واصالته الثقافية الشعرية التي تجلت
في مذهبه النقدي عامة ، وفي تخصصه الواعي برصد السرقات ، واستعراض المعنى
الواحد المتدرج من القديم الى المحدث الى الشاعر السارق ، وهي عملية شائكة
تستلزم سعة الاطلاع وغزارة المحفوظ ، وسرعة البديهة ، وان كنا نتردد في
تقديرها لانه اعاد كتابة الرسالة ولانه في حالات الرد السريع كان تصنعه يفضحه
احيانا . وقد حافظ خلال نقده على ذوقه المميز وموقفه الذي اتفق كليا مع ظروفه
الخاصة ، فنجح في ابراز ما اراده وارادوه له دون زيف او جبن او تردد . وقد
تجلت هذه الظاهرة الاستعراضية لانتقال المعنى الواحد وتطوره ، عن طريق
الاخذ طبعا ، منذ بدء الرسالة ، ووجهت نفسها في اكثر من موضع منها . يقول
في هذا البيت :

وليل دجوجي كآنا جلت لنا محياك فيه فاهتدينا السمالق

فقلت له : اما قولك : ليل دجوجي . . . فمن قول محمد بن منذر :

لما رأينا هارون صار لنا الـ ليلُ نهارا بذكر هارونا
 واول من نطق بهذا عمرو بن بشاس في قوله : " فأخذ هذا مروان الاكبر فقال للمهدي
 . . . فأخذ هذا المعنى ادريس بن ابي حفصة فقال . . . فقال اشجع . . . ونقل
 المعنى العباس بن الاحنف فقال . . . فقال القصاني واحسن . . . فقال بعض الشاميين
 المطبوعين وعليه اعتمدت . . . (١) حتى ولو تحمل كل هذا ، ولم يعتمد الشاعر ما
 اراد ، تبقى له عظمة الكشف والتعليل ، وقد شاءها كثيرا ، تعظيما لقدرة وادلالا
 بسعة ثقافته ومحفوظه ، واسكاتا لخصمه ، وتحقيرا لشاعره . وهو في كل حال عريق
 في تدبر انواع السرقات ، كما قلنا ، الى استحداثها والتنبيه عليها . وقد جاء
 في العمدة لابن رشيق : " . . . وهذا باب متسع جدا ، لا يقدر احد من الشعراء
 ان يدعي السلامة منه ، وفيه اشياء غامضة ، الا عن البصير الحاذق بالصناعة ،
 واخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل ، وقد اتى الحاتمي في " حلية
 المحاضرة " بالقباب محدثة تدبرتها ليس لها محصول اذا حققت : كالاصطراف
 والاجتلاب والانتحال والاهتمام والاغارة والمرافدة والاستلحاق ، وكلها قريب من
 قريب ، وقد استعمل بعضها في مكان بعض ، غير اني ذاكرها على ما خيلت فيما
 بعد . . . (٢) " وهذا التصرف الشيق في حدود السرقات وانواعها دليل
 استيعاب لموضوعها وتجر في عميق اصولها كمشكلة حاصلة في النقد العربي ،
 وان كان التركيز عليها بهذا الشكل يؤخر تطور الفن او يعوقه في بعض القضايا
 النقدية الاخرى التي يحتاجها الشعر والنقد على السواء .
 ورغم تفاوت القيمة في ابيات الشواهد ، واستبعاد الشبه في الغالب ،
 والتدليل بالشعر المغمور ، المجهول القائل ، المبتذل احيانا ، والتصنع البادي
 في اعتماد الرد المرتجل ، والموقف الضعيف المجانب ، الذي صور به الشاعر ،
 والابهة الثقافية التي التزمها الناقد ، الى كل ما رافق الرسالة من زيادات

٠١ الموضحة ، ص ١٤ - ١٦ .

٠٢ ابن رشيق ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

وتحضيرات واعادة نظر وملابسات . رغم كل ذلك تبقى للحاتمي روعة الاهتداء ^{الى} الى الاصل وبراعة الكشف والعرض والتحقيق ، وللشاعر عظمة الشعر الذي شاع واشتهر - فتعجب لحفظ الناقد والجماعة لمختلف نماذجه - فحرك النقد الى حسناته وسيئاته ، وسرقاته وسقطاته . وكان ان اعتمدت الحركة الادبية بالنشاط وتكثف النقد الذي دار حول هذا الشعر . فتمكنت حركة الفعل وردة الفعل ، لينشأ عنها الوسط الذي ارتقى بالنقد العربي عامة الى منهجية وموضوعية ، واصولية ركزته فكاد يستقر . وبرغم الدفاع الحائق ، بالنسبة للنقد وللشاعر ، الذي اعتمد الحاتمي في مسيرته شعر الطائيين ، والذي افرد فيه رأيه في شعري الرجلين والانتقاص الزائد من قدر ابي الطيب كشاعر بصير بالشعر والنقد مراقب لبعض قضايا ومظاهره - على شكا في بعض مواد هذه المناظرة التي كثرت فيها الزيادات - تبقى " للرسالة الموضحة " قيمتها الرائدة في تركيز النقد حول شعر المتنبي ، وتحريك هذا العمل الادبي الذي توكل عليه النقد اللاحق ، فكان بدء الحركة المضادة للفعل الذي اتخذ جانب الشاعر وسائره . وستكون بالنسبة للحاتمي نفسه اول الطريق الى رسائل اخرى في شعر الرجل تعد بالانصاف والخير فتكاد توفق الى ذلك . يقول في ختام الموضحة : " . . . وانا اشفع هذه الرسالة بما تتبعته من عواره ، ووقفت عليه من سرقه ، ومن سقط لفظه وسخيف معانيه ، واذكر ايضا من محاسن شعره ، ومن عيون مدائحه - فأن المدح كان طعمته وشوارد ابياته - ما اجرى في جمعية مع الحق الذي لا يسع تعديده ، منصفاً ومنتصفاً منه ، لا الته حقه ، ولا انحله ما ليس له . وافرد بذلك كتابا واستقصيه ، وانتهى الى الغاية التي تبلغها القدرة فيه . (١) " . فهل وفق الى ذلك ، واهتدى الى الحق فما غالبه ؟

ستكون الرسالة الحاتمية " الشاهد الاخر على الناقد والشاعر معا ،

لنرى ما جناء الاول وما افاده شعر الثاني الى يومنا هذا .

٢ - "الرسالة الحاتمية" فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة؛^(١)

جاء في "الموضحة" : ٠٠٠ وانا اشفع هذه الرسالة بما تتبعته من عواره ووقفت عليه من سرقة ، ومن سقط لفظه وسخيف معانيه ، واذكر ايضا من محاسن شعره ومن عيون مدائحه - فأن المدح كان طعمته وشوارد ابياته - وما اجري في جميعه مع الحق الذي لا يسع تعديده ، منصفاً ومنصفاً منه ، لا الته حقه ، ولا انحله ما ليس له . وافرد بذلك كتاباً واستقصيه ، وانتهي الى الغاية التي تبلغها القدرة فيه (٢) .

هكذا شاء . فهل اعتمد ما اراد ؟ ليس لابي علي في نقد المتنبي سوى "الموضحة" والحاتمية هذه . وبواعث تأليف الواحدة تختلف عن الاخرى سوى التفاوت في النوعية وطريقة العمل النقدي وغير ذلك . وواضح ان ابا علي كتب رسالته هذه بعد مرحلة تحول مفاجئة وغريبة تضع حدا للظروف والحالات التي رافقت تصنيف "الموضحة" ، وتؤكد مواجهة الناقد الصريحة لبعض حقائق النقد ، وعدم الاستهانة بأحسان الشاعر والتغافل عن عبقرية الشعر . عدا انها تعكس فاعلية النضج الادبي والاعتدال الخلفي الذي تنتهي اليه حالات الانفعال السريع والتورط العايب والسخط المكثف امام الاغراء الادبي والمادى على السواء . وهناك اسباب اخرى ادت الى هذا الاتزان النقدي والثقة الادبية في معالجة البيت الشعري الا انها تقع جميعها داخل هذا الاطار الذي تحول الى الشاعر ، ويكاد يدافع عنه بعد ان وقف على فضله واحسانه . يقول صاحب "الصبح المنبي" :

- ١ . جعلنا الرسالة الحاتمية هذه بعد "الموضحة" لاستجماع نقد الحاتمي مرة واحدة ، رغم تأخرها زمانياً على رسالتي صاحب والجرجاني في البيئة العراقية .
- ٢ . الموضحة ، ص ١٩٦ .

قال ابو علي الحاتمي : وشاهدت من فضيلته وصفاً ذهنه ، وجودة حذقه ، ما حداني الى عمل الحاتمية ، وتأكدت بيني وبينه الصحبة ، وصرت اتردد اليه احياناً (١) ان ليس باستطاعة الناقد صرف النظر عن كل حسن او ابداع يقترحه الشاعر ، وهذا جزء من الالتفات الى الموضوعية واكتمال عناصر الثقة بالالاب ووفرة الاطلاع عليه ، سوى تردد الحس الجمالي في تزييف او تزوير كل صنعة رائعة يفرضها الشعر . ويرى محقق الرسالة ان مداراة المتنبي وملاطفته للحاتمي في جلسات "الموضحة" - وهذا امر نشك فيه كثيراً ، ان ان هذا اللين الذي صور به ابو الطيب كان احد لمسات الحاتمي الخيالية على فصول الرسالة حين اعتمد الى تعظيم قدره على حساب ضعف الشاعر المتهم بكل فضل ابدي - قد حققتا غسل حقد الناقد وشفاء نفسه منه " فأكتفى بها للدلالة على تقدمه ، وعلى انه غلب المتنبي فأمكنه الفخر بذلك لدى سيده المهلب ، وسيد سيده معز الدولة . فلم ير من حاجة الى استئناف العداوة بعد ، فأخذ يميل شيئاً فشيئاً عن حالته السابقة " ويعرف حق المتنبي ويحمل في وصفه " . ولعل الحاتمي مال بعد تلك الحادثة الى المتنبي وقد امن شره ، فغدا يقدمه ويشيد بذكره . وهو انقلاب قد نراه احياناً في من فطروا على الاحساس السريع الانفعال والشعور المتقلب بتقلب الاحوال . ولكن مهما يكن من امر ، فلا يخلو هذا الانقلاب من الغرابة (٢) . اما الحاتمي فقد حدد منطلقه مباشرة فقال : " والذي بعثني على تصنيف هذه الالفاظ المنطقية والاراء الفلسفية التي اخذها ابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي ، منافرة خصومي فيه ، لما رأيت من نفور عقولهم عنه وتصغيرهم لقدره (٣) " . وهذه اولى بوادر التحول الى الشاعر بعد اشتداد الخصومة ، والانحراف المتعصب في "الموضحة" كما اتضح .

- ١ . البديعي ، ص ١٤٢ .
- ٢ . البستاني ، مجلة "المشرق" ، عدد اذار ، سنة ١٩٣١ ، ص ١٩٩ .
- ٣ . المصدر ذاته ، عدد نيسان ، سنة ١٩٣١ ، ص ٢٧٤ .

ووجدنا ابا الطيب احمد بن الحسين المتنبى قد اتى في شعره باغراض فلسفية ، ومعان منطقية ، فان كان ذلك منه عن فحص ونظروبحث فقد اغرق في درس العلوم ، وان يك ذلك منه على سبيل الاتفاق ، فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغريبة . وهو في الحالتين على غاية من الفضل ، وسبيل نهاية من النبل (١) . وهذا القول الرزين دليل ثقة في النفس وموضوعية في التقدير ، يظهر فيها الناقد ، العالم ، المحقق ، على حقيقته الادبية التي سخرت في "الموضحة" دون بهرجة او تشويه . . . وقد اوردت من ذلك ما يستدل به على فضله في نفسه ، وفضل علمه وادبه ، واغراقه في طلب الحكمة مما اتى في شعره موافقا لقول ارسطوطاليس في حكمته (٢) .

تبقى قيمة الرسالة ، بعد هذا الاغراق في التأدب ولطف اللهجة الذي يدعو الى الاستغراب (بمقارنتها مع الرسالة السابقة) ، وهي قيمة دلت على فضل الناقد والشاعر ، بما اكدته من موسوعية على الحاتمي وقدرته على المقارنة والتمييز ، وبما اوضحته من استغراق ابي الطيب في الالتفات الى المعاني الفلسفية والاغراض الفكرية والمنطقية . وقد ركزت هذه الالتفاتة من ابي الطيب عبقرية خاصة تفرد بها الشاعر ، اذ استطاع ان يحول التجربة الفكرية ، احيانا ، الى حالة شعرية تنعم بالصياغة الرائقة ، والنغم الرزين ، والصورة الحية الحاضرة .

وسيتضح فضل الرجلين في استعراض المقابلات المائة التي حوتها الرسالة ، والتي كان قد ورد بعض ابياتها في "الموضحة" كدليل اخر على سرقة او سخف لفظ او ضعف تركيب . والى جانب الاقتصار على ايراد الحكمة

٠١ مجلة "المشرق" ، عدد نيسان ، سنة ١٩٣١ ، ص ٢٢٥ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

الارسطوطاليسية ثم بيت المتنبي الشعري ، او القصور عن التعليل والموازنة الحاسمة ، نرى ان الحاتمي قد افتعل بعض المقابلات او ظن خطأ او عمدا ان القرابة حاصلة بين الحكمتين على الرغم من وضوح البعد واستحالة الاخذ من قريب او بعيد . وقد لا نعجب بطريقة ابي علي في سرد المقابلات الا ان الاشارة النقدية ، من خلال الموازنة الجزئية ، تدعو الى الاهتمام والاعجاب معظم الاحيان ، خاصة حين يريك ان البيت الشعري قد اختصر هذه الحكمة او تلك ، او انتظمها بوعي الشاعر ومنطقه السليم . جاء في المقابلة الاولى :
قال ارسطو : اذا كانت الشهوة فوق القدرة ، كان هلاك الجسم دون بلوغها .
قال ابي الطيب :

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام (١)
قد لا تستطيع اعتبار " هذا من ذاك " ولكنك لا تستطيع اعتبار العكس كذلك .
قال ارسطو :

رغم نقل الطباع عن ذوى الاطماع شديد الامتناع .
قال المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
اما في " الموضحة " فقد كانت السرقة من شاعر وليست من فيلسوف حكيم ، والناقد نفسه . يقول الحاتمي : وقولك : وتأبى الطباع على الناقل " من قول الاول : " وكيف بتركي يا ابن ام الطبايعا " .
وقال الاخر : " ان التخلق يأتي دونه الخلق (٢) " . والاخذ اقرب الى ارسطو منه الى الشاعر " و " الاول " ، رغم شكنا باعتماد المتنبي ذلك ، واضطراب الحاتمي في ازدواجية الموقف النقدي يجعلنا نفقد عند قيمة مثل هذه المقابلات

١ " المشرق " ، عدد نيسان ، ١٩٣١ ، ص ٢٦٧ . جاء في " الموضحة " ،

ص ١٢٠ ان المتنبي اخذ هذا البيت من ابي تمام .

٢ " الموضحة " ، ص ١٢٣ - ١٢٤ . والمشرق ، ص ٢٧٦ ، مقابلة رقم ٢

او قيمة ما افتعله في الرسالة السابقة .

المقابلة رقم ٧ :

قال أرسطو : الالفاظ المنطقية مضره بذوى الجهل لنبو احساسهم عن

درسها .

قال ابو الطيب :

بِذِي الْغَبَاوَةِ مِنْ اِنْشَادِهَا ضَرَّرَ كَمَا تَضَرَّرَ رِيَّاحُ الْوَرْدِ بِالْجَعَلِ
قد يكون الاخذ واردا في الصدر ، ولكن الصورة تختلف ، عدا ان المدائح
غير الالفاظ المنطقية التي ارادها الفيلسوف .

قال أرسطو :

ترداد حركات الفلك يحيل الكائنات عن حقائقها .

قال المتنبي :

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلًا تَقَلَّبَتْ عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كِذْبًا
هذا تعمل فاضح من الحاتمي ، اذ لا علاقة في البيت بين تقلب اخلاق
الناس وترداد حركات الفلك في احالة الكائنات عن حقائقها .
قال أرسطو :

من لم يردك لنفسه فهو النائي عنك وان كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك

فانت قريب منه وان تباعدت انت عنه .

قال المتنبي :

اِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ ، وَقَدْ قَدَّرُوا أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ ، فَالْراحلونَ هُمُ
اثر الصنعة والمنطق واضح في تقسيم البيت . وهذا نظم واع يدل على
تأثر الشاعر بالفلسفة . ولعله رجع مرارا الى حكم أرسطو فتركت بعض معانيه في
ذهنه ، وجاء بعضها في شعره خلال عملية الخلق اللاواعية التي لا يستطيع
دونها ضبط مخزونه الثقافي او مراقبة تدفقه .

قال ارسطو :

لسنا نمنع ائتلاف الارواح وانما نمنع ائتلاف الاجسام ، فأن ذلك من طبع

البهائم .

قال المتنبي :

وما كلُّ مَنْ يَهْوَى يَعِيقُ إِذَا خَلَا عَفَافِي ، وَيَرْضِي الْحَبَّ ، وَالْخَيْلُ تَلْتَقِي

القرابة حاصلة في النظم المنطقي الواعي ، وفي التقسيم الفكري الظاهر ،

ليس الا . وقد يكون اختيار الحاتي قد تم نتيجة وقوعه على مثل هذا النظم ،

فشاء له مقابلا في ارسطو ، الذي يعرفه جيدا ، دون التأكد من حصول الاختاد

حتى المشابهة .

قال ارسطو :

العاقل لا يساكن شهوة الطبع لعلمه بزوالها ، والجاهل يظن انها

خالدة له . وهو باق عليه . فهذا يشقى بعقله ، وهذا ينعم بجهله .

قال ابو الطيب :

ذو العقلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِعَقْلِهِ وَاخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ بِنَعَمٍ (١)

تصح في هذه المقابلة نظرية " هذا من ذاك " لان الفكرة واحدة ،

ولا فضل لابي الطيب الا في تسوية الوزن والقافية اذ ليس في البيت شعر على

الاطلاق . فحين ينظم المتنبي يطابق ، وحين يقسم واعيا ينسى انه شاعر ، فيلحق

نفسه بمنطق ارسطو وفلسفة اليونان .

قال ارسطو :

الظلم من طبع النفوس . وانما يصدها عن ذلك احدى علتين . علة دينية

لخوف معاد ، او علة سياسية لخوف الانتقام .

قال ابو الطيب :

١ . وردت هذه المقابلات تباعا في اعداد نيسان من " المشرق " ، ص : ٢٧٩ —

٢٨٠ . ويار ، ص ٣٤٨ و ٣٥٢ . وحزيران ، ص ٤٦٤ .

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ ، فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلَمُ

قال ارسطو :

• الجبن ذلة كامنة في نفس الجبان ، فاذا خلا بنفسه اظهر شجاعة

قال ابو الطيب :

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَّهَ وَالنَّزَالَ

قال ارسطو :

اعظم الناس محنة من قل ماله وعظم مجده ، ولا مال لمن كثر ماله وقل

مجده •

قال ابو الطيب :

فَلَا مَجْدٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

قال ارسطو :

اقرب القرب مودات القلوب وان تباعدت الاجسام ، وابعد البعد تناءى

القلوب وان تدانت الاجسام •

قال المتنبي :

وَأَبْعَدُ بَعْدَنَا بَعْدُ التَّدَانِي وَأَقْرَبُ قَرِينَا قَرَبُ الْبَعَادِ (١)

قال ارسطو :

• اللطائف سمواته ، والمكثافات ارضية ، وكل عنصر عائد الى عنصره الاول

قال ابو الطيب :

فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرْبَةٍ

قال ارسطو :

الذى لا تعلم علته لا يؤمل الى برئه •

١٠ • وقف الحاتمي عند هذا البيت في "الموضحة" ، ص ٤٧ ، كمثال على مستهجن

الكلام ومستكره التركيب •

قال ابو الطيب :

وَمِنْ جَاهِلٍ بِي وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عَلَيَّ أَنَّهُ بِي جَاهِلٌ (١)

قال ارسطو :

الحس قبل المحسوس ، والعقل قبل المعقول .

قال المتنبي :

فَقَرُّ الْجَهْلِ بِلَا قَلْبٍ إِلَى أَدَبٍ فَقَرُّ الْحَمَارِ بِلَا رَأْسٍ إِلَى ذُنْبٍ

- اخر مقابلتين ابعد ما يكون عن التقابل ، وهذه احدى اختراعات الحاتمي .
اما المقابلات الاخر (٢) فقد اكدت للحاتمي حسن الظن ، وروعة الكشف والعرض ، ودقة الملاحظة ، ولا يبي الطيب عبقرية العودة الى التراث الفلسفي يختصر بعضه شعرا حسنا ، وينظم بعضه فينحل الى شعر سخي ، حكمة الرجل ابلغ منه . وقد لاحظنا مع الدكتور شعيب والشيخ عبد الرازق كيف ان لقاء ابي الطيب والفارابي في بلاط واحد مكن فلسفة الاغريق ، وارسطو خاصة على يد المعلم الثاني ، في نفسية شاعر سيف الدولة ، فاخترنها لحالات خيرة تصلح فيها الحكمة ويصح اعتماد الفكر ويختصر الشيخ عبد الرازق كل ذلك فيقول :
" واحسب ان ما اورده الحاتمي في رسالته من الاقاويل المنسوبة الى ارسطو التي وافقها المتنبي ، قد يكون معظمها من كلام الفارابي ، فان الحاتمي لم يبين لنا مواقعها من كتب ارسطو . واذا لم تكن من كلام الفارابي فقد تكون وصلت الى المتنبي من كتب الفارابي ، فقد ذكر المؤرخون ان له كتابا اسمه "فصول مجموعة من كلام القدماء" وهو لم يصل الينا بعد (٣) . انها حاصلة

- ١ . اورد الحاتمي هذا البيت في "الموضحة" ص ١٢٥ كمثال اخر على هذيان الشاعر .
- ٢ . وردت هذه الابيات في الرسالة الحاتمية ، تباعا ، في اعداد : اب وايلول ، ص : ٦٢٣ و ٦٢٤ ، ٦٢٩ . وتشيرين الاول ، ص : ٧٦٠ و ٧٦٢ و ٧٦٢ . وتشيرين الثاني ، ص ٨٥٥ .
- ٣ . عبد الرازق ، ص ٩١ .

في شعر الرجل وفي " الرسالة الحاتمية " ، وهذا هو المقصود بعد كل شي * .
يبقى ان ابا الطيب استفاد كثيرا من تطلعات فيلسوف العرب الى فلسفة
اليونان ، قراءة او سماعا او حديثا ، فوطد نفسه الشعرية على الانفتاح والتلقي
الخير كما اسلفنا . فكان ان اعزم بالاحتفال بالتقسيمات المنطقية ، والملاحظات
الفكرية ، ينثرها في نظمه ، او يقترحها حكمة عامة ، او قانونا اخلاقيا ، او مثلا
موضوعيا اراديا ، ابعد ما يكون عن حركة الشعر الحية او حتى الصياغة اللائقة .
بعض هذا الصيغ جاء تأكيدا لدعوة الحاتمي فيما وافق شعر المتنبي كلام ارسطو
في الحكمة ، وتطبيقا حيا لمذهب " هذا من ذاك " كما قررنا .

وان تقتصر قيمة " الرسالة الحاتمية " فنيا على فاعلية الكشف والاستقراء
وبراعة الناقد في ذلك ، وصحة المقابلة في الغالب ، لا تتفق لاسلوبية الرجل
حرية النقد التطبيقي الذي يقوم ذكر الاسباب والعلل ، وتكثفه الموازنة الحققة ،
والتحقيق والتعليل ، فلا ينفرد للنقد العرض الحسن والملاحظة الدقيقة وحسب .
كما ان بعض المقابلات يستحيل اتهام الشاعر بها . ونحن نشك دائما في عودة
الشاعر الارادية الى الاصل يحتذيه او يقتنصه ، فكيف اذا استبعد التشابه او حتى
القربة . وقد يكون الحاتمي غش في ظاهرها فاسرع في الظن او انه جاءها
لاشباع غروره الدائم واستعراض عضلاته الادبية في وفرة الاطلاع على اكثر من
تراث او حضارة . الا انه في كل حال قد خطا بنقد المتنبي خطوة جبارة تعدت
اشارة الجرجاني الى تأكيد هذا المنحى الفلسفي في شعر الرجل ، والى تنبيه
النقد الاتي الى كل شعرا ستوحاه ابو الطيب من منطق ارسطو او فكر اليونان ، او
اراء ذلك الزمان عامة .

انها دراسة بدائية في الادب المقارن والتمثيل على عمومية الفكر في
حضارات وثقافات معينة يرصدها العقل مهما تباعدت الازمان والمسافات .
واذا كان لنا ان نحذف الكثير من شعرا بي الطيب فأننا لن نستطيع الا التشبث

بهذه الاشعار الغنائية الفلسفية ، التي ، وان وقفت على الفكرة العادلة العامة ،
فقد صقلتها الصياغة بكثير من الفن ولأسلوب عاطفي سام شرف عاميتها بما البسها
المتنبي من زينات باهرة (١) . وحواشي لطيفة سائغة .
” . . . ومهما يكن من شيء ، فإن رسالة الحاتمي الاخيرة تمتاز عن المؤلفات
الاخرى التي الفت في الموضوع نفسه بانها توجه عناية الجمهور الى المظهر الوحيد
المؤثر من ديوان المتنبي ، وهو اتجاهه الفلسفي . غير اننا لا نستطيع ان نمنع
انفسنا من ان نتساءل ، برغم ما ابداه المؤلف من روح طيبة في اول كتابه : الم
تكن فكرة المؤلف بيان الاتجاه غير الديني ، في ديوان سبق ان كشف ما فيه من
اخطاء ادبية ؟ (٢) . وهذا ما نرفضه لان الحاتمي نفسه كغيره من نقاد القرن
الرابع اعتبر ان الدين بمعزل عن الشعر ، وسواء ابان اتجاه الشاعر غير الديني ام
لا ، فلن يؤثر ذلك ^{على} الشاعر وعلى شعره بكثير او قليل ، سوى ان اغراض الحاتمي
النقدية والادبية باتت معروفة في رسالتيه . فلا حاجة للسؤال او التخمين .

٠١ بلاشير ، ص ١٢٣ .

٠٢ المصدر ذاته ، ص ٨ .

الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ) : (١)

جاء في "معجم الادباء" لياقوت ان ابا القاسم اسماعيل بن عباد الملقب بالصاحب كان قد بدأ أمره من صغار الكتاب يخدم ابا الفضل بن العميد عليا خاصة فترقت به الحال الى ان كتب لمؤيد الدولة ابي منصور بويه بن ركن الدولة ووزر له . وكان كما يذكر ابن الاثير في "الكامل" ، واحد زمانه علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأى وكرما ، عالما بانواع العلوم عارفا بالكتابة وموادها ، ورسائله مشهورة مدونة ، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره حتى انه كان يحتاج في نقلها الى اربع مئة جمل . وللصاحب اخبار حسان في مكانه الاخلاق مع رقاعة كانت فيه ، ووصفه ابو حيان التوحيدى (٢) فقال : كان الصاحب كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل ادب شيئا واخذ من كل فن طرفا ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم . . . وهو شديد التعصب على اهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والموسيقى . . . وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ويقول الشعر وليس بزال وديهته غزارة . وقد اتفق جميع الذين ارخوا له على انه صاحب فضل كبير وعلم غزير ، فذكره صاحب "انباء الرواة" في جملة النحاة لانه صنف كتابا في اللغة العربية . وما يقول فيه : وهذا الصاحب بن عباد ممن اشتركت الالسن في وصفه وسلم اليه اهل البلاغة ما عاناه من نشره ونظمه وحسن ترتيبه ورصفه . وكان ممن قنا العلوم واكثر منها . مات سنة ٣٨٥ هـ بالرى

- ٠١ راجع بشأن هذه المعلومات : معجم الادباء لياقوت ، ج ٦ ، ص ١٦٨ - ٣١٧ . ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٩٣ . اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٣١ - ١١٨ . نزهة الالباء ، للانبأرى ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ . انباء الرواة ، للقفطى ، ج ١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٣ . الكامل ، لابن الاثير ، ج ٩ ، ص ١١٠ .
- ٠٢ نقل ياقوت كلام التوحيدى هذا عن كتاب "اخلاق الوزيرين" لابي حيان نفسه .

وحمل الى اصبهان ، واسم كتابه في اللغة " المحيط " وله " الوقف والابتداء " و
" العروض " و " جوهرة الجاهرة " ورسائله ، وشعره ، وغير ذلك . وذكر له صاحب
اليتيمة " رسالة في الطب اورد بعض فصولها . كما ذكر له الانباري في " نزهة
الالبا " في طبقات الادباء " كتابا اسمه " الاخذ على ابي الطيب " - وهو رسالة
الصاحب في " الكشف عن مساوي المتنبي " - وقال فيه : وكان الصاحب صاحب
بلاغة وفصاحة ، سمح القريحة . اما صاحب " اليتيمة " فقد عقد له فصلا طويلا
وقف فيه على كبير فضله وعلمه فقال : وكانت ايامه للعلوية والعلماء والادباء
والشعراء ، وحضرته محط رحالهم وموسم فضائلهم ومترع آمالهم وامواله مصروفة
اليهم . . . وقد اجتمع في داره من العلماء والشعراء والادباء ما يرى عددهم
على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الاخذ برقاب القوافي وملك رقب المعاني .
وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى وجرجان مثل ابي الحسين السلامي وابي
بكر الخوارزمي والضيبي والقاضي الجرجاني والكثير غيرهم . وقد مدحه بعض
الشعر وهجاه بعضهم الاخر . وهذا التدليل الشامل على تشعب ثقافة الصاحب
وغزارة علمه ومحفوظه ، شاهد كبير على وفور فضله وعميق حكمته وسعة افقه . ولن
تقصر ثقة اهل الادب واللغة في رفعة منزلته وعبقريته ، طالما ان حضرته كانت
في القديم محط رحالهم ومترع آمالهم وبلاط حكمتهم . للصاحب في النقد اعتبارات
اخرى ، فهل اكسبته رسالته في ابي الطيب فضلا اخر ؟

٣ - رسالة صاحب بن عباد في "الكشف عن مساوي المتنبي" :

وكنت ذاكرت بعض من يهتم بالادب والاشعار وقائلها والمجودين فيها ،
فسألني عن المتنبي فقلت انه بعيد العرمي ، وشعره كثير الاصابة في نظمه ،
الا انه ربما اتى بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العجرا ، فرأيته قد هاج وحي
وتأجج ، وادعى ان شعره مستمر النظام ، متناسب الاقسام ، ولم يرضى حتى
تحداني ، فقال ان كان الامر كما زعمت فاثبت في ورقة ما تنكره ، وقيد بالخط
ما تذكره لتتصفح العيون ، وتسبكه العقول ، ففعلت ذلك ، وان لم يكن تطلب
العشرات من شيمتي ، ولا تتبع الزلات من طريقتي ، وقد قيل : اى عالم لا يهفو ،
وصام لا ينبو ، وای جواد لا يكبو ، وانما قلت ما قلت لئلا يقدر هذا المعترض
انني ممن يروى قبل ان يروى ، ويخبر قبل ان يخبر ، فاستمع وانصت ، واعدل وانصف
فما اوردت من كثير ما زل فيه الا قليلا ، ولا ذكرت من عظم ما اختل فيه الا يسيرا
... (١) وبهذا يبعد صاحب الشبهة عن نفسه فلا يتهم بالافتراء على ابي
الطيب وشعره . وقد ترددت هذه الطريقة في معظم النقد الذي دار حول
شعر المتنبي فالتزمها النقاد ادبيا لئلا ينسبوا الى الهوى ، او يتهموا بالتجني
المغرض ، او المباشرة التي لا تجب ، فيستحيل الفن الى غاية ، ويميل عن غرضه .
وطبيعي ان يكون الحافز بعض من يهتم بالادب وشعر الرجل ان لم يتخذ جانبه ،
لتصفو الرواية ، ويستوجب الرد والتحدى .

وليس غريبا ان يتجرأ صاحب على شعراي الطيب وقد سبقه الحاتمي
الى مناظرة الشاعر نفسه ، وتتبع عواره ، وتعزيق اديمه ، فنالت فصول مناظراته من
الشهرة والرواج ، والاهتمام الرسمي والشعبي ما يمكن الرغبة الى المجد في
نفس كل اديب حاسد للشاعر الكبير - ناهيك بالحق الذي يحمل

الصاحب له بعد ان ترفع عن مدحه وقصده ، فكان ان اتخذه غرضا يرشقه بسهام الوقية ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعي عليه سيئاته وهو اعرف الناس بحسناته واحفظهم لها واكثرهم استعمالا اياها وتمثلا بها في محاضراته ومكاتبته (١) .

هذا اذا لم يكن للصاحب علاقة بالحملة النقدية التي استهدفت شعرابي الطيب في العراق ، وان يكون قد سئل الى ذلك بواسطة الخليفة او اصحاب ردة الفعل الذين عمدوا الى كشف مساوي الشاعر الفنية وتحطيم شهرته .

اتكأ الصاحب على الموضحة :

وكان ان اعتمد الصاحب على بعض مواد "الموضحة" - اثر تحققها وشيوعها كما اسلفنا - فحقق لهذه الحركة المعادية تسلسل حلقاتها ، ولنفسه الاستجابة السلبية لترفع ابي الطيب وصدوفه عنه . وقد جاء في رسالة الحاتمي ، بعد ان يرد بعض احسان الشاعر الى شعر قديم ، قوله " . . وعلى ذلك فمن الواجب الا تدفع عن احسان انتظمه شعرك ، ولا معنى نكد طوح به في البلاد فكرك . ولكنك تحسن في البيت من القصيدة والابيات احسانا لا يجهله نقاد الكلام وارباب البيان ، ايجازا في عبارته ، وابداعا في نظمه ، وصوابا في معناه ، وسلامة في لفظه . ثم تشفع ذلك بالابيات السخيفة لفظا ومعنى ، وبالابيات التي تغير على معانيها وبعض الفاظها اغارة الذئاب المعط على سرح النقد ، فتأتي القصيدة بالشعر على غير مشاكلة ولا مشاكهة . ومن افحش المعاييب الا تقع اللفظة مصاحبة اختها ، ولا مزوجة ما جاورها

... (١) "فقد بدد الحاتمي المبالغة في الاتهام بهذا الموقف النقدي السليم ، وهذا يدخل ، كما رأينا ، ضمن مذهب الادبي ككل ، والذي يتضح فيه ذوقه وحسه الجمالي ومخزونه الثقافي الضخم . ونحن نرى ان صاحب قد اقتفى اثر الحاتمي في تحديد تهمة النفور هذه بين الالفاظ والابيات والقصيدة الواحدة . وقد بدا لكل منهما هذا التفاوت الشعري واللفظي ، منعيا على ابي الطيب الشعر الذي تأتي ابياته ، او حتى الفاظه ، على غير مشاكلة ولا مشاكهة . وعدم التزاج هذا معيب في الشعر ، وهذه خطوة موفقة في النقد القديم حول الوحدة الموضوعية او المزوجة الفنية في الشعر الواحد على الاقل ، يقول صاحب بعد ان يرسم لنفسه طريقه النقدي : " . . . وليس من الحزن ان يزرى العالم على نفسه بالعصبية ويضع من علمه بالحمية . . . وكنت ذاكرت بعض من يتهم بالادب والشعار وقائلها والمجودين فيها ، فسألني عن المتنبي فقلت انه بعيد المرمى ، وشعره كثير الاصابة في نظمه ، الا انه ربما اتى بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء (٢) " . وقد لا يخلو شعر شاعر قديم من هذا التباعد الظاهر بين التألق والسقوط سواء في الفكرة او في الصياغة ، وفي القصيدة الواحدة كذلك . وكان يفترض بأبي الطيب الا يتورط في تفاوت معيب كهذا ، طالما ان له القدرة على الابداع والاجادة في حالي الخلق والاغارة ."

وانا نلج اتكاء صاحب على الحاتمي في قضية هامة اخرى كان ابو علي اول من تقولها وتماجن بها على ابي الطيب نفسه ، قضية انكاره ابا تمام والبحثري .

- ١ . الموضحة ، ص ٢١ - ٢٢ . جاء هذا الكلام في المناظرة الاولى . وهو يؤكد اتكاء صاحب على مواد هذه المناظرة ، لانها عرفت عندئذ رسميا بعد ان جمعها الحاتمي في رسالة ورفعها الى الوزير والخليفة ليريا ما فعل لهما بالشاعر الكبير .
- ٢ . صاحب ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

وهي ادعاء لم يسلم منه الحاتمي ، حين اورد في الجلسة الرابعة دفاعا لابي الطيب عن سرقاته ، بتفنيده سرقات ابي تمام والبحترى اللذين ادعى ابو علي عليه انه انكرهما في الجلسة الثانية . يقول صاحب "الموضحة" : " ثم قلت : وفي هذه الكلمة تقول ، فتطول وتفخر وتصول وتوهم ان المعنى غير مسقول :

لأن الهام في الهيجا عيون وقد طُبِعَتْ سيوفك من رقاد
وقد صُغَّتْ الأسنّة من هموم فما يَخْطُرْنَ إلا في فؤاد

فسبحان من ذلل اعناق الكلام لك ، ووطأ كواوله وجمع شتيته ، وقاد لك المعاني بأزقتها ، حتى اخترعت منها ما قصرت عنه خواطر من تقدمك من فرسان الشعر وامراء النظم والنثر . وهذان البيتان هما من قول بعض الشاميين :

تَخِيلُ الهامُ أَحَدًا قَا صَوَارِمَهُ ما بين أجفانها صِيغَتْ من الوَسْنِ
تعلو عوامل قد سُدَّ دُنْ من وَجَلٍ يَسْلُكُنَّ بالطعن منه مَسْلُكُ الْفِطْنِ (١)

فيرد ها احد الحضور الى منصور النمرى ويتفرد الحاتمي من جديد بردهما الى البحترى فأبي تمام فعمر بن معدى كرب ، ثم يقول : " . . فقال ابو الطيب : من ابو تمام والبحترى ؟ ما اعلم اني سمعت بذكرهما الا من هذه الحاضرة . فقلت : ابو تمام والبحترى اللذان اختلبت الفاظهما ، واستلحقت معانيهما ، ووقعت دونهما وقوع السهم المقصر عن رميته . . (٢) . . فيسكت المتنبي عن هذا ، كما يريد الحاتمي ان يفعل . ولعل هذا من زيادات الحاتمي وتوليداته التي استهدفت استقطاب كره الادباء وحقد هم على ابي الطيب ، وهي كفيفة ، على خطورة هذا الانكار واهمية صدوره عن شاعر توكأ على القديم ما استطاع بتأليب المتأدبين عليه ، واحتقارهم له ، وسخرتهم من تجاهله او جهله ان صح ما ادعى عليه . ولكننا نشك ما استطعنا في صدور هذا الاعتراف عن ابي

٠ ١ الموضحة ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

٠ ٢ المصدر ذاته ، ص ١٠٦ .

الطيب نفسه ، لانه ليس من الغباء لدرجة تجاهل ما سيولده هذا القول وما سيجر عليه من احقاد . اما هم الحاتمي فكان تصوير عظمتهم ، وضعف المتنبي وبلادته وجهله امام معرفته هو وسطوته ، وهو يعلم بدون شك مدى الشهرة التي سيحققها هذا الادعاء على الشاعر ، فينتصف منه ويرضي في الوقت ذاته خاطر الوزير والخليفة ويتم لهما ما ارادا .

وقد استغل صاحب هذا الانكار فعابه على المتنبي في رسالته وانطلق منه الى نقده وتشهيره . يقول صاحب ، ونرد هذا الى شيوع التهمة التي تقولها الحاتمي على ابي الطيب : " . . . والان حين اعود الى ذكر المتنبي ، فأخرج بعض الابيات التي يستوى الرضى والمرئاض في المعرفة بسقوطها دون المواضع التي تخفى على كثير من الناس لغموضها ، فأما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام عليها ، ولكن يعاب ان كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحترى وغيره جل المعاني ، ثم يقول لا اعرفهم ولم اسمع بهم ، ثم ينشد اشعارهم فيقول : هذا شعر عليه اثر التوليد ، ولا عجب فهذا الصولي كان كثير الرواية ، حسن الادب الا انه ساقط الشعر . . . (١) " . الا ان الحاتمي فضح نفسه مرتين : مرة حين اورد بعد هذا الادعاء دفاعا للمتنبي عن نفسه ، ومرة حين خطأ النقاش في الجلسة الرابعة ما جاء في الجلسة الثانية ، حين افرد لابي الطيب دفاعا اخر عن سرقاته بتفنيد سرقات ابي تمام والبحتري (٢) واعتمادهما مثله على القديم الذى اتهم به . وهذا التناقض بين التجاهل والمعرفة التامة في الجلستين ، دليل واضح على اختراع الحاتمي هذه التهمة لمآرب خاصة ، وعلى تأكيد الزيادة وتحوير ما حصل فعلا في الجلسات الاربعة ، رغم اننا نشك بكون كل ما جاء في المناظرة الرابعة قد حصل فيها فعلا او

١ . صاحب ، ص ٢٣٠ . وهذا دليل اخر على تأثير صاحب " بالموضحة " وكونها عرفت قبل ان يكتب ابن عباد رسالته .

٢ . ابتداء من صفحة ١٧٦ . وسنتعرض لهذه السرقات عند استعراضنا هذه المناظرة الاخيرة وما دار فيها .

كان بعضه من زيادات أبي علي حين كتب الرسالة في صورتها الأخيرة لأبي الفرج الشيرازي . فبعد أن يقبحه على بيت آخر قاله ، يقبل عليه أبو الطيب طالبا النصفة وتغليب الرأي على الهوى فيقول : " . . . إنما أجرى على سبيل الشعراء المبرزين في الاحسان واختراع المعاني ، فإذا استبهمت مسالك الابداع ، جريت على وتيرة من تقدمني في اقتفار الاثر والملاحظة والنظر . وما أبرئ خاطري ، وإن كان الصواب يتصرف به على سبيله ، من زلة تجوز بي وعثرة لم اعتمدها . . (١) " . فلا يعقل ان يجرى على سبيل الشعراء المبرزين حين يبدع ويصيب ، وعلى وتيرة من تقدمه في اقتفار الاثر والملاحظة والنظر حين يسقط ويشوى ، دون ان يلم بأبي تمام والبحترى ، على مكانتهما في الشعر العربي ، وهو يعرفهما حق المعرفة ، كما يؤكد ما أورده الحاتمي نفسه في الجلسة الرابعة والأخيرة .

يبقى ان صاحب لم يشدد على السرقات كالحاتمي بل تجاوزها قليلا الى المساوي الغنية الأخرى ، والا لكانت تكرارا لما جاء في الموضحة ، لتشابه بعض الابيات التي دار حولها . وقد اعتبرها من جملة المساوي ، فوقف عند اقل من عشرة منها ، على انها من الاخذ الذي لا يعاب . يقول : " والان حين اعود الى ذكر المتنبي ، فأخرج بعض الابيات التي يستوى الرضى والمرئاض في المعرفة بسقوطها دون المواضع التي تخفى على كثير من الناس لغموضها ، فأما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعراء الجاهلية والاسلام عليها ، ولكن يعاب ان كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جل المعاني ، ثم يقول لا اعرفهم ولم اسمع بهم ، ثم ينشد اشعارهم ، فيقول : هذا شعر عليه اثر التوليد . . . (٢) " . لاتفاق شعراء الجاهلية والاسلام عليها ، وليس لان الشاعر يجب الا يتهم بالسرقة ، اولانها لا يجب ان تكون مشكلة نقدية خطيرة . وفي

٠١ الموضحة ، ص ١٠٧ .
٠٢ صاحب ، ص ٢٣٠ .

الواقع لم يصدر صاحب عن مذهب نقدي منهجي ، محدد مميز ، بل صدر عن مفهوم ادبي شائع تركزي في القرن الرابع عند نقاد الصف الثاني ، لا يتخطى المواصفات التي يفترضها الحسن الجمالي الدقيق والذوق الادبي الرائق ، على سخرية لطيفة وتهكم مشبع بالرغبة الى الشعر البديع والتعبير الحسن . وهو بعد نقد ذوق بحث ، تغلب عليه السخرية ، ويقل فيه التعليل وتكاد تنعدم المناقشة ، كما يرى الدكتور مندور ، على جزئية في البحث والنظر ، لان هم الاديب كان في التقاط السيئات وتشريحها دون الرجوع الى حسنات الديوان او شعر الشاعر ككل ، كأنصافه ، وانصاف الفن فيه (١) دع المنحى الذي اتجهه صاحب ، والمنطلق الذي صدر عنه الى نقد عامة ، وبرغم انه لا يعيب المتنبي ، استنادا الى مذهب معين او التفاتا الى مفهوم واضح محدد ، ترى انه قد تألق فنيا ، فأبدع في استغلال الذوق وفي وضع السيئة على " محك الفن ، وفي استعراض مختلف المساوي الشعرية ، على روعة الاسلوب ولطافة الاداء " . لقد ارتقى بالذوق الادبي المؤلف الى الغاية ، فنجح في كشف السيئات ، وقد عمد لذلك ، دون تعدد الاغراض . ونحن نعتبر ان التفاتاته النقدية الصائبة لا تعدو كونها صياغة جديدة للقضايا الفنية الدارجة ، سوى بعض التحصيلات الخاصة التي اضافها الى النقد الذي دار حول شعر المتنبي ، والتنبيهات الواعية التي دل عليها في شعره ، فجمع الى الحسن اللغوي البلاغي ، الذوق الادبي والتحسين النقدي لقضايا الجمال والبلاغة والبديع ، والخلق المعبر الجميل . . فهو يتحسس الكلمة بذوق شيق ، فيريدها لموضعها الحق . " والكلام اذا لم يتناسب زيفه جهابذته ، ويهرجه نقاده " . ومن لغاته الشاذة وكلماته النادرة قوله :

كُلُّ أَخَائِهِ كِرَامٌ بَنِي الدَّرِّ يَا وَلَكِنَّهُ كَرِيمُ الْكَرَامِ
ولو وقع الاخاء في رائية الشماخ لا استثقل ، فكيف مع ابيات منها :

قد سَمِعْنَا مَا قُلْتَ فِي الْأَحْلَامِ فَأَجْزْنَاكَ بَدْرَةً فِي الْمَنَامِ (١)

يخشى على الكلام من زيف اصحابه حيث يتباعد ويثقل على بعضه البعض . واكثر ما شدد صاحب على نقد الالفاظ فنفى عنها التعقيد والتكلف والتفاسيح بالنافر الغليظ ، والشاذ منها ، الى الركيك المهلهل الضعيف ، الى جمع الاسامي والتقسيم السخيف ، او الغامض المضطرب المقريقول : " واطم ما يتعاطاه : التفاسيح بالالفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء او غذى لبن ، ولم يظأ الحضر ، ولم يعرف المدر . فمن ذلك قوله :

أَيُّفِطِمَةُ التَّوْرَابِ قَبْلَ فِطَامِهِ وَيَأْكُلُهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ إِلَى الْأَكْلِ (٢)

وما ادرى كيف عشق التوراب حتى جعله عوذة شعره (٣) ومن تعقيد ، الذي لا يشق غباره ولا تدرك اثاره قوله :

وَلِلتَّرْكُ لِلْإِحْسَانِ خَيْرٌ لِمَحْسِنٍ إِذَا جَعَلَ الْإِحْسَانُ غَيْرَ رِيْبٍ

وكتبت اتعجب من كلام ابي يزيد البسطامي في المعرفة والفاظه المعقدة وكلماته المبهمة حتى سمعت قول يباعرنا في صفة فرس :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبَّوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدٌ

ولم ننفك مستحسنين لجمع الاسامي في الشعر حتى احتذى هذا الفاضل على طرقهم فقال :

-
- ٠ ١ صاحب ، ص ٢٣٧ .
- ٠ ٢ وقف الحاتمي كذلك عند هذا البيت فرأى ان لفظة " التوراب " علا سلامة مصدرها جافية جدا ، الموضحة ، ص ٣١ . سنرى ان صاحب رجع الى بعض الابيات التي استوقفت الحاتمي قبلا وهذا دليل اخر على اتكائه على مناظرات " الموضحة " وموادها .
- ٠ ٣ صاحب ، ص ٢٣٤ .

وانت أبو الهيجا بن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالد
 — حمدان حمدون وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان راشد
 — لا ادري كيف صبر على مثل هذا النظم مدوح ابي الطيب ، ولم يقتصر منه •
 ومن ركيك صنعته في وصف شعره والزراية على غيره قوله :
 أن بعضاً من القريض هراءً ليس شيئاً وبعضه أحكام
 ومن هذا نتيجة قريحته في وصف شعره كيف يطمع له بادعاء السبق لولا التقليد
 الذي صار آفة العقول وعاهة الالباب • وما لا اقدره يلج سمعا او يرد اذنا
 قوله :

جواب مسألي أله نظير ولا لك في سوءك لا الأ لا
 وقد سمعت بالفأفأ ولم اسمع باللاء حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف
 الذي لا يقف حيث يعرف (١) وقد يلاحظ تهالك صاحب على كشف السيئة ولكن
 ليس على افتراءها او تصنعها او اغتصابها له • يلحظها في الشعر مؤذية
 للذوق والفن فيقتلعها للعيان • الحامي ازعجه غرام الشاعر بتكرار لا في هذا
 البيت وغيره (٢) ، وكلا الناقدين احسن الالتفات والتذوق •

٠١ هذه الاستشهادات نقلت بتصرف عن رسالة صاحب ، ص ٢٣٦ — ٢٤٠ •
 ٠٢ الموضحة ، ص ٩٠ •

ومن عيوب قصائده التي تحير الافهام ، وتغوت الاوهام جمعه من الحساب ما لا يدرك بالارتعاطيقي ، ولا بالاعداد الموضوعة للموسيقى قوله :

أَحَادٌ أَمْ سَدَاسٌ فِي أَحَادٍ لِيُيَلَّتْنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِ (١)

وهذا كلام الجكل ورطانة الزط ، فما ظنك بممدوح قد شعر للسماح من مادحه فصك سمعه بهذه الالفاظ المفلوطة ، والمعاني المنبوذة ؟ فأى هزة تبقى هناك واى اريحية تثبت بهذا . ومن مساءلته للطلول البالية ، وكلامه اشد منها بلى واكثر اخلاقا :

أَسْأَلُهَا عَنِ الْمَتَدِيرِهَا فَمَا تَدْرِي وَلَا تُدْرِي دُمُوعَا
فَأَنْ لَفْظَةً "المتدِيرِهَا" لو وقعت في بحر صافٍ لكدرته ، او القى ثقلها على جبل سام لهدته ، وليس للمقت غاية ، ولا للبرد نهاية (٢) . يبرع الصاحب في الدلالة على الخطأ ووصفه ، ولكنه لا يعلل او يقبس ، لانه لم يصدر عن مذهب كلي معين . بيت "احاد ام سداس" المشكلة ، شغل الحاتي كثيرا فأفاضني تحليل اخطائه واحالاته وثقله ، وكذلك الجرجاني فيما بعد ، لان كلا منهما اتفق له مفهوم نقدي واضح ، عالج الشعر على اساسه واصوله .

"نعم ويقدموه على قوله :

لَا ادَّعِي لَابِي الْعَلَاءِ فَضِيلَةً حَتَّى يُسَلِّمَهَا إِلَيْهِ عِدَاءُ
ويلغني انه كان اذا انشد شعرا بي تمام قال : هذا نسج مهلهل وشعر مولد ، وما اعرف طائكم هذا ، وهو دائب يسرق منه ، ويأخذ عنه ، ثم يخرج ما يسرقه في اقبح معرض كخريدة البست عباة ، وعروس جلبيت في مسح ، ولو آتى على افراد سرقاته لا طلت في هذا الباب ، ولكنه عارضني هذا

٠١ افرد الحاتي لبيت احاد ام سداس ثلاث صفحات في الموضحة من

صفحة ٩٨ الى صفحة ١٠٠ .

٠٢ الصاحب ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

المكان (١) بلغة هذا القول عن الحاتمي الذي ادعى على ابي الطيب جهله بالطائيين . وكان ان فصح ادعاءه هذا باجرائه المناقشة معه حول شعري الرجلين في المناظرة الرابعة ، والتي يعود شكنا فيها الى هذا التناقض بين الجهل والمعرفة في شعراي تمام والبحترى . وقلنا وقتها : اما ان يكون الادعاء كاذبا او ان تكون بعض مواد المناظرة الرابعة مصنوعة مضافة بعد ان عاود الحاتمي كتابة " موضحته " ككل .

ومن المبادئ العامة التي ساءه عدم امتثال المتنبي لها : سقوط المعنى ، واستكراه اللفظ ، والتحاقيق ، وسوء الافتتاحات ، والخلط بين المدح والرتاء ، واضاعة التشبيه الصائب والاستعارة الحسنة في الالفاظ القبيحة المستقلة . يقول : وله بيت لا يدرى امدح القائل به ام رثاه وهو :

شَوَائِلُ تَشْوَلُ الْعُقَارِبَ بِالْقَنَا لَهَا مَحٌّ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلٌ

فلم يرض ان سرق من بشار قوله :

وَالْخَيْلُ شَائِلَةٌ لَشَقِّ غُبَارِهَا كَعُقَارِبٍ قَدْ رَفَعَتْ أَذْنَائِبَهَا

حتى ضيع التشبيه الصائب بين الفاظ كالمصائب . . ومن اوابده التي لا يسمع طوال الدهر مثالها قوله في سيف الدولة :

اِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ فَنِي النَّاسِ بَوَقَاتٌ لَهَا وَطُبُولٌ

وهذا التحاقيق منه كتغزل الشيخ قبجا ودلال العجائز سماجة ، ولكن بقي ان يوجد من يسمع . يتلهى صاحب السخرية والتهكم عن ايراد العلل والاسباب ، فيقرر او يصف دون ان يعلل ويحقق . ومن افتتاحاته التي تفتح طريق الكرب ، وتغلق ابواب القلب قوله :

أَرَأَيْكَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هُمَامٌ وَسَخَّ لَهُ رُسُلُ الْمُلُوكِ غَمَامٌ

٠١ صاحب ، ص ٢٤٣ . هذا دليل اخر اعتمدناه على تحقيق اسبقية " الرسالة الموضحة " واعتماد صاحب على بعض موادها واشعارها .

ولولم يتكلم في الشعرا لا من هو من اهله لما سمع مثل هذا - وهذا كثير على ابي الطيب لانه شاعر اولاً واخراً ، وليس كل شعره على هذه الهيئة - ، ولكن الكلام جرى فيه مجرى الكلام في سعد وبلال والخليدية والكثيفية (١) . يسوء صاحب تخطيط المتنبي بالسخف ، والهذيان والاساءة فيكاد يرفضه . ومن مبادئه التي تجمع استكراه الالفاظ وسقوط المعنى قوله :

وَمَا قَطَّرَتْ نَيْيَهُ مِنَ الْبَيْضِ وَالْقَنَا
وَرَفَّمَ الْعَبْدِيُّ هَاطِلَاتُ عَمَامِهِ (٢)

مثل هذا الشعر يستأهل الاساءة والهدم .

والملاحظ ان النقاد العرب بالاجمال قد فصلوا بين معاني الشعراء ومعاني المتصوفين والفلاسفة ، فارتأوا لكل جماعة معانيها وتعابيرها ، ورفضوا منازعة الواحدة الاخرى في بعض ما اختلفت فيه او درجت عليه . فالحاتمي قد نعى على ابي الطيب تعديه كلام الشعراء الى الصوفيين ، وافرد له رسالة خاصة في المعاني الفلسفية . وقد يكون الجرجاني تنبه الى هذا المنحى الفكري في شعرا ابي الطيب قبل ان يكتب الحاتمي رسالته الاخيرة في ذلك . وهذا صاحب يأخذ عليه هذا التناول والاستغلاق فيقول : " ومن شعره الذي يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة الموجودة في طبعه ، بيت رقية العقرب اقرب الى الافهام منه وهو :

نَحْنُ مَنْ ضَائِقُ الزَّمَانُ لَهُ فِي
كَ وَخَانَتُهُ قُرْبِكَ الْيَامِ

٠ ١ . صاحب ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

٠ ٢ . المصدر ذاته ، ص ٢٣٩ .

فأن قوله " له فيك " لواقع في عبارات الجنيد (١) والشبلي (٢) لنازحته المتصوفة دهرًا بعيدًا . . . (٣) " قد يوحى الغموض ويغرى ولكن الاعجاز المفرط قبيح في الشعر " ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل على فساد الحس، وسوء أدب النفس، فما ظنك بمن يخاطب ملك في رزية أمه بقوله :

رَوَّاقُ الْعِزِّ حَوْلَكَ مُسْبِطٌ وَمَلِكُ عَلِيٍّ ابْنِكَ فِي كَمَالٍ

ولعل لفظة الاسبطار في مرثي النساء من الخذلان الصفيف الدقيق المغير . . . ولما ابدع في هذه المرثية واخترع قال :

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِفُنَا حَنُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْنُ بِالْجَمَالِ

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ، ولكنها استعارة حداد في عرس (٤) " لا نعرف له رأيًا في الاستعارة ولكننا نقدر حسن ذوقه فيها من رصدها القبيح في هذا الرثاء ، وفي موضع آخر استطاع ضبطه وكشفه : " ومن استرساله الى الاستعارة التي لا يرضاها عاقل ، ولا يلتفت اليها فاضل قوله :

- ١ الجنيد : هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز صوفي من العلماء بالدين . مولده ومنشأه ووفاته ببغداد . وهو أول من تكلم بعلم التوحيد فيها . وكان الكتبة يحضرون مجلسه لالفاظه والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانيه . توفي سنة ٢٩٢ هـ . (انظر الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٣٧ . وابن خلكان ، ج ١ ، ص ١١٧)
- ٢ الشبلي : هو دلف بن جحدر ، ولد بسر من رأى سنة ٢٤٧ هـ وتوفي ببغداد سنة ٣٣٤ هـ . اصله من خراسان ، ترك الولاية وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح . وله شعر سلك به مسالك المتصوفة . (انظر تاريخ بغداد ، ج ١٤ ، ص ٣٨٩ . وابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٨)
- ٣ صاحب ، ص ٢٣١ - ٢٤٢ .
- ٤ المصدر ذاته ، ص ٢٣٢ .

في الخَدَّ أَنْ عَزَمَ الخَلِيطُ رَحِيلاً مطرّز يد به الخدودُ مُحَوِّلاً
فالمحول من الخدود من البديع المردود ، ثم لهذا الابتداء في القصيدة من
العيوب ما يضيق الصدور ^(١) فعدم المقاربة والمواقعة ، بشأن قبورها عنده
ورفضها . وهي غير ساقطة برأينا في هذا البيت .
أما الجديد الذي أخذه عليه وقد لاحظ به حسه الخاص ، تفاوت طبعه
في البيت الواحد ، واستعماله "لذا" و "الذي" في شعره ، وبعض الهنات
العروضية واللغوية ، وتركيزه على بعض الصفات — صفات الحرب مثلا — في
نظمه ، وكل هذا داخل في مساوئه وسقطاته .
" . . . " وأول حديث المتنبي أن لا دليل أدل على تفاوت الطبع من
جمع الاحسان والاساءة في بيت كقوله : "بليت بلى الاطلاع أن لم أف بها" .
وهذا كلام مستقيم لو لم يعاقبه ويعقبه بقوله : "وقف شحيح ضاع في الترب
خاتمه" ، فإن الكلام إذا استشف جيداً ووسطه ورديته كان هذا الكلام من أرذل
ما يقع لصبيان الشعراء وولدان الأدباء ، وأعجب من هذا هجومه على باب قد
تداولته الالسنه ، وتناولته القرائح ، واعتورته الطباع بأساءة لا اساءة بعدها .
سقوط لفظ وتهافت معنى . فليت شعري ، ما الذي أعجبه من هذا النظم ،
وراقه من هذا السبك لولا اضطراب في النقد وأعجاب في النفس ؟ . . (٢) .
وجاء في البديعي على لسان أبي بكر الخوارزمي أن أبا الطيب إنما أعرب عن
طريقته وعادته في البخل ودناءة النفس في هذا البيت (٣) . والمتنبي ليس
بحاجة أن يبلى بلى الاطلاع طالما أنه لم يقف بها ، ولكنها طريقته في استلهاهم

-
- ١ . صاحب ، ص ٢٤٠ .
 - ٢ . المصدر ذاته ، ص ٢٣١ .
 - ٣ . البديعي ، ص ٩٣ . واستدل أيضا على اسرافه في البخل في هذا
البيت على لسان المعري ، البديعي ، ص ٧٢ .

القديم وبعثه بصياغة القرن الرابع التي اعتمدت في شعره الفخم ، معظم الاحيان .
 " ومن مدحه ببعد الغور — وقد غار فيه لعمري وما انجد — قوله :
 تتقاصراً الأفهام عن أدراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدُّنا
 فالمصراعان يتبرأ أحدهما من صاحبه تبرأً (فراغ في الاصل) من
 آل ابي سفيان وآل مروان ، ثم الدنا من الالفاظ التي لا يبالي الانسان ان
 يعدمها من شعره . ومن شعره الذي يدخل في العزائم ، ويكتب في الطلسمات
 قوله :

لَمْ تَرَمَنْ نَادَمْتُ أَلَا كَأَنَّ لَا لِسَوَى وَدَّكَ لِي ذَاكَ

واحسب انه بهذا البيت اشد سرورا من ام الواحد يواحد ها وقد آب بعد فقد
 او بشرت به عقب ثكل (١) . لو كان يحمل على غموضه كبير معنى لهان الامر .
 " وكان الرجل محريا ، فقال في وصف الحروب ، وما تنتج من رغب القلوب ، قوله :
 فَعَدَا اسِيرًا قَدْ بَلَّلَتْ ثِيَابَهُ بِدَمٍ وَبِلَّ بَبُولِهِ الْأَفْخَاذَا
 فَكَأَنَّهُ حَسِبَ الْأَسِنَّةَ حُلُوةً أَوْ ظَنَّنَهَا الْبَرْئِيَّ وَالْأَزَادَا
 فلا ادري اكان في حومة الحرب ام في سوق التمارين بالبصرة ؟ (٢) . وقف
 الحاتي في هذين البيتين عند القافية القلقة ، المجتذبة ، المعلولة الغير
 مقبولة (٣) وهذه اثار الموضحة تبتدى في رسالة صاحب ولكن بشكل اخر ،
 كي لا يقال اغار على رسالة الرجل .

" . . . ولا يزال يركب القواني الصعبة ثقة بالقريحة السمحة ،

فيمتدئ زائية بقوله :

كُفِرَ نَدِي فِرْنِدُ سِفِي الْجَرَارِ لَذَّةُ الْعَيْنِ عُدَّةٌ لِلْبِرَارِ

- | | |
|---|------------------------|
| ١ | الصاحب ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ . |
| ٢ | المصدر ذاته ، ص ٢٤٤ . |
| ٣ | الموضحة ، ص ٤٢ . |

حتى امتد به النفس فقال :

تَقْضُمُ الْجَمْرَ وَالْحَدِيدَ الْإِعَادَى دُونَهُ قَضُمُ سُكَّرِ الْأَهْوَاِ

- وهذا السكر اذا جمع الى البرني والازان فيما تقدم من شعره تم الامر (١) .
 • حرى بهذا النظم ان ينسب الى عصور الانحطاط وليس الى شاعر كبير كأبي الطيب .
 • ومن مخازيه التي خلقها خلقا متفاوتا تخفيفه الغاش ، وهذا ما لا اعلم سامعا
 باسم الادب يسوغه ، او يسمح فيه فيجوزه ، وذلك في قوله :

كَأَنَّكَ نَاطِرٌ فِي كُلِّ قَلْبٍ فَمَا يَخْفَى عَلَيْكَ مُحَلُّ غَاشٍ

- فان جاز هذا جازان يقال عباس بن عبد المطلب ، الشماخ بن ضرار ، ولا
 تشدد الباء ولا الميم ، على ان ما اورده اشنع من هذا الذي مثلنا به ، ان كان
 لفظ فاعل يني على فاعل مشددا (٢) . • لم ينتبه الحاتمي الى مثل هذه السقطات
 لاهتمامه بالسرقا . وفي هذه القصيدة سقطة عظيمة لا يفتن لها الا من جمع
 في علم وزن الشعر بين العروض والذوق — كرميله الحاتمي يحب الادعاء والغرور
 وتعظيم النفس — وهو قوله :

تَفَكَّرُهُ عِلْمٌ وَمَنْطِقُهُ حَكْمٌ وَبَاطِنُهُ دِينٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفٌ

- وذلك ان سبيل العروض الطويل ان تقع مفاعلن ، وليس يجوز ان تأتي مفاعيلن الا
 اذا كان البيت مصرعا ، اللهم الا ان يضع عروضا لتمام الدائرة ، فهذه العروض قد
 ألزمت القبض لعل ليس هذا موضع ذكرها . ونحن نحاكمه الى كل شعر للقدماء
 والمحدثين فما نجد له على خطئه مساغا ، ومنها بيت قد حشا تضاعفه بالضعف
 وهو :

وَلَا الضَّعْفَ حَتَّى يَتَّبِعَ الضَّعْفَ ضَعْفُهُ وَلَا ضِعْفَ ضَعْفِ الضَّعْفِ بَلْ مِثْلُهُ أَلْفٌ

٠ ١ . صاحب ، ص ٢٤٨ .

٠ ٢ . المصدر ذاته ، ص ٢٤٨ .

وهؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم ان ينقش هذا البيت على صدر الكعبة ،
وينادى في الناس : قعوا له ساجدين (١) . ليس هذا البيت من الشعر بشي ، فلا
حرج عليه لو كان اسقطه من شعره . وله وقد غاص فأخرج جندلة قوله :
لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذِي مَنَّكَ هُوَ عَقَمْتُ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءُ
وانا اقول : ليت حواء عقت ولم تأت بمثله ، بل ليت ادم اجفر ولم يكن من
نسله (٢) .

واكثر من عابه على استعمال " ذا " الضعيفة في صنعة الشعر الدالة
على التكلف ، الجرجاني في الوساطة ، وستعرض لذلك في حينه .
اما سرقاته ، على ندرة ما اورد له منها ، فقد ردها الى بشار وابي تمام
والخليل بن احمد والشاعر الطائي وشعر قديم . وكان التفاته اليها عرضا لوضوح
الشبه وامكان الاخذ او حصوله ، يقول : وعهدت الادباء ، وعندهم ابا تمام قد افترط
في قوله :

شَابَ رَأْسِي وَمَا رَأَيْتُ مَشِيبَ الدِّ
رَأْسِ إِلَّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الْفَوَادِ
نعمد هذا الى المعنى فأخذه ، ونقل الشيب الى الكبد ، وجعل له خضابا ونصولا ،
فقال :

أَلَّا يَشِيبَ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ شَيْبًا إِذَا خَضِبَتْهُ سَلَوَةٌ نَصَلًا (٣)
وقد كنت اسمع رواية المولى للخليل بن احمد :
لَكِنْ جَهَلْتُ مَقَالَتِي فَعَدَلْتُني وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَدَلْتُكَ
فاقتفاه شاعرنا هذا ، وعبر في قفاه ، فقال :
وَمِنْ جَاهِلٍ بِي وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلُهُ وَيَجْهَلُ عَلَيَّ أَنَّهُ بِي جَاهِلٌ (٤)

- | | |
|----|---|
| ٠١ | الصاحب ، ص ٢٤٥ . الحاتمي رأى في هذا البيت . . |
| ٠٢ | المصدر ذاته ، ص ٢٤٦ |
| ٠٣ | المصدر ذاته ، ص ٢٤٤ |
| ٠٤ | المصدر ذاته ، ص ٢٤٧ . |

كاد الحاتي في البيئة العراقية ، ان يقف على معظم سرقات ابي الطيب او ما ظنه كذلك ، فاستدرك صاحب هذا ، ولعله ارتأى ذلك الرأي في السرقات لشعوره بعقم البحث فيها ان هو عاود ما اتاه صاحب "الموضحة" ، اولقلة صبره في الالتفات الى هذا القديم لاستقصاء الاصول — عدا ما يتطلبه ذلك من موروث شعري ضخم وجهد ثقافي ممل — ، ولن يأتي بالكثير ، ان هو فعل ، وقد رأينا هذا القليل العادي الذي جاءه ، بعد ان افاض فيها ابو علي وتعمق . . وهكذا تعدى صاحب موضوع السرقات ، غالبا ، الى المساوي الفنية الاخرى ، فأجاد ، وحقق له الذوق براءة نقدية ، على جزئية البحث وقصور التعليل ، في الغوص على السيئة وعرضها والحكم عليها ، بالاسلوب الشيق والسخرية اللطيفة ، والتهكم اللاذع . . "ومع ذلك فان صاحب كما رأينا لم يقل ان شعر المتنبي ساقط كله ، او مرذول اكثره ، بل ان صاحب كما رأينا يمجّد المتنبي ويصفه بأنه "بعيد المرمى ويصف شعره بأنه "كثير الاصابة في نظمه" . . وكل ما ذكره سقطات معدودة ، وهفوات في بعض ابياته ، وهي تغفر في هذا الخضم من الشعر الكثير الغزير الذي جمعه ديوانه الحافل (١) . . ومسألة النكوت عن الخطأ الكثيف احيانا لا تليق بالنقد ، كما لا تليق بالشعر والشعراء . . ويأبى الدكتور طبانة الا ان يعزو مباشرة صاحب كشف سيئات المتنبي الى انصار الشاعر الذين استفزوه وتحذوه ان يضع ذلك في رسالة ، فكان ما كان (٢) . . وهذا اعتبار نسبي ، كما قد لا يعد وكونه ستارا خفيفا او تخيلا قصصيا مليحا اراده الناقد ليحول دون اتهامه بالتجني والافتراء على الشاعر الكبير . . ومع ذلك فقد امت هذه الرسالة بأكثر النواحي التي ينظر اليها في العمل الادبي والشعري خاصة ، "فقد تناولت اللفظ وقيمه ، كما تناولت التركيب كله ، وعالجت الفكرة والمعنى ، وعالجت جو العمل الادبي وظروفه

١ . طبانة ، صاحب بن عباد ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٢٢٨ . ويورد سببا اخر هو سخط صاحب عليه حين رفض الالتحاق به والرد على جوابه ومدحه .

• • • ولقد اعتمد صاحب في نقده على ثقافته اللغوية والادبية ، وعلى ذوقه الفني الناضج في اكثر ما عاب به ابا الطيب (١) . " واذا استبعدنا ، مؤقتا ، ظروف الناقد الخاصة ، والوجهة الادبية التي ارتضاها صاحب ، وطبيعة الجو — النقدي في تلك البيئة ان ذاك ، فأنا لا نلاحظ فنيا اي اثر للتحامل الارادي او التحمل المتكلف ، سوى الانفعال السريع الذي يولده الخطأ الفني الكبير — والسقطات الشعرية المعيبة عند الناقد المخلص لفنه وعمله ، خاصة اذا كانت مثل هذه السقطات صادرة عن شاعر كبير كأبي الطيب . وقد اكدت الشواهد التي اثبتتها صاحب للشاعر صحة ما ادعاه كناقد ، وأشارت الى ضعف وسوء ما اتاه المتنبي كشاعر .

اما اثر الحاتي "وموضحته" فقد استطعنا تلمسه في قرابة العمل النقدي وطبيعة تناوله ، وفي اتكاء صاحب على بعض ما بلغه من مناظرات "الموضحة" — مشكلة الطائيين والتفاوت في النظم والوقوف عند بعض القضايا والابيات الشعرية المتفقة ، مثلا — وفي امتداد هذا الخط النقدي المعادي للشاعر في هذه البيئة بالذات . حتى اننا نلمح قرابة العملين — وتأثر المتأخر بالمتقدم — في التعليق الساخر احيانا ، وفي التلهي عن التعليل الواجب احيانا اخرى . هذا عدا عن التركيز المطلق — على الاقل من ناحية اسلوبية — على السقطة الشعرية ، التي تتفق للاثنتين معا بعض المرات ، ينتشلانها من شعره الغزير لتأكيد خطأها وسوءاتها ، دون الوقوف عند احسان الشاعر الغالب ، والذي لا يمكن التغاضي عنه او الغض منه . وبرغم ان رسالة ابن عباد اقتصرت على كشف سيئات المتنبي ونقد الرديء الساقط في شعره — وقد كان بوسعه

ان يجعلها رسالة عامة في النقد تتميز بموقف ادبي محدد وبنظرة اشمل وادق .
فقد مكنت الحركة النقدية العامة في النصف الثاني من القرن الرابع ، بتكثيفها
هذا النقد الذى دار حول شعراي الطيب ، وبعد وتقوية ردة الفعل ، التي
افترضها الخط الموالي للشاعر ، بزخم ادبي ميز نقد البيئة العراقية بهذا اللون
المعادى ، وتردد صدهاء في البيئة المصرية كذلك . ليكون النقد الذى استثاره
هذا الشعر الطابع المميز لحركة النقد في تلك الفترة ، والذى فرض نشوء الوساطة *
احدى اكبر كتب النقد العربي واقومها في التاريخ الادبي القديم . وقد كان
الجرجاني من اصحاب ابن عباد وحاصدى نعمته وفضله (١) فأفاد منه واستزاد
ولما الف صاحب رسالته تلك عمد الجرجاني الى تأليف " وساطته " ، كما يزعم
الادباء المؤرخون ، فأحسن وابدع ، واطال واطاب ، واصاب شاكلة الصواب (٢) .
ويكفي رسالة صاحب فضلا ان تكون ، من ناحية ، حافزا لنشوء
الوساطة — في حال صحة الرواية — لتميز اثرها في هذه الحركة العامة التي
بسطت اصولها على النقد اللاحق ، فاعتنى وتكثف . ولا يخفى ما لرسالة الجرجاني
من فضل في تركيز النقد العربي — ونقد المتنبي خاصة — وتقييمه واستقلاله ،
وطواعيته للمنهج الاسلوبي الموضوعي الاصيل . فهي رسالة في النقد المذهبي
الاصولي الذى يعتمد الى الكشف والعرض والتعليل ، فالتوسط والحكم ، ان حدث ،
فلا ينفرد الذوق لهوى او لميل مع ظروف ، اية ظروف .

٠١ . اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٣٢ . الثعالبي يقول ان الجرجاني الف كتابه
بعد ما عمل صاحب رسالته في ابي الطيب .

٠٢ . المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ .

القاضي الجرجاني صاحب "الوساطة" (٢٩٠ - ؟) (١) :

ولد ابو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني المشهور بالقاضي في جرجان سنة ٢٩٠ هـ ونشأ بها . تولى قضاء الرى في ايام صاحب بن عباد ومات بها وهو قاضي القضاة . طوف في صباه البلاد وخالط العباد واقتبس العلوم والاداب ولقي مشايخ وقته وعلماء عصره . اشتهر بالفقه وترجم له الشيرازي في طبقات الفقهاء ، وفسر القرآن وذكره السيوطي في طبقات المفسرين ، واشتغل بالتاريخ وله فيه اثار ، ثم هو شاعر متقن وله ديوان شعر ذكره ابن خلكان واورد ياقوت والتهالبي طائفة كبيرة منه . وهو كاتب مترسل وناقد كبير وله رسائل مدونة . ذكر له ياقوت عدة تصانيف منها : كتاب " تفسير القرآن " ، كتاب " تهذيب التاريخ " وكتاب " الوساطة بين المتنبي وخصومه " . قرأ عليه واغترف من بحره الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، وكان يفخر بذلك ويشعخ بأ نفعه بالانتماء اليه . قال فيه صاحب اليتيمة . . حسنة جرجان وفرد الزمان ونادرة الفلك وانسان حذقة العلم ودرة تاج الادب وفارس عسكر الشعر . . اقتبس من انواع العلوم والاداب ما صار به في العلوم علما وفي الكلام عالما ، ثم عرج على حضرة صاحب والقي بها عصا المسافر فاشتد اختصاصه به وحل منه محلا بعيدا في رفعتة ، قريبا في اسرته ، وسيرفيه قصائد اخلصت عن قصد . . وتقلد قضاء جرجان من يده . . ولما عمل صاحب رسالته المعروفة في اظهار مساوى المتنبي ، عمل القاضي ابو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره

- ١ . يذكر ابن خلكان انه مات سنة ٣٦٦ هـ عن ٧٦ عاما . وجاء في معجم الادباء لياقوت انه مات سنة ٣٩٢ هـ وهو قاضي القضاة بالرى حينئذ . وكلاهما مخطي ، كما نعتقد . انظر بشأن هذه المعلومات : اليتيمة للتهالبي ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ . معجم الادباء ، لياقوت ، ج ١٤ ، ص ١٤ - ٣٥ . ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٠٨ . وكتاب " الوساطة بين المتنبي وخصومه " تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوى .

فأحسن وابدع ، واطال ، واصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الامد في فصل
الخطاب ، واعرب عن تبحره في الادب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ
وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح وطار في البلاد بغير جناح . وقال فيه
بعض العصريين من اهل نيسابور :

أَيَا قَاضِيَا قَدْ دَنَتْ كُتُبُهُ وَأَنْ أَصْبَحَتْ دَارُهُ شَاخِطَهُ
كِتَابُ الْوَسَاطَةِ فِي حُسْنِهِ لِعَقْدِ مَعَالِيكَ وَأَسْطِهِ

يبقى ان وجود الجرجاني ضمن هذه الحركة الثقافية الشاملة في القرن
الرابع ، والتي تميزت بالنضج العلمي والوعي الادبي ، ورحلة الجرجاني نفسه في
سبيل الدرس والتحصيل ، والاقتباس القيم عن مشايخ العلم وعلماء العصر ، على
عبقريّة خاصة وتمرس بالقضاء جليل ، والكثير غير ذلك . هو الذي اكسب الوساطة
هذه الصفة النقدية الرائعة ، وافرد لها تلك الجدارة الحكيمة في تراثنا
النقدي ، على اصولية منتظمة وتفرد منهجي شامل . ولعل في دراستنا النقدية
لفصول " الوساطة " ما يوضح هذه الثقافة وذلك الخط النقدي الاصيل .

٤ - "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجرجاني :

... ورأيت السلامة في ان اقتصر من هذه (الوساطة) على حسن التبليغ ، وحسن التأدية ، وتقريب العبارة ، وجمع المتفرق ، ثم اقف منكما حجة واخرج عنكما صفرا ، قد اديت عن كل فريق ما تحملته ، وسلمت من الميل فيما تكلفته . وكما لا احكم على خصمك بالخطأ في كل ما يذكره ، فكذلك لا ابعدك من الصواب في اكثر ما تصفه . . . وقد قدما لك في صدر هذه الرسالة من شعر ابي نواس وابي تمام وغيرهما ما مهدنا به الطريق الى هذا القول ، واقمناه علما يرجع اليه في هذا الحكم ، واعلمناك انه ليس بغيتنا الشهادة لابي الطيب بالعصمة ، ولا مرادنا ان نبرئه من مفارقة زلة ، وان غايتنا فيما قصدناه ان نلحقه بأهل طبقة ، ولا نقصر به عن رتبته ، وان نجعله رجلا من فحول الشعراء ، ونمنعك عن احباط حسناته بسيئاته ، ولا نسوغ لك التحامل على تقدمه في الاكثر بتقصيره في الاقل ، والغض من عام تبريزه بخاص تعذيره . . . (١) . وبهذا التبليغ الواضح والقصد المعتدل ينفرد نقد "الوساطة" بموضوعية حاسمة ، وغائية متزنة مركزة ، فلا يقصر الشاعر عن رتبته ، ولا الناقد عن بغيته ، ولا رجل المتنبي عن حسنات شاعره ، ولا خصمه عن عديد سيئاته . ويكون " للوساطة " ذلك البعد النقدي الجديد الذي ركز الوسط المحايد امام تنازع اصحاب الفعل والردة حول الشعر الواحد . والذي شهد صاحبه بالحق فما ادعاه . يقول الواحدى : " . . . اما القاضي ابو الحسن فإنه ادعى التوسط بين صاغية المتنبي ومحبيه ، وبين المناصبين له ممن يعاديه . . . فتوسط بين الخصمين وذكر الحق بين القولين . . . (٢) " . وسنرى كيف ان روح القضاء افتعلت في

١ . الوساطة ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

٢ . الواحدى ، شرح ديوان ابي الطيب المتنبي ، ص ٤ .

في أسلوب الجرجاني وروحه النقدي فما راو غولا جامل .
فقد وجد الجرجاني نفسه ادبيا امام اختيارين : كلاهما متطرف سلبا او
ايجابا ، فحاد عنهما الى ارادته ليختار ما يلائم طبعه وطبيعته ، متجاوزا كل
افراط وغلو في الميل او في الحقد . فالناس في ابي الطيب المتنبي فئتان :
” من مطلب في تقرظه ، منقطع اليه بجملته ، منحط في هواه بلسانه وقلبه ،
يلتقي مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب
ويعيد ويكرر ويميل على من عابه بالنزاية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار
والتجهيل ، فان عثر على بيت مختل النظام او نبه على لفظ ناقص عن التمام
التم من نصره خطئه وتحسين زلله ما يزيله عن موقف المعتذر ويتجاوز به مقام
المنتصر . وعائب يروم ازالته عن رتبته فلم يسلم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة
بواه اياها اذ به ، فهو يجتهد في اخفاء فضائله ، واطهار معانيه ، وتتبع سقطاته
واذاعة غفلاته . وكلا الفريقين اما ظالم له او للادب منه (١) ” . ذلك لان
الخصومة حول المتنبي ليست خصومة حول مذهب ادبي معين : كالصراع بين
القديم والحديث او محاولات التجديد مثلا ، انما حول شعر وشاعر واحد .
الشعر الذي فرض نفسه على الادب والناس ، والشاعر الذي رافقت حياته ظروف
معينة حددت دور هذا الشعر ودور صاحبه فكان لا بد للناس والادباء من ان
يقفوا حيالها موقفا مميزا . وكان ان انقسم هؤلاء الى فريقين ، بشكل نزاع
ادبي تطرف فلم يسلم من السقطات ، عدا بعض الظروف والحالات التي اتملت
في تحديد وتوجيه هذا الصراع ذاته ، مما افترض نشوء هذا الوسط المحايد
الذي سيعرض ويتثبت فيحكم . وقد رأى بلاشير ان الاسباب الحقيقية لهذه
الخصومة ” هي الميول الشخصية ، والاثرا الذي ينتج من تقويم كل بيت وحده

لا في قصيدته ، والتضميم على الا يسامح المتنبي فيما سوح فيه غيره ، والقسوة المتناهية التي حكم بها على مبالغات الشاعر في المدح (١) . وهذا قد لاحظته الجرجاني نفسه كذلك . اذن كان على هذا الوسط — الذي يمثل الجرجاني — ان يعتدل ويمعن في الدقة والتحفظ كي لا يزل او يحدد . ولذا اختار له القاضي ابو الحسن نظاما واضحا وطريقة ادبية محددة شملت مفهومه الشعري ومذهبه النقدي ، وانطلق من كل ذلك الى تحرى الحق والانصاف بين الفريقين وبينه وبين الادب ذاته . وقبل ان يتعرض لناقد المتنبي = وهو مجموعة نقاد من ضمنهم الجرجاني نفسه كما سنرى = تعرض لمذهبه الادبي عامة ، ووضح نسق الكتاب فاعترف لك بما عناء وهدف اليه . ثم اعود الى نسق الكتاب واكتفي بما قدمته من هفوات ابي تمام ، وان كان ما اغفلته اضعاف ما اثبتته ، اذ البغية فيه الاعتذار لابي الطيب لا النعي على ابي تمام . وانما خصصت ابا نواس و ابا تمام لاجمع لك بين سيدي المطبوعين واما مي اهل الصنعة ، واريك ان فضلها لم يحكما من زلل واحسانهما لم يصف من كدر (٢) وان يعتذر الناقد لسيئات الشاعر باستعراض السيئات لآخر ، وكلاهما كبير في صناعة الشعر ، نمط جديد في النقد ، ونوع اخر من الدفاع المبطن والميل الخفي الى الشاعر المعتذر له . وهذا قد يغيد النقد في فترة كان الاعتقاد فيها ان القديم لم يترك للمحدث شيئا ، وان المعاني قد استنفدت ، فما بال المحدثين يحومون حولها ، ويعطفونها من جديد ، وان ابا تمام و ابا نواس سيدي المطبوعين ، واهل الصنعة قد جمعا كل احسان ، وغاب عن شعرهما كل زلل وسقوط . اما النقد كعمل ادبي موضوعي فلن ينفعه كثيرا دفاع الجرجاني عن ابي الطيب والاعتذار له

٠ ١ بلاشير ، ص ١٤ .

٠ ٢ الوساطة ، ص ٨٢ .

بشعرايبي تمام ، وقد اشترط على نفسه " انه يحظر الا اتباع الحق وتحري العدل والحكم به لي او علي " . (١) . " . ولسنا نغض من مقدرة الجرجاني النقدية ولكننا ننعي عليه موقتا طريقته هذه . فهو قد ادعى التوسط ووفق الى ذلك ، وارفق دفاعه عن الشاعر بالنظر في معاييه وسرقاته وسقطاته ، وواجه تحامل النقاد عليه بتحد صريح واثق ، ولكنه في كل ذلك ، على انفعاله وجدته ، لم يتعد ذوقه الذي طبع على حب مثل هذا الشعر والميل اليه . فأبو الحسن كالامدى يفضل الطبع في الشعر ولكنه لا يندفع اليه بهوس المتعصب المشغول .

" فأن قلت : كثر زلله وقل احسانه واتسعت معاييه وضائق محاسنه . قلنا : هذا ديوانه حاضرا وشعره موجودا ممكنا ، هلم نستقرئه ونتصفحه ، ونقلبه ونمتحنه ، ثم لك بكل سيئة عشر حسنات ، وبكل نقيصة عشر فضائل ، فاذا اكملنا لك ذلك واستوفيته ، وقادك الاضطرار الى القبول او البهت ، ووقفت بين التسليم والعناد عدنا بك الى بقية شعره فحاججناك به ، والى ما فضل بعد المقاصة فحاكمناك اليه (٢) . " وهذا قد يصدر عن قاض يتوسط فينشد العدل ، او عن محب للشاعر يهوى الدفاع عنه والتسليم اليه . " وانا ارى لك اذا كنت متوخيا للعدل ، مؤثرا للانصاف ان تقسم شعره ، فتجعله في الصدر الاول تابعا لابي تمام ، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم . (٣) . " والبحتري يقع في الطرف الاخر اذا عدلت الى الطبع والدمائة . واساس هذا الالتفات الدائم الى الشعراء النماذج هو ايمان معظم الادباء والناس بالقديم ، او بالمدى الذي نظم فأتحف ، وكاد يقع على كل شيء . الا ان ابا الحسن شاء تبديد هذا الظن فعرض

- | | |
|-----|----------------------|
| ٠ ١ | الصاحب ، ص ٢٠ . |
| ٠ ٢ | الوساطة ، ص ٥٣ . |
| ٠ ٣ | المصدر ذاته ، ص ٥٠ . |

للقديم ، ونجح مرتين : في كشف الواقع الادبي ، وفي تبرير مذهبه النقدي الجديد
 كوساطة . يقول : ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية فانظر هل تجد
 فيها قصيدة تسلم من بيت او اكثر لا يمكن لعائب القدح فيه ، اما في لفظه ونظمه
 او ترتيبه وتقسيمه او معناه او اعرابه . ولولا ان اهل الجاهلية جدوا بالتقدم ،
 واعتقد الناس فيهم انهم القدوة والاعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من اشعارهم معيبة
 مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم
 ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج
 لهم كل مقام (١) . وي لا يتهم في الحديث المطبوع يستدرك ما يظن فيثبت
 ما عناء : وليس يجب اذا رأيتني امدح محدثا او اذكر محاسن حضري ان تظن بي
 الانحراف عن متقدم او تنسبني الى الغضب من بدوى ، بل يجب ان تنظر مغزى
 فيه وان تكشف عن مقصدى منه ، ثم تحكم علي حكم المنصف المثبت وتقضي قضاء
 المقسط المتوقف . (٢) . وسيتردد هذا الروح القضائي المعتدل في اختيار
 الوسط ، والوقوف عليه في معالجة الشعر والمفهوم الادبي السائد على السواء .
 مفهومه للشعر :

انا اقول ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكا ،
 ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من اسبابه ، فمن اجتمعت له هذه
 الخصال فهو المحسن المبرز ، ويقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان ، ولست
 افضل في هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلي والمخضرم ، والاعرابي
 والمولد ، الا انني ارى حاجة المحدث الى الرواية احس ، واجده الى كثرة
 الحفظ افقر ، فاذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها ان

١ . الوساطة ، ص ٤ .
 ٢ . المصدر ذاته ، ص ١٥ .

المطبوع الذي لا يمكنه تناول الفاظ العرب الا رواية ، ولا طريق للرواية الا السمع ، وملاك الرواية الحفظ ، وقد كانت العرب تروى وتحفظ ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض (١) . اما سبب تقدم الاولين واختصاصهم بمتانة الكلام ، وجزالة المنطق ، وفخامة الشعر ، رغم ان المحدثين يعلمون اللغة ويروون غريبها ، فعائد برأيه الى ان العرب ومن تبعها من السلف كانت "تجربى على عادة في تضخيم اللفظ وجمال المنطق لم تألف غيره ، ولا انسها سواء ، وكان الشعراء اقسام منطقها ، ومن حقها ان يختص بفضل تهذيب ، ويفرد بزيادة عناية ، فاذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة ، وانضاف اليها العمل والصناعة خرج كما تراه فخما جزلا قويا متينا . (٢) . ولا يمكن ان يكون هذا التعميم شاملا لان الشعر يختلف باختلاف الطبائع . وقد تنبه الجرجاني الى ذلك ، كما فعل الجمحي وابن قتيبة قبله ، فلاحظ تباين الاحوال الشعرية في القوم الواحد ، اذ يرق شعر احد هم ويصلب شعرا لآخر . ويسهل لفظ هذا ويتوعر منطق ذلك " وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . (٣) .

والتصنع بعيد عن النفس ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق . هذا عدا تأثير البيئة في تطويع الشعر وطبعه وتلوينه بطبيعتها المميزة ، ومناخها الثقافي الخاص واتصالها الادبي المنفرد .

مذهبه النقدي في "الوساطة" :

الى هنا يكاد الجرجاني يؤرخ ويستوحي ما تعهد به الامدى في

- | | |
|----|-----------------------|
| ١٠ | الوساطة ، ص ١٥ - ١٦ . |
| ١١ | المصدر ذاته ، ص ١٧ . |
| ١٢ | المصدر ذاته ، ص ١٨ . |

" الموازنة " . لكنه سيفرد لنفسه اسلوبا خاصا ومفهوما واضحا حين يقع على اختياره الشعري ، يقول : ومتى سمعتني اختار للمحدث هذا الاختيار وابعثه على الطبع واحسن له التسهيل فلا تظن اني اريد بالسميح السهل الضعيف الركيك ، ولا باللطيف الرشيق الخنث الموءنث ، بل اريد النمط الاوسط ، ما ارتفع عن الساقط السوقي وانحط عن البدوي الوحشي . ولا آمرك باجراء انواع الشعر كله مجرى واحدا ، ولا ان تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل ارى لك ان تقسم الالفاظ على رتب المعاني ، فلا يكون غزلك كافتخارك . ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاءك كاستبطائك . . . بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه ^(١) . وهذا التفات ذكي وواقعي الى طبيعة الشعر العربي واغراضه وموضوعاته ، وليس لنا ان نحقر هذا الاعتقاد ، طالما ان الشعراء والنقاد لزموا مفهوما شعريا واضحا يكاد يتفق للجميع ، فلا يتعدى عمود القصيدة او عمود الشعر او وحدة البيت او وحدة الغرض الى القصيدة كوحدة موضوعية ، او كوحدة عضوية حية تتفاعل فتلتحم . وهكذا ارتأى الجرجاني ان يقسم الالفاظ على رتب المعاني ويوفي كلا حقه ، فلا يحيد الشاعر عن منطق النظم او النظم المنطقي . ولذلك ترى ان العقل يتدخل فيحول الشعر عن التعبير او الخلق الى النظم والتقسيم . ويكون للعسكري في " الصناعتين " ان ينفرد بمفهوم بلاغي متصنع يعرض للشعر على اساس التقييش والتجميع ، ويكون الجرجاني برأى مندور بداية تحول النقد الى بلاغة ومقدمة مفيدة للعسكري في صناعته تلك . يقول مندور : والذي نحرص على ايضاحه هو ان صاحب الوساطة - مع صدق ذوقه وسداد احكامه - قد مهد السبيل الى تحول النقد الى بلاغة ، وذلك لانه لم يعتمد على النقد الموضوعي قدر اعتماده على المبادئ العامة التي حاول ان يستخلصها او

ان ينميها ان كان قد سبق اليها . ثم ان الروح التعليمية قد اخذت تظهر في كتابه . . . (١) . على ان هذا لا يتعارض مع مفهوم الجرجاني للشعر المطبوع وميله اليه ، لان الذوق كان المرجع النهائي له في احكامه ، والذوق العربي خاصة لانه لم يتأثر بالفلسفة اليونانية كزميليه قدامة والامدى مثلاً . ثم ان الرأى الاخير في مشكلة الطبع والتصنع ، والقديم والحديث ، شكلها ذوقه هذا ، وطبيعته المعتدلة ، وروحه القضائية ، وارادته التي فرضت عليه الوساطة ، يقول : " ودعني من قولك " هل زاد على كذا " ، " هل قال الا ما قاله فلان " فان روعة اللفظ تسبق بك الى الحكم ، وانما تفضي الى المعنى عند التفتيش والكشف . وملاك الامر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست اعني بهذا كل طبع ، بل المذهب الذى قد صقله الادب وشحذته الرواية وجلته الفطنة ، والههم الفصل بين الردى والجيد وتصور امثلة الحسن والقبح . . (٢) . ومثل هذا الطبع يستطيع الحكم ، والانطلاق الى شعراي الطيب يفصل بين رديئه وجيده ، ويميز حسنه من قبيحه ، ويقف على نقد محبيه ومبغضيه يستوضح الخصومة ، ويرى رأيه ، ثم يثبت فيحكم ، او يتوسط فيعدل .

على من يرد الجرجاني في " الوساطة " ومن يخاطب :
يقول بلاشير مستندا الى الثعالبي كما يظهر : " وكان القاضي الجرجاني الحائز لفضيلة السبق : فلكي يرد على ابن عباد الف كتابا سماه : الوساطة بين المتنبي وخصومه " ، حيث اراد ان يؤيد ما هو صحيح من الهجمات التي وجهت الى الشاعر ، ويبين ايضا ما يستحقه بجدارة من مدح المعجبين به (٣) .

- | | |
|-----|----------------------|
| ١ . | مندور ، ص ٢٦١ . |
| ٢ . | الوساطة ، ص ٢٥ . |
| ٣ . | بلاشير ، ص ١١ — ١٢ . |

وهذا كثير على الواقع النقدي الذي التزمه صاحب الوساطة . فهو لم يؤلف الكتاب ردا على رسالة صاحب ، ولم تكن غايته الاولى او الاخيرة تأييد " ما هو صحيح من الهجمات " ولا تركيز ما استحقه " من مدح المعجبين به " . وقد يكون انه استوحى صاحب كما استوحى صاحب " الموضحة " او دفع الى مضايق النقد بعد ان غض هذان الناقدان من شعر الرجل الذي لا يخلو من حسن كثير ، ولكن الظاهر المنطقي ابعد من هذا الوحي الخارجي . انها وجود الجرجاني نفسه لا غيره ، في خضم هذه الحركة ، وضرورة وجوده كوسط عند تنازع الطرفين . دفعه الى " الوساطة " ضرورة انتهاء الفعل وردة الفعل الى الوسط المعتدل ، وهذا منطق الحركة الوحيد الذي كيف نقد هذا القرن وطبعه بطابعه الفريد . ناقد المتنبي الذي يلومه صاحب الوساطة ليس صاحب ابن عباد وحده ، ولا الحاتمي ، ولا حتى ابن وكيع ، ولا حتى الجرجاني نفسه ، انما هو كل هؤلاء - والحاتمي اكثرهم حظا في الرد - وبكلمة ادق هو حركة ردة الفعل المعادية للشاعر ، الماسخة لفضله ولعظمته الشعرية ، ولدفاع المتعصبين له والمنتمين اليه .

يقول الجرجاني مخاطبا هذا الناقد : وقد رأيتك لما احتفلت وتعملت ، وجمعت اعوانك واحتشدت ، وتصفحت هذا الديوان حرفا حرفا ، واستعرضته بيتا بيتا ، وقلبته ظهرا وبطنا ، ولم تزد على احرف تلقطتها ، والفاظ تمحلتها ، ادعيت في بعضها الغلط واللحن ، وفي اخرى الاختلال والاحالة ، ووصفت بعضها بالتعسف والغثاثة ، وبعضها بالضعف والركالة ، وبعضها بالتعدي في الاستعارة ، ثم تعديت بهذه السمة الى جملة شعره ، فاسقطت القصيدة من اجل البيت ، ونفيت الديوان لاجل القصيدة ، وعجلت بالحكم قبل استيفاء الحجة ، وابرمت القضاء قبل امتحان الشهادة (١) ، فعبت قوله :

١ . لاحظ التعابير القضائية وروح القضاء في هذا التعليق .

فَتَى الْفُجْزِ رَأْيَهُ فِي زَمَانِهِ وَمَا قَلَّ جُزْءُ بَعْضِهِ الرَّأْيِ أَجْمَعُ (١)

وقوله :

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله ويجهل علي انه بي يجهل

وقوله :

فَقَلَّ قَلْتُ بِالْهَمْ الَّذِي قَلَّ الْحَشَا قَلَّ عَيْشُ كُلِّهِمْ قَلَّ
عَثَاةُ عَيْشِي أَنْ تَعَثَّ كِرَامَتِي وَلَيْسَ بَعَثَ أَنْ تَعَثَّ الْمَأْكَلُ (٢)

وغير ذلك • والذي جمع اعوانه واحتشد ، وتصفع الديوان وقلبه ظهرا وبطنا ، هو الحاتمي وصحبه : المهلب ، وابو سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرمانى ، وابو الفتح المراغي ، في مناظرات "الموضحة" وجلساتها الادبية مع الشاعر المتهم • وهذا البيت الاول : فتى الف جز رأيه في زمانه • • • عابه عليه الحاتمي (٣) فقط وليس صاحب ولا ابن وكيع •

اما الابيات الكثيرة الاخرى التي اورد ها الجرجاني لناقد المتنبي فقد شملت بعض الابيات التي وقف عندها الحاتمي والصاحب وابن وكيع كذلك • وهناك حقيقة ادركناها في تصفح شعر "الوساطة" هي ان هذا الشعر الذى اورد الجرجاني لناقد ابي الطيب قد زاد على الاربعة وستين بيتا التي ساقها الصاحب لشاعر الكوفة ، والمائتين وسبعة وعشرين بيتا وصدرا وعجزا ورجزا التي لام الحاتمي ابا الطيب عليها • وهذا يعني ان الابيات الزائدة قد يكون استقاها صاحب "الوساطة" من الكتب التي ضاعت في تلك الفترة او من احاديث المجالس الادبية التي تناولت شعر الرجل او من كليهما معا ، وانها مما

١ • في الديوان : اقل جزى بعضه الرأى اجمع " ، وكذلك في "الموضحة" ،

ص ٣٧ •

٢ • الوساطة ، ص ٨٢ - ٨٣ •

٣ • الموضحة ، ص ٣٧ •

ارتآه لهذا الناقد الذى وقف وراءه سترأ لنفسه عن نقد المتنبي والخط منه . فقد
فند لابي الطيب سرقات واخطأ كثيرة ، ولكنه حين تعرض في البدء للحركة
المعادية للشاعر افترض لنفسه ناقدا حاقدا يمثل الحركة هذه ويشمله هو مع
الصاحب والحاتي وابن وكيع ، وغاب عن النقد الموجه المباشر . وحين افاض
في ذكر الشعر المعيب دل على نفسه . حتى ان القضايا النقدية التي رواها
لناقد ابي الطيب قد شملت مأخذة هو ومآخذ الحاتمي والصاحب كذلك . يقول
الجرجاني : " وقلت : ما زلنا نتعجب من قول مسلم بن الوليد :

سَلَّتْ وَسَلَّتْ ثُمَّ سَلَّ سَلِيلُهَا فَاتَى سَلِيلُ سَلِيلِهَا مَسْلُولًا

حتى جاء المتنبي ، فعلا ديوانه من هذا الجنس فأنسانا بيت مسلم (١) . والذى
اخذ على المتنبي هذا العيب هو الصاحب في نقد هذا البيت :

وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَلْنَا قُبِيلُ الْفَقْدِ مَفْقُودُ الْمِثَالِ

واظن المصيبة في الرائي اعظم منها في العربي (٢) . وقد ازعجه في
هذا البيت تكرار كلمة "الفقد" ككلمة "سَلَّتْ" ومشتقاتها في بيت مسلم . على
ان التوافق الشعري في رسائل النقاد الثلاثة لم يتركز على قضايا واحدة ثابتة ،
بل تعداها حسب طاقات ومفاهيم واذواق كل من هؤلاء الى تطلعات نقدية
وذوقية جديدة ومتنوعة ، توضحت في فوارق الاستشهاد ، وفي اختلاف التعليق
والتركيز على البيت او القصيدة في الشعر الواحد للشاعر الواحد . جاء في
"الرسالة الموضحة " :

"ومن جاني لفظه قوله :

أَيْفِطْمُهُ التُّورَابُ قَبْلَ فِطَامِهِ وَيَأْكُلُهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ إِلَى الْإِكْلِ

لفظة التوراب على سلامة مصدرها جافية جدا . وقد اعتمد في هذا البيت

٠ ١ الوساطة ، ص ٨٤ .

٠ ٢ الصاحب ، ص ٢٣٤ .

على ارق بيت في معناه واشجاء لفظاً ، وهو قول محمد بن يزيد الاموى السلمي :
 فَطَمَتَكَ الْمُنُونُ قَبْلَ الْفِطَامِ وَاحْتَوَاكَ النُّقْصَانُ قَبْلَ التَّعَامِ (١)
 ووقف صاحب في رسالته عند هذا البيت فقال : واطم ما يتعاطاه : التفاسح
 بالالفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء او غذى لبن ولم يظاً
 الحضر ولم يعرف المدر . فمن ذلك قوله :

ايظمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ الى الاكل
 وما ادرى كيف عشق التوراب حتى جعله عوذة شعره (٢) . وتنبه الجرجاني
 الى هذا البيت كذلك فعده في معاييه (٣) . وهكذا ترى ان معظم سقطات
 المتنبي الشعرية قد ترددت في رسائل هؤلاء النقاد على اختلاف التذوق
 والتصور والاستجابة ، وان تحسن الحاتي والصاحب والجرجاني الجمالي
 الشعري قد اتفق على السيئة الواحدة ، والتقى على السقطة الشعرية في
 البيئة العراقية يفندها ويفضح معاييبها ، وتبقى للاستجابة حالة الانفعال
 او الظرف او الطبيعة النقدية المميزة التي وجب اختلافها في الثلاثة دون
 قصد او تقرير . وهذا يشير بدوره الى امتداد خط التأثير النقدي وتطوره
 وبروزه في حركة ردة الفعل والوسط التي حفلت بهذا الحشد النقدي
 الكثيف على تفاوت الرد والتعليل كما اكدنا وكما سيظهر . . تعرض الصاحب
 لهذا البيت المشككة ، على سخافة معناه وبراءة نظمه ، فاستجاب دون ان
 يعلل ودل دون ان يوضح فقال : ومن عيوب قصائده التي تحير الافهام ،
 وتغوت الاوهام ، جمعه من الحساب ما لا يدرك بالاتماطيقى ، ولا بالاعداد
 الموضوعه للموسيقى ، قوله :

- | | |
|-----|------------------|
| ٠ ١ | الموضحة ، ص ٣١ . |
| ٠ ٢ | الصاحب ، ص ٢٣٤ . |
| ٠ ٣ | الوساطة ، ص ٨٦ . |

احاد ام سداس في احاد ليلتنا المنوطة بالتناد
وهذا كلام الجكل ورطانة الزط (١) . الخ . ووقف عنده الجرجاني بعد
ان عالجه صاحب "الموضحة" بدقة وانفعال (٢) ، فقال : وسنرى كيف انه رجع في
ذلك الى الحاتمي رادا وليس الى صاحب ، وهذا يؤكّد من جديد اتكاه الجرجاني
على "الموضحة" وتأثره بها ، وكون الحاتمي هدفه في الغالب وناقده الذي يخاطبه
ولا يكف عن لومه ومعاتبته ، وقوله :

احاد ام سداس في احاد ليلتنا المنوطة بالتناد
وَأَبْعَدُ بَعْدُنَا بَعْدُ التَدَانِي وَقَرَبَ قُرْبَنَا قُرْبَ الْبَعَادِ

قلت : قد جمع في هذه الابيات وفي غيرها مما احتذى به حذوها بين البرد والغثاء ،
وبين الثقل والوخامة ، فأبعد الاستعارة ، وعوض اللفظ ، وعقد الكلام ، واساء التركيب
وبالغ في التكليف ، وزاد على التعقّق ، حتى خرج الى السخف في بعض ، والى الاحالة
في بعض (٣) . وزاد الجرجاني على ذلك ان عرض واخذ الناقد — الذي هو
الحاتمي — وزعمه ان "سداس" غير مروية عن العرب وانما روى احاد وثنا . . . وان
الشاعر اقام احادا وسداسا مقام واحد وستة ، "وانه صغر الليلة ثم وصفها بالطول
ووصلها بالتناد حتى احتاج الى اطالة الاعتذار الى التناول والاستشهاد .
وانت اذا امتحنت الذي عزاه لم تجد اكثر من "واحدة ليلتنا هذه ام ست ليال
في واحدة" . . . فان ادعى مدع انه اراد استيفاء ليالي الاسبوع ، فجمعها في
الست والواحدة ، فكمّلت سبعا استدل النابه على ضعف بصره بالحساب ، لان
الست في الواحدة ست ، فأين السابعة ؟ ولم اقتصر على الاسبوع وهو يريد
المبالغة في الطول ؟ وهلا بلغ اقصى ما يحتمله الوزن واكثر ما يمكنه النظم ؟ (٤)

- ١ . صاحب ، ص ٢٤٢ . وهذا البحث ص ١٤٠ .
- ٢ . الموضحة ، ص ٩٨ — ١٠٢ .
- ٣ . الوساطة ، ص ٩٢ .
- ٤ . المصدر ذاته ، ص ٩٨ — ١٠٠ .

وبعد ان يأخذ عليه نسبته الاحالة والمناقضة على هذا البيت يقول : فأما وانت تقول : هذا غث مسترد ، وهذا متكلف متعسف ، فأنا تخبر عن ثبو النفس عنه ، وقلة ارتياح القلب اليه ^(١) . ونحن لا نشك في سذاجة الجرجاني وقصوره عن التعليل والحكم في هذه المشكلة ، رغم ان عرضه للموقف يوحي بالتثبت والاجابة الصريحة . وفي رأينا ان البيت لا يحتمل مثل هذه الجهود النقدية . ونرى ان ازدواجية الصورة ادت في الغالب الى هذا الاشكال . فجمع الصورة العقلية الى الصورة التخيلية في صدر البيت وعجزه خرج به الى الاحالة ، فغاب عن هؤلاء النقاد . وتفسيره : واحدة ليلتنا ام سبع ليال - على اعتبار ان " في " قد تعني " مع " عند العرب ويكون " سداس في احاد " ستة مع واحد - وهذه صورة حسابية عقلية لا يرفضها اى منطق . وهي على ذلك " منوطة بالتناد " ، لطول هذه الليالي السبع المكثفة في ليلة واحدة . فالطول الحسابي هنا لا يقصر امام هم الشاعر وثقل الحالة النفسية عليه ولا داعي للموقف على ظاهره المنطقي السانج . والشاعر في مثل هذه الحالة لا يسأل عن الاحالة والخروج بالصورة الى ما فوق الواقع . يبقى الاستفهام عن علوق هذه الليلة بالاخرة لطول عذاب الشاعر ، ولا قيمة بعد ذلك لكونها واحدة او سبعا . اما التصغير فلا شك ان ابا الطيب قد اتاه لتكملة الوزن ليس اكثر ، وهو الذى زاد في تشويه صورة البيت وتسخيفه وحطه . ونحن لا نلوم الشاعر بقدر ما نلوم النقاد الذين داروا مع هذا البيت في حلقة مفرغة لا طائل تحتها على الاطلاق .

وهناك اعتقاد دفعنا اليه حديث الجرجاني الى ناقد ابي الطيب يشير الى رجوع صاحب الوساطة الى " منصف " ابن وكيع ^(٢) ان يقول :

- ١ . الوساطة ، ص ١٠٠ .
- ٢ . المصدر ذاته ، ص ١٠٠ - ١٠١ . اخرنا " المنصف " عن " الوساطة " - نسبة لهذا الاعتقاد - على اعتبار اننا تناولنا الكتب في البيئة الواحدة وليس الكتب في البيئات ككل .

” ٠٠٠ ولكن الذى اطالبك به والزمك اياه الا تستعجل بالسيئة قبل الحسنة ، ولا تقدم السخط على الرحمة ، وان فعلت فلا تهمل الانصاف جملة ، وتخرج ، العدل صفرا ، فان الاديب الفاضل لا يستحسن ان يعقد بالعثرة على الذنب اليسير من لا يحمد منه الاحسان الكثير ، وليس من شرائط النصفة ان تنعي على ابي الطيب بيتا شذ ، وكلمة ندرت ، وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ، ولفظة قصرت عنها عنايته ، وتنسى محاسنه ، وقد ملأت الاسماع ، وروايعه وقد بهرت . ولا من العدل ان تؤخره الهفوة المنفردة ، ولا تقدمه الفضائل المجتمعة ، وان تحطه الزلة العابرة ولا تنفعه المناقب الباهرة ” ٠٠٠ ثم يورد له بعد هذا عشرات القصائد التي نعاها هذا الناقد عليه . والذى تكلم عن الانصاف واشترطه على نفسه هو ابن وكيع ، كما ان الذى وقف على قصائد ابي الطيب فأسقطها وحدد سرقاتها — واغلب هذه القصائد وردت في الرسالتين — هو ابن وكيع ايضا ، كما سنرى .

وقد اكثر الجرجاني من الشواهد فغاب معظم ما اورده كقصائد عن رسالة ابن وكيع والموضحة ورسالة صاحب . ونحن لا نرى توضيحا لهذا الخلط والاضطراب الا احاطة الجرجاني بمختلف النقد الذى دار في تلك البيئات ، ثم تصميمه هو على ايراد ما ينعى على ابي الطيب بطريقة يغيب فيها هو عن مسرح النقد المباشر . فيلزم ناقد المتنبي الذى يمثل الحركة ككل — على تعدد وجوهه — بهذه المزاعم النقدية التي كاد يتفق عليها ذوق هؤلاء جميعا . يقول ابن وكيع : وقد عرفت ان وجوه السرقات ، محمودها ومذمومها ، لتسلم من الحيف عليه وتقضي في الحقائق بما له وعليه ، مما اوجبه حكم السرقات من الانصاف * ولقبنا كتابنا ” المنصف ” لما قصدنا من انصاف السارق والمسروق منه . وقد آن لنا ان نذكر ما قصدناه من اظهار سرقاته ، وان مر بنا في اثناء ذلك

معنى مستحيل ، او بيت لفظه غث او اعراب فاسد ، ذكرناه احتراسا من توهم الغفلة علينا . وما نأتي في كل ذلك الا ما ننسب به الى العدل ويقنع شاهد العقل (١) وقد يكون ان هذا الاشتراط دافع الجرجاني الى اتهامه بالبعد عن النصفة ، والى التمثيل بالقصائد الكثيرة الطوال التي لم يأتها لا صاحب ولا الحاتمي في رسالتيهما . وابن وكيع عالج القصائد على اساس ابيات المعاني التي تشتملها واسقاط الابيات الفارغة منها ، وهذا الذي اغاظ الجرجاني حين تعرض للناقد الذي اسقط القصيدة لان طبع الشاعر لم يسعده في نظمها ، او لابيائ شاذة فارغة احتوتها ، فغاب عنها كل حسن .

ما استجد في نقد " الوساطة " :

والجديد الذي تنبه اليه صاحب " الوساطة " ولم يعبا به الحاتمي ولا صاحب . كثرة استعمال المتنبي " لذا " ، وما قاله في ذلك : " وهو اكثر الشعراء استعمالا لذا التي هي للإشارة وهي ضعيفة في صنعة الشعر مدالة على التكلف ، وربما وافقت موضعا يليق بها ، فاكتمت قبولا ، فأما في مثل قوله في هذين البيتين : " ومن حق ذا الشريف عليكا " و " في وقتك ذا " . وقوله :

لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذِي مِنْكَ هُوَ عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءُ

وقوله :

عَنْ ذَا الَّذِي حُرِمَ اللَّيْثُ كَمَالُهُ يَنْسِي الْفَرَيْسَةَ خَوْفَهُ بِجَمَالِهِ

وقوله :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدُّمُسْتَقِ مُقَدِّمٌ قَفَاهُ عَلَى الْأَقْدَامِ لِلْوَجْهِ لَأَيْمٍ (٢)

٠١ ابن وكيع ، ص ٢٣ - ٢٤ .

٠٢ ورد هذا البيت في " الموضحة " كمثال للطباق الغث ص ٣٥ ، ولم يرد في رسالة صاحب .

فهو كما تراه : سخافة وضعفا ، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه اضعاف ما ذكره من هذه الاشارة ، وانت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفا ، والمحدثون اكثر استعانة بها ، لكن في الفرط والندرة ، اوعلى سبيل الغلط والفلتة . . (١) . وهذه مسألة اخذها ابن جني نفسه على ابي الطيب في احد احاديثهما ، لانها بعيدة عن الرقة الشعرية ، قليلة الماء والرونق ، جاء في شرحه لبيتين قالهما ابو الطيب بحضرة بن طفج في مغن وهما :

ما ذا يقول الذي يُغني
يا خير من تحت ذى السماء
شغلت قلبي بلحظ عيني
أليكَ عن حسن ذَا الغناء

قلت له في بعض ما كان يجرى بيني وبينه : مستعمل ذا وذى في شعرك كثيرا ، فأمسك قليلا ثم قال : ان هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد . قلت له : صدقت ، الا ان المادة واحدة ، فأمسك (٢) وقد نستهن التفات ابن جني الى عيب اصيل في شعر صاحبه الكبير ، الا ان الذوق الجمالي قد لا يغريه الميل المسائر للشاعر العزيز امام السقطة الشعرية الحقة . جديد اخر نرى ان صاحب "الوساطة" عرف نقد شعر المتنبي اليه ، هو التنبيه الى المنحى الفلسفي في شعر ابي الطيب ، على اعتبار ان "الوساطة" كتبت بعد "الموضحة" ، التي لم يرد فيها اى ذكر لهذا الاتجاه . وقبل الرسالة الحاتمية في ذكر سرقات المتنبي من ارسطو كما نرجح . كما ان التفات الجرجاني العرضي الى هذا المنحى ، يختلف عن تصنيف الحاتمي لالفاظ المتنبي المنطقية ، وآرائه واغراضه الفلسفية التي ردها الى اصول ارسطو واليسية ، لحاجات معينة ، كما سيظهر في حينه . يقول صاحب "الوساطة" : وانما تجد له المعنى الذى

١ . الوساطة ، ص ٩٥ - ٩٦ . وقد اورد له اربعة عشر بيتا استعمل "ذا" في كل منها ، ولم ترد هذه الابيات ، لهذا الغرض ، في رسائل الناقدين السابقين .

٢ . شرح ديوان المتنبي ، لابن جني ، مخطوطة (١٢ ت) .

لم يسبقه الشعراء اليه اذا دقق ، فخرج عن رسم الشعر الى طريق الفلسفة ، فقال :
وَلَجَدْتُ حَتَّى كِدْتُ تَبْخُلُ حَائِلًا لِلْمُنْتَهَى وَمِنْ السَّرُورِ بَكَاءُ

وقال :

أَلَفَ هَذَا الْهَوَاءُ أَوْقَعَ فِي الْأَنْزَالِ غُصْرَانُ الْجَمَامِ مَرَّ الْمَذَاقِ
وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

وقوله :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ
فَقِيلَ تَخَلَّصْ نَفْسَ الْمَرْءِ سَالِمَةً وَقِيلَ تَشْرِكُ جِوَارِيَّ الْعُطْبِ

وقوله :

خَلَفَتْ صِفَاتُكَ فِي الْعَيُونِ كَلَامَهُ كَالْخَطِّ يَمْلَأُ هِسْمَعِي مَنْ أَبْصَرَ (١)

وهذا كل ما قاله عن احدى ابرز واعم صيغ المتنبي الشعرية وسماته المميزة ، وهي اشارة ادبية رائعة رغم وقوعها دون التعليل والتثبت والبيان النقدي الحق . حتى ان الحاتمي نفسه سيقصر على الشاهد والكشف دون التدليل العلمي الدقيق على مواضع الاخذ ، وغريلة كل ذلك حتى تتضح قيمة هذا الاخذ او جدة الخلق ان كان ، سوى ربط الاثر الحاصل بطرفيه لتبيان تطور الفكرة (او المعنى) او انتقالها او سرقتها او ابطالها من الاساس . والجرجاني كغيره من نقاد العرب عامة ، ونقاد المتنبي خاصة ، برع في استعراض المساوي والكشف النقدي الواعي ، ولكنه قصر في الغالب عن الربط والموازنة ، والتعليل والتحليل ، فاجز ، او كاد يقنع بالعرض والتعليق السريع دون الوقوف العلمي الطويل امام الحالة الخاطئة ليرضي النقد والشعر على السواء .

وقفات نقدية اخرى لصاحب "الوساطة" :

لعل اشمل باب للموضوعية النقدية التي التزمها صاحب "الوساطة" في الغالب ، باب مأخذ العلماء على ابي الطيب ودفاع المؤلف عنه . وهو باب تميز فيه العرض بالاستقصاء والكشف العلمي والموازنة والتحليل ، فما اعتذر الناقد ، كما اعتاد ، بل ناقش ، وما مال بل تثبت ، حكم . وجاء دفاعه ايضا للحق الشعري الادبي الذي لعب به الهوى في حالي الحاتي والصاحب في البيئة العراقية وابن وكيع في البيئة المصرية . والذي ساعده على ذلك طبيعة العمل النقدي بعد مرحلة الاستقراء العامة التي افرد فيها للشاعر ما له وما عليه دون ان يوفر على نفسه ما عابه هو على الشاعر الاصيل . قال : " . . فان المعترضين عليه احد رجلين : اما نحوى لغوى لا بصر له بصناعة الشعر ، فهو يتعرض من انتقاد المعاني لما يدل على نقصه ، ويكشف عن استحكام جهله ، كما بلغني عن بعضهم انه انكر قوله :

تَخْطُ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سَنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ

فزعم انه اخطأ في وصف درع عدوه بالحصانة ، واسنة اصحابه بالكلال (١) . ويجي " دفاع الجرجاني على هذا الزعم بالشاهد والتعليل رادعا لتدخل النحو في تصحيح المعاني واقامة الاغراض ، ومميزا لكل صنعة اصحابها الحقيقيين . " او معنوى مدقق لا علم له بالاعراب ، ولا اتساع له في اللغة ، فهو ينكر الشيء الظاهر ، وينقم الامر البين ، كفعل بعضهم في قوله : " لانت اسود في عيني من الظلم (٢) " . فانه انكر " اسود من الظلم " ولم يعلم انه قد يحتمل هذا الكلام

١ . الوساطة ، ص ٤٣٤ .

٢ . هذا البيت نقده الحاتي في موضحته ص ٨٥ . وابن وكيع في المنصف ص ١١١ معتمدا على صاحب الموضحة كلية . كما يظهر في ايضاح الشواهد ورد البيت الى اصل واحد . والجرجاني عالجه كذلك ص ٤٣٩ .

وجوها يصح عليها ، وان الرجل لم يرد " افعل " التي للمبالغة . (١) . وهذا المعنوي المدقق يتأرجح برأينا بين الحاتمي وابن وكيع والصاحب ، يرجح ذلك وقوع معظم شواهد مأخذ العلماء على الشاعر .
ومن الابيات الكثيرة التي انكرها صاحب " الوساطة " على احد المعترضين على ابي الطيب قوله :

اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول (٢)
الذي وقف عنده كل من الحاتمي والصاحب في رسالتهما ، على انه احد اوابده التي لا يسمع طوال الدهر مثالها (٣) ، واحدى " عثرات خاطره " التي جاءت " بهجين المدح " في هذا البيت (٤) .

يقول الجرجاني في هذا البيت الذي عابه العلماء على ابي الطيب :
فأرحامٌ شعر يتصلن لدنه وأرحامٌ مال ما تني تنقطع
فانكروا تشديد النون من لدن ، وانما هو ولدن ولدن ، فأما تشديد النون فغير معروف في لغة العرب ، وقد كان ابو الطيب خطوب في ذلك فجعل مكان لدنه ببابه ، ثم احتج بما اذكره جملة . قال : قد يجوز للشاعر من الكلام ما لا يجوز لغيره لا للاشطارار اليه ، ولكن للاتساع فيه ، واتفاق اهله عليه ، فيحذفون وي زيدون (٥)
والذي انكر على ابي الطيب تشديد النون ابن وكيع وليس الحاتمي ولا الصاحب .
يقول صاحب " المنصف " : وقال المتنبي :

فأرحام شعر يتصلن لدنه وأرحام مال ما تني تنقطع

- | | |
|-----|-------------------------|
| ٠ ١ | الوساطة ، ص ٤٣٨ — ٤٣٩ . |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ٤٤٣ . |
| ٠ ٣ | الصاحب ، ص ٢٣٨ . |
| ٠ ٤ | الموضحة ، ص ١٨ — ١٩ . |
| ٠ ٥ | الوساطة ، ص ٤٥٠ . |

هذا من لحونه ، انما تشدد النون مع النون نحو لدني ولدنا . واستعمل لدن بغير من ، وما يكاد يستعمل الا بمن ، قال الله عز وجل (من لدن حكيم عليم) واستعماله (امعا) الكلام انما يجوز ويطلب له الوجوب اذا كان ذلك من بدوى يتكلم بطبعه فأما لمثله فلا (١) .

بيت اخر اورد الجرجاني انكار العلماء له واستضعافهم اياه ، وكان ابن وكيع احدهم ، دون صاحب والحاطي اللذين لم يعالجا هذا البيت ، هو :
جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيُكُ التَّبْرِيجُ أَغْذَاءُ ذَا الرِّشَاءِ الْأَغْنِ الشَّيْخُ
فقال اهل الاعراب : حذف النون من تكن اذا استقبلتها اللام خطأ ، لانها تتحرك الى الكسر ، وانما تحذف استخفافا اذا سكنت . وانكر اصحاب المعاني قطع المصراع الثاني عن الاول في اللفظ والمعنى (٢) . احد اصحاب المعاني ابن وكيع صاحب " المنصف " . قد برع الجرجاني في عرض المشكلة في هذا البيت ، فاستقطب لها اراء اصحاب المعاني وارااء المحتجين عن الشاعر ، الا انه ضعف امام التقرير فما حكم ، وهذا جبن ادبي نواخذة عليه . وتعليقه الوحيد كان تقريب احد الاعتذارات على البيت مما لا يسمح بزوال العيب ولا بترجيح الاحتجاج .

اما ابن وكيع الذي اعتمده صاحب " الوساطة " كأحد اصحاب المعاني فقد رأى في البيت اكثر من عيب ، يقول : وبعد ذلك قصيدة اولها :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيُكُ التَّبْرِيجُ أَغْذَاءُ ذَا الرِّشَاءِ الْأَغْنِ الشَّيْخُ

هذا بيت فيه عيوب منها حذف النون من يكن لانها قوية بالحركة اللازمة لالتقاء الساكنين . وعيب اخر انه حذفها مع الادغام وهذا غير معروف . وفي البيت عيب ثالث وهو تباعد نصفه من نصفه حتى لا جوار بينهما ، فضلا عن المناسبة ، ولا

١ . ابن وكيع ، ص ٩٩ .

٢ . الوساطة ، ص ٤٤١ .

تعلق لهما بشيء غير المقاربة (١) . وهذا ما ارتآه الجرجاني في عرض المآخذ على هذا البيت . ومن جملة الوقوف على ما عابه العلماء على شعر المتنبي ما جاء به صاحب الوساطة حول هذا البيت :

بياض وجه يريك الشمس حالكة
ودر لفظ يريك الدر مخشبا

قالوا : "مخشبا" ليس من كلام العرب . غيراني ارى استعمالها وامثالها غير محفوظ ، لاني اجد العرب تستعمل كثيرا من الفاظ العجم اذا احتاجت اليه لاقامة الوزن واتمام القافية ، وقد تتجاوز ذلك الى استعماله مع الاستغناء عنه . . . (٢) . ولم ينس ان المحدثين اکتروا من استعماله فاستثقل . على انه تدخل هذه المرة فأعمل ذوقه وفكره متجاوزا العرض الى الشاهد فالتقرير . وقد تنبه ابن وكيع الى هذا الاستعمال قبلا فقال فيه :

بياض وجه يريك الشمس كالحة
ودر لفظ يريك الدر مخشبا

جعل ابو الطيب كلام العامة لغة واصلا بيني عليه ويستند اليه . اى عربي عرف المخشلب قط وفي اى شعر ورد لفصح او مولد حتى نجيزه له . . (٣) .
يبقى ان الموضوعية النقدية التي اعتمدها الجرجاني في اخرفصل من "الوساطة" قد اتكأت على وعيه المميز لطبيعة المآخذ وطبيعة المعترضين على الشاعر .
فعمد على تخطي العرض والاستقراء الى المقارنة والتحليل فالحكم ، غالبا ، بحذر العالم الذى يعي مسوؤليته امام تحدى النقاد ، وثقة العلماء ، وجشع الفريقين الى اصطياد السقطة وتتبع الخطأ .

-
- ١ . ابن وكيع ، ص ١٢٤ — ١٢٥ . وهذا البيت لم يتعرض له الحاتمي ولا صاحب بن عباد ، فوجب اعتماد الجرجاني على ابن وكيع الذى اورده وحده .
 - ٢ . الوساطة ، ص ٤٦١ . لم يرد هذا البيت الا في رسالة ابن وكيع والجرجاني .
 - ٣ . ابن وكيع ، ص ٢٥٠ .

وعند هذه الرزانة ، والمسؤولية النقدية الحققة ، تضعف براعة الجرجاني في الانطلاقة البلاغية الى شعراي الطيب ، او الموازنة ، او الاعتذار عن الخلط الديني ، او السرقات الشعرية ، لانه سيفقد عند القضايا التي حددتها طبيعة الشعر العربي والنقد الادبي على السواء ، فلن يثور الى مذهب جديد او نقد اجد يكسر الطوق . فقد قررانك تستقرى القصيدة من شعراين الرومي على طولها فلا تنتظر الا الفراغ ، ولا تحصل الا على عدد القوافي ، بينما لا تخلو قصيدة لابي الطيب من ابيات تختار ومعان تستفاد (١) . ولكنه تقرير عقيم يضير ابن الرومي ولا يغني ابا الطيب . وهذه الموازنة النظرية اضر من التعميم والتلقائية التي اثقلت النقد العربي عدة قرون . وحين عمد الى الشعر يستقرئه ، حصل على قصيدة لعبد الصمد بن المعذل في الحمى ارتأى ان ابا الطيب قصد تنكب معانيها فلم يلم بشيء منها ، فأوردها واورد قصيدة ابي الطيب المشهورة في نفس الموضوع ، وانتهى الى هذا القرار الفارغ والحكم الذي لا يؤول الى شيء ، قال : " . . . " . وانت اذا قست ابيات ابي الطيب بها على قصرها ، وقابلت اللفظ باللفظ ، والمعنى بالمعنى ، وكنت من اهل البصر ، وكان لك حظ في النقد تبينت الفاضل من المفضول ، فأما انا فأكره ان ابث حكما او افضل قضا ، او ادخل بين هذين الفاضلين ، وكلاهما محسن مصيب (٢) . وكذلك فعل بقصيدتي المتنبي والبحتري في الاسد (٣) .

اما تعجبه ، فمن يعيب على المتنبي كفره الشعري : يترشفن من في رشفات مثلا ، ويحتمل لابي نواس تطرفه في ذلك ، فعائد الى اعتقاد سديد هو ان " الدين بمعزل عن الشعر " . فلو كانت الديانة عارا على الشعرو كان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره اذا

- | | |
|----|-----------------------------|
| ٠١ | الوساطة ، ص ٥٤٠ |
| ٠٢ | المصدر ذاته ، ص ١٢٢ . |
| ٠٣ | المصدر ذاته ، ص ١٣٠ - ١٣٢ . |

عدت الطبقات ، وكان اولاهم بذلك اهل الجاهلية ، ومن تشهد الامة عليهم بالكفر . . (١) . وهذا اعتبار دارج تنبه اليه معظم النقاد قبل الجرجاني كالصولي والامدى وبعض نقاد القرن الثالث قبلهما . وكان وقوفه عند الاستعارة تمثيلا مفصلا لما قرره ابن المعتز ، على توسع في الفهم والاستيعاب ، بعد ان كثرت في الشعر حتى طغت على انواع البديع . يقول : وانما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الاصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى ، حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في احدهما اعراض عن الاخر (٢) . فهو كالحاتي يريد لها الاستقامة والمناسبة فلا تبعد الى الاحالة . وهذا عمل قانوني يحدد للاستعارة ، ويقترح لها منطقا واضحا معيناً فلا تحيد عنه .

يقول في هذين البيتين :

مُسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَقْرُوءُهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ
و تَجَمَّعَتْ فِي فَوَادِهِ هَمٌّ مِلُّ فَوَادِ الزَّمَانِ أَحْدَاها

فقال : جعل للطيب والبيض واليلب قلوبا وللزمان فوادا . وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ، وانما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة ، وطرف من الشبه والمقاربة . . (٣) . ولكنه لا يغفل في اى حال عن اهميتها فيقول : فأما الاستعارة فهي احد اعمدة الكلام وعليها المعول في التوسع والتصرف ، وبها يتوصل الى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر (٤) . وتجي * التفاتاته البديعية والبلاغية الاخرى ، تقريراً عاديا لما انتهت اليه اصول البلاغة والبديع الى ذلك القرن ، ويكون وقوعه على حسنات الشاعر وروائعه — من مثل الابتداءات

- ١ . الوساطة ، ص ٦٤ .
- ٢ . المصدر ذاته ، ص ٤١ .
- ٣ . المصدر ذاته ، ص ٤٢٩ .
- ٤ . المصدر ذاته ، ص ٤٢٨ .

وحسن التخلص والابداع والكثير غير ذلك - مادة حسنة ومفيدة لصاحب اليتيمة ،
فيتضخم احسان المتنبي وفضله الكبير .

السراقات الشعرية :

وهي القاسم المشترك بين النقاد العرب ، لغفلتهم عن طبيعة الادب
التي تخضع لفعل التأثير والتأثير كاحوال الحياة ذاتها . اذ لا يمكن فصل ما بين
الشاعر وبين تراث ما قديم او معاصر ، ولا يمكن بأية حال تخطي مفاهيم حضارية
الى اصول جديدة ، دون علق بأثر او التصاق بفرع - وكأن العرب ، قبل ان يتأكد
لديهم اشتراك الناس في المعاني العامة ، والخاصة التي شاعت فغدت كالعامة ،
والمبتذلة التي لا داعي للاتهام بها ، ارادوا لتفرد الخلق والابداع انفصالا
كلياً ، او شبه ذلك ، عن كل قديم مخترع ، او يكون اتباع فتكون السرقة ويضعف
الشعر امام النقد . وقد غذى هذا الاعتقاد ايمانهم ان القديم انتهى الى كل
شيء ولا جديد اخر تحت الشمس . ومهما برع النقاد في تبرير الاخذ واجازة
بعضه ان حسن ولطف ، يبقى الشك في مدى اصالة الشاعر وقد رته على الخلق
الدائم والتجديد المستمر . وهي مسألة لا تستحق هذا التفرغ الذي اعتبره
العرب ، دون غيرهم ، ولا داعي لترويض النقد لاجلها بالشكل الذي التزموه على
مرعصور الادب والشعر .

ولسنا نغفل تطور النظرة الى موضوع السراقات والتنبيه الى ملاساتها
واعراضها في القرن الرابع او قبل ذلك ، ولكننا لا نغفر للنقاد الذين عرفوا ذلك
وقوعهم العملي عليها ، حتى لم يسلم منها مؤلف نقدي او كاد . يقول صاحب
"الوساطة" : "والشرق داء قديم وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر
الاخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان اكثره ظاهراً كالتوارد

الذى صدرنا بذكره الكلام ، وان تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الالفاظ ، ثم تسبب المحدثون الى اخفائه بالنقل والقلب ، وتغيير المنهاج والترتيب وتكلفوا جبرما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال ، والتصريح في اخرى ، والاحتجاج والتعليل ، فصار احدهم اذا اخذ معنى اضاف اليه من هذه الامور ما لا يقصر معه عن اختراعه وابداع مثله . (١) .

كل هذا حسن ، الا ان التوارد ان لم يحصل في المعاني المشتركة او الخاصة العامة او المبتذلة ، لن يكون اكثر من خرافة ادبية يرفضها كل منطق صائب وعقل ثاقب . فلن يجيء على خاطر طرفه ما جاء على لسان امرئ القيس ، ولا على لسان جرير ما في ذهن الفرزدق والعكس . " ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين اصنافه واقسامه ، وتحيط علما برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرقة والغصب ، وبين الاغارة والاختلاس ، وتعرف الالمام من الملاحظة وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرقة فيه ، والمبتذل الذى ليس احد اولى به ، وبين المختص الذى حازه المبتدئ فملكه ، واحياء السابق فاقتطعه ، فصار المعتدى مختلسا سارقا ، والمشارك له محتذيا تابعا وتعرف اللفظ الذى يجوز ان يقال فيه : اخذ ونقل ، والكلمة التي يصح ان يقال فيها : هي لفلان دون فلان (٢) .

فالمشترك العام اذن ، لا يختص بشاعر دون اخر ، ولا ينفرد احد منه بسهم لا يقارع عليه ، وكذلك المخترع السابق الذى تدوول واستعمل فصار كالمشترك لا تنزل فيه سرقة ولا يجوز فيه ادعاء بأخذ . " والشاعر قد يتفنن في السرقة فانذا علق المعنى المختص عدل به عن نوعه ووزنه ونظمه وقافيته ورويه فجعله مديحا بعد ان كان نسيا او فخرا اذا كان هجاء ، قال كثير :

- | | |
|-----|-----------------------|
| ٠ ١ | الوساطة ، ص ٢١٤ . |
| ٠ ٢ | المصدر ذاته ، ص ١٨٣ . |

أَرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا
تُمَثِّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ
وقال ابونواس :

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالَهُ
فَكَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانٌ
فَالوَاحِدُ مِنَ الْآخِرِ ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ نَسِيًّا وَالثَّانِي مَدِيحًا (١) . ومن لطيف
السُّرْقِ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْقَلْبِ وَقَصْدُ بِهِ النِّقْضِ ، كَقَوْلِ الْمُتَنَبِّي :
أُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً
أَنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ
إنما نقض قول أبي الشَّيْخ :

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً
حُبًّا لَذِكْرِكَ فَلْيَلْمَنِي اللَّوْمَ (٢)
وكل تبرير للسرقة يورده ناقد عربي يضعف أمام غزارة الشاهد الشعري الذي
سرق عنه أو قصد فاعتصب ، وتبقى لهذا الإلحاح ظروف الناقد ، وملابسات
عمله ، وأسبابه ، وغايته من قريب أو بعيد . يقول الجرجاني : " ومتى انصفت
علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المَعذرة وأبعد من
المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها واتى على معظمها
وانما يحصل على بقايا : أما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أو لبعد
مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها ، ومتى اجتهد أحدنا نفسه وأعمل
فكره واتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ، ونظم بيت
يحبسه فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد
له مثلاً يغض من حسنه ، ولهذا السبب احظر على نفسي ولا أرى لغيري بث
الحكم على شاعر بالسرقة . . . إلا أنني إذا وجدت في شعره - شعر المتنبّي -
معاني كثيرة أجدها لغيره حكمت بأن فيها مأخوذاً لا أثبته بعينه . ومسروقاً
لا يتميز لي من غيره ، وانما أقول : قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا ،

٠ ١ الوساطة ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

٠ ٢ المصدر ذاته ، ص ٢٠٦ .

فأغتنم به فضيلة الصدق ، واسلم من افتتاح التهور . . (١) . فلماذا يتحدثون عن الابداع ويرجون من الشاعر فرائد ومخترعات ، طالما انهم اقتنعوا باستنفاد القديم للمعاني واستغراقه لها ؟ وهل وجود المعاني مرتبط برغبات الشاعر ؟ وكيف على الشاعر ان يلم بها ليكون له ان يتركها استهانة بها او رغبة عنها لبعدها مطلبها واعتياص مرامها ؟ في مجال المعاني والابداع والسرقات قصر النقد العربي ونقاده ، واستحال الى السخف والابتذال والهزل . والجرجاني احد اولئك الذين يرغبون غن القديم ، لشعورهم بقوة الحديث على بعض الخلق ، ولكنه لا يستطيع التخلص من عقدة السبق وتقصير المحدث عن حظ القديم ووقوفه على ابدار المعاني وعذاري الافكار . يمثل على مذهبه بشعر المتنبي فيقول :

وهذا ما ادعي ، على ابي الطيب فيه السرقة وما اضيف اليه مما عثرت به ، قال ابو تمام - وقد روى هذا البيت لبكر ابن النطاح وقد دخل في شعر ابي تمام :

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

قال ابو الطيب :

يَأْيُّهَا الْمُجْدِي عَلَيْهِ رُوحُهُ اذ ليس يأتيه لها استجداءُ
احمدُ عَفَاتِكَ لَا فُجِعَتْ بِفَقْدِهِمْ فَلَتَرَكْ مَا لَمْ يَأْخُذْ وَأَعْطَاءُ

وبيت ابي تمام او بكر بن النطاح املح لفظا واصح سبكا . وزاد ابو الطيب بقوله : انه يجدى عليه روحه . ولكن في اللفظ قصور والاول نهاية في الحسن (٢) سيكون لذوق الجرجاني السليم عمل اخر غير الملاحظة والكشف الدقيق

قال ابو تمام :

وَمَا سَافَرْتُ فِي الْأَفَاقِ إِلَّا وَمِنْ جَدِّ وَكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

قال ابو الطيب :

٠١ الواسطة ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .
٠٢ المصدر ذاته ، ص ٢١٦ .

مُحِبُّكَ حَيْثَمَا اتَّجَهْتَ رِكَابِي وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنتُ مِنَ الْبِلَادِ
وهذا من اقبح ما يكون من السرقة ، لانه يدل على نفسه باتفاق المعنى
والوزن والقافية (١) . قال ابو نواس :

فَكُلُّ كَفٍّ رَأَاهَا ظَنَّهَا قَدْ حَا وَكُلُّ شَخْصٍ رَأَاهُ ظَنَّهُ السَّاقِي
ابو الطيب :

وَضَاقَتْ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا
فبالغ حتى احوال وافسد المعنى (٢) . وله :

وَفَوَارِسٍ يُحِبُّونَ الْحِمَامَ نَفْسَهَا فَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْحَيَوَانِ
وانا ارى ان هذا المعنى منقول من قول زهير :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
لان زهير جعله يسر بالبذل حتى كأنه اخذ ، وجعله هذا يسرع الى القتل حتى
كأنه حياة ، فالمعنيان واحد في التحصيل (٣) . هذا تحمل من الجرجاني
يقرب من سخافات الحاتمي قبله .

قال كثير :

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيْشُهَا الْهَدَبُ لَمْ يُصِبْ

ظواهر جلدى وهو في القلب جارحي

ابو الطيب :

رَمَتْنِي بِأَسْهَمٍ رِيْشُهَا الْهَدَبُ تَشَقُّ

القلوب قبل الجلود (٤)

١	الوساطة ، ص ٢٤٩ .
٢	المصدر ذاته ، ص ٢٦٣ .
٣	المصدر ذاته ، ص ٣٣١ .
٤	المصدر ذاته ، ص ٤٠٤ .

فألى جانب بعض الافتعالات تراه مغرماً — كالحاتي وابن وكيع — برد أشهر
وأجمل أشعاره إلى أصول قديمة ، حتى لتوهم بأن شعر الرجل خلاصة الشعر
العربي الجيد ، فما تحسده إلا على الصياغة الجديدة الجيدة ، والنفس
الموسيقى الأصل . فقد أورد الأبيات التي اعتقد أن أبا الطيب أخذها عن غيره
مشيراً إلى أحسانه فيها بتعليق بسيط ، دون موازنة وتعليل وتقييم ، أن هو أحسن
في الأخذ ، وإلى أساءته أن تعسف أو قلب المعنى ، أو مسخ أو نسخ كما فعل بيت
كثير . على أنه أحسن الالتفات إلى " السرقة " كلفظ مشين ، فعبر عنها " بلا حظ "
أو " أخذ " أو بلا شيء سوى ذكر بيت أبي الطيب والبيت المأخوذ عنه .
تبقى السرقات المنسوبة : وقد تأرجحت بين الواقع والتوهم والتعمل .
وكثيراً ما اغتصبها الناقد لخدمة عبقريته أو أصالته في التراث ، كأن يرصد انتقال
المعنى بطريقة كرونولوجية خلال عدة شعراء يصل بعدها إلى أبي الطيب فيكون
الأخذ قد تبخر ، أو يكون المعنى قد أصبح مشتركاً أو كالمشترك . وهذا يفيد النقد
في استعراض حركة المعنى الواحد خلال عبورها أكثر من خاطر ، وبوزنها في أكثر
من صورة ، أن لم نقف على تطور هذا المعنى أو انغلاقه أو مسخه ، ورد البيت
الواحد إلى شاعر أو شعر مجهول أو إلى قديم مغمور ، يزيد الشك في إمكانية
التفات الشاعر الواعي إلى سرقة من هذا النوع ، واحتمال سقوطه إلى وضاعة
المعاني التي يرصدها شعراء كهؤلاء . والواضح أن معظم السرقات كانت واقعة
واضحة ، وفق الجرجاني في كشفها مباشرة أو غير مباشرة . دون مساس بعبقرية
الشاعر ، أو بطبيعة السرقة نفسها والتي تتحمل الحسن كالأساءة . كل ذلك
بموضوعية ظاهرة ، وأمانة علمية دقيقة ، تخطت انحياز الناقد المبطن للشاعر
وانفعاله في الدفاع عنه أمام معترضيه . فقد انصف في ذكر السرقات مخلصاً للطريقة
التي اعتمدها ، مشيحاً عن المظاهرة ، إلى معالاة الحق ، ولو على حساب الهوى
والميل .

يتحدث عن مواقع الكلام فيقول : وانما الكلام اصوات محلها من الاسماع محل النواظر من الابصار . وانت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي اوصاف الكمال وتذهب في الانفس كل مذهب وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد اخرى دونها في انتظام المحاسن والتتام الخلقة وتناصف الاجزاء وتقابل الاقسام وهي احظى بالحلاوة وادنى الى القبول واعلق بالانفس واسرع ممازجة للقلب ، ثم لا تعلم - وان قاسيت واعتبرت ، ونظرت وفكرت - لهذه المزية سببا ، ولما خصت به مقتضيا (١) . وهذا من ارقى الاعتبارات الجمالية في رصد مواقع الحسن وطبيعته ، اذ لا يكفي تصور الانسجام والالتئام لكامل الموقع ، بل ان هناك سببا غامضا خاصا يحول فوضى الاقسام والاجزاء الى عبقرية جمالية تعلق بالانفس وتمازج القلب ، وتعطفها حلاوتها المميزة الى قبول ثابت مرض ومستمر . وقد لا يصعب على الناقد الحديث تشخيص دور الجرجاني النقدي ، وحضوره الادبي المميز في حركة النقد العربي عامة ، وتلك التي دارت حول شعراي الطيب خاصة ، لانه حضور ضروري وطبيعي لمنطق الحركة الاجمالية التي شملت نقد القرن الرابع بحركتيه الكبيرتين ، والتي تجسدت احداها بخطي الفعل وردة الفعل في معالجة شعر المتنبي الغزير . فجاء نقد صاحب "الوساطة" تأكيداً للوسط الذي لا بد من انتهاء الحركة جدليا وعمليا اليه في احوال ادبية وظروف خاصة كتلك التي رافقت اصحابها والمهتمين بها في ذلك الحين . لقد اثبتت "وساطة" الجرجاني بنقدها النظري والتطبيقي الواعي ، موضوعية العمل الادبي ، ومنهجية الاسلوب والطريقة التي اخلص لها المؤلف ، وفاعلية النقد في وقوفه معتدلا امام المعارض والمحتج ، لتؤكد الثقة في معالجة الشعر والنقد على السواء .

والذى كثف هذا الوعي النقدي اصالة المؤلف تراثيا وادبيا وجلده
الادبي في رصد اعمال واغراض اصحاب الفعل وردة الفعل حول الشعر
الواحد ، ليكون الوسط المفترض ثمرة الاعتدال ، ونتاج الموضوعية الحقة ،
والصدق الذى لا يميل وبمقدار اتكا " الوساطة " على اخر تطورات النقد
ومذاهبه ، وافتراضات ومزاعم النقاد الذين وقفوا على شعراي الطيب ، يتضح
اثرها في التجديد والوعد بخلق نقدي بديع برز في اكثر من اتجاه ، والقى
ضوءه على نقد تلك الفترة - الثعالي مثلا - ، ولا يزال يقترح الاعتدال
والاصولية لكل نقد يعالج شعراي الطيب او النقد العربي القديم لان .
القاضي الجرجاني احد نقادنا الكبار الذين فرضوا وجودهم الادبي على
التراث النقدي ، واقترحوا منهجيتهم الى كل راغب في التوسط وايثار الحق ،
واحقاق الفضل الادبي والشعري ، انه مثال رائع للتواضع الانساني في النقد
وللعادل في التصدي لاي نزاع حول بيت شعر . يقول الدكتور مندور : ومن
الحق ان صفة الانسانية واضحة عند هذا الناقد في الكثير من اتجاهاته
... واذا جاز لنا ان نسمي الامدى ناقدا فنانا ، استطعنا ان نصف
الجرجاني بأنه ناقد انساني ، ولعل تلك الصفة اوضح ما تكون في حرصه على
ان يكسب مناظره . فهو لا يبدي رأيه فحسب ، بل ولا يكتفي بان يعلله كما
يفعل الامدى ، بل يسلك الى ايمان من يحاجه كل السبل . (١) وهذه
مثالية النقد اذا طمح الى ابعاد من شمولية الذوق والفكر والمنطق ، فلا
يقف عند شرط ولا يقتصر على حد .

الفصل الرابع

النقد الذى دار حول شعر المتنبي في البيئة المصرية •

- ١ — الجوالادبي العام •
 - أ — عبدالله بن ابي الجوع •
 - ب — ابو القاسم الانصارى وسيبويه المصرى •
 - ج — ابن خزابة •
- ٢ — "المنصف" للمسارق والمسروق من شعر المتنبي لابن وكيع التنيسي •
 - أ — "المنصف" والنقد الذى اتاه •
 - ب — موضوع الكتاب وغرضه وطريقته •
- ٣ — المقدمة النظرية
- ٤ — النقد التطبيقي في الرسالة •
 - أ — ابيات المعاني والابيات الفارغة •
 - ب — ابو الطيب بين الواقع والرفض •
 - ج — عود الى قضايا النقد الاخرى •
- ٥ — خاتمة الرسالة

البيئة المصرية :

شعراي الطيب والبيئة ابدا في نزاع ، والغالب هو البيئة . ففي كل مرة يتهاى الشاعر لا استقبال وسط جديد ، ينشط هذا الوسط لتحديه . فلا يسلم ، كما اسلفنا من وزير عاتب ، او ناقد حاقد ، او شاعر حاسد ، او صديق مداح واحيانا مدافع . ولا بد اذن من ربط هذا الواقع الشعري بالواقع النقدي ، لان هذا الاخير ساعد على تركيز العمل الشعري عند ابي الطيب ، وعلى ضرورة الالتفات اليه فأصاب من المجد والانتشار . كما انه اوضح لنفسه طريقا خاصا ميزه عن النقد المسابير او المعتدل فنهد الى الشاعر في كل بيئة شاءها ، اورسمتها الظروف له ، يفلي سقطاته ويتتبع عواره . وقد تنبه الاستاذ بلاشير الى هذه المواكبة بين الشعر والوسط فدرس مكانة الشاعر في الشعر والنقد العربي ، في عصر يمتد زهاء عشرة قرون ، ملاحظا تعدد مراكز دراسة شعراي الطيب في اماكن شتى من العالم الاسلامي . يقول : ولا جل ان نوضح ما نال قصائد المتنبي من اهتمام العرب بها - مدحا او قدحا - يجب الا نجردها من الوسط الذي فيه الفت او مرثت او احبت ، او نوقشت ، ففي كل مرة يهيا لها وسط يشبه الوسط الذي ولدت فيه تنال شهرة جديدة . والمجتمع الاسلامي ، في اثناء نموه التاريخي ، لم يبعث هذا الوسط مرارا كثيرة على التعاقب فحسب ، ولكن خلقه في وقت واحد في اماكن عدة (١) . ولهذا يستطيع الناقد تلمس تلك القرابة الزمنية والنقدية في حالي البيئة العراقية والبيئة المصرية كما سيظهر .

ونحن نعتبر ان البيئة المصرية كانت صدى للبيئة العراقية في ابرز نماذجها النقدية واكثرها تفرغا وشعولا ، وقد اخرناها على زميلتها ، رغم تقدمها

زمنيا عليها ، لانها شاركت النقد العراقي في ردة الفعل من ناحية وفي مسيرتها لهذه الردة من ناحية اخرى . ابن وكيع مثلاً يتعرض لابن جني ، ويواكب حركة الحاتي ، ويفرد لنفسه نموذجاً خاصاً في النقد الحاقداً على شيء من سعة الصدر والتسامح عكس ما يتصور ابن رشيق .

وقد رافقت هذه النماذج النقدية المستقلة محاولات ساذجة تلهت بالجزئيات فتطلعت الى شعر الرجل من بعيد ، او من خارج ، دون الغوص على فنية النص او فاعلية المعنى ، فلم تتعد الملاحظات الذوقية او الانفعالات العفوية التي يولدها النص الشعري عند اول سماع او اول قراءة . ومنذ سطوع شهرة المتنبي تكونت مثل هذه الحالات في مثل هذه الاوساط ، فافردت للشاعر العداء والاعجاب ، وميزت النقد الذي استجد بهذا الخطا وذاك . وقد ظلت الدراسات المتنبية منتشرة في مصر ، كما في العراق وفارس وقتاً طويلاً ، فمنذ حياة ابي الطيب صار صالح بن رشد بن الكاتب رئيس هذه المدرسة . وتحت نفوذ الشخصيات المعادية كالوزير ابن حنابلة تكونت ايضا طائفة كارهة ، وكان اشهر ممثلي هذه الطائفة الشاعر العالم : ابن وكيع ، الذي ألف دراسة سماها : " المنصف للسارق والمسروق من المتنبي " (١) .

وكان ابو الطيب يتناول شعره بنفسه فيفسره ويدرسه بمسجد عمرو في مصر قبل ان يتصدى لهذه المهمة صالح بن رشد بن بعد هربه (٢) . واذا استثنينا دراسة ابن وكيع النقدية في البيئة المصرية ، لا تبقى لنا الا هذه المجالس العادية التي تشبه مجالس سيف الدولة في حلب ، والتي لم تنظر الى

٠ ١ بلاشير ، ص ٣١ .

٠ ٢ شعيب ، ص ٣٣ .

ادبه نظرة علمية ، نقدية ، شاملة كما ينبغي ان يتناولها ناقد كالحاتمي او الجرجاني او ابن وكيع نفسه . ومن هؤلاء الاعلام الذين شغلوا تلك المجالس ، عبيد الله بن محمد بن ابي الجوع " احد رواة المتنبي الادباء واصحابه العلماء ، ومن تمهر في لغات العرب واجاد انواع الادب (١) " . وابو القاسم بن ابي الغفير الانصاري صاحب المجادلات المشهورة مع الشاعر والذي عارضه المتنبي بحضرة كافور في قصيدته الميقة التي اولها : " نظر المحب الى الحبيب غرام " فقال له : العرب لا تقول اليه غرام ، وانما تقول له ، فقال له الانصاري : تقول : " اليه ولديه وله ، وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض ، والوزير ابو بكر بن صالح الروزي اذى حاضر ، والوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات حاضر . (٢) . وكاتم السر الجواد ابو علي صالح بن رشدين الكاتب " احد ائمة الكتاب المهرة في سائر الاداب مصحح المتنبي وروى شعره وكان جيد المعاني (٣) " . وابو بكر الموسوس محمد بن موسى بن عبد العزيز المعروف بابن الجبي والملقب بـسيبويه المصري ، كان الناس يتبعونه ويكتبون عنه . اصله من البصرة ، وكان يفخر بالبغداديين على اهل مصر ، وله بهذا الشأن خطرات مشهورة . وكان يستقبح انفة ابن حنظلة وتيهه وتعاليه ودله ، وله شعر بذلك (٤) . ولـسيبويه هذا نادرة وقعت بينه وبين ابي الطيب تقول : حدث محمد بن الحسن الخوارزمي قال : مررت بمحمد بن موسى الملقب بـسيبويه الموسوس وهو يقول بمدح الناس المتنبي على قوله :

ومن نكد الدنيا على الحرَّان يرى
عدوا له ما من صداقته بُدَّ

- ١ . البيتية ، ص ٣١٤ .
- ٢ . المصدر ذاته ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
- ٣ . البيتية ، ج ١ ، ص ٣١٧ . وقد مر معنا كيف انه ادار حلقة ابي الطيب في الجامع بعد هرب هذا الاخير من مصر .
- ٤ . المصدر ذاته ، ص ٣٤٥ . وكانت بابي بكر الموسوس لوثة اصابته بعد الكلة بلاذر .

ولو قال : ما من مداراته او من مداجاته بد لكان احسن واجود . قال : واجتاز
المتنبي به فوقف عليه وقال : ايها الشيخ احب ان اراك ، فقال له : رعاك الله
وحياك . فقال له : بلغني انك انكرت علي قولي : عدوا له ما من صداقته بد ، فما
كان الصواب عندك ؟ فقال له : ان الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ، ولا
يسمى الصديق صديقا وهو كاذب في مودته ، فالصداقة اذن ضد العداوة ، ولا
موقع لها في هذا الموضع ، ولو قلت : ما من مداراته او مداجاته لاصبت . هذا
رجل منا : يريد نفسه ، قال :

أَتَانِي فِي قَمِيصِ اللَّانِ (١) يَسْعَى عِدُوِّي يُلْقِبُ بِالْحَبِيبِ

فقال المتنبي : امع هذا غيره ؟ قال : نعم :

وَقَدْ عَبَثَ الشَّرَابُ بِوَجْنَتَيْهِ فَصَيَّرَ خَدَّه كَسْنَا اللَّهْيَبِ
فَقُلْتُ لَهُ مَتَى اسْتَعْمَلْتَ هَذَا لَقَدْ أَقْبَلْتُ فِي زِيٍّ عَجِيبِ
فَقَالَ الشَّمْسُ أَهْدَتْ لِي قَمِيصًا مَلِجَ اللَّوْنُ مِنْ نَسَجِ الْمَغِيبِ
فَثَوْبِي وَالْهَرَامُ وَلَوْنُ خَدِّي قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ مِنْ قَرِيبِ

فتبسم المتنبي وانصرف ، وسيبويه يصيح عليه : ابكم الرجل وحلال الله . وكان
المتنبي يذكر قول سيبويه في هذا البيت (٢) . وهذا النقد على سداخته
وطرافته يدخل برغم استهتار ابي الطيب به ، في باب المعاني الذي اعتمده ابن
وكيع في رسالته " المنصف " اذ ذاك . وملاحظة الموسوس ، على ثبوتها خطأ
معنوي ، سخيفة فنيا ، لان الشاعر قصد " الصداقة " ولا شي غير ذلك .
لتكثيف حالة النكد والغم فيما لا بد " منه . وهذا تصوير رائع لثقل الواقع
المفروض اذ لا خيار فيه . اختيار اللفظ ارادة شاعرية تفرضها الحالة على

١ . ثياب من حرير تنسج بالصين .

٢ . البديعي ، ص ١١٣ - ١١٤ .

الشاعر في عملية الخلق او التعبير الصحيح ، فلا مجال للنقد ان لم يتعد الخطأ ما اخذه الموسوس مثلاً .

وهناك ابن حنزابة جعفر بن الفضل بن موسى بن الحسن ابن الفرات ، وزير كافور واحد الذين كانوا يظاهرون الشاعر ويضمرون له الحقد . ويذكر عنه (١) ان ابا الطيب كان يعتزم ان يختصه بمداخلة دون كافور ، وان اول قصيدة قالها الشاعر في مصر كانت موجهة اليه ، ولكن ابا الطيب لم ينشده اياها ، فاحتفظ بها حتى عاد الى العراق فغير فيها قليلاً وقالها في ابن العميد . ولم يغتفر ابن حنزابة للشاعر اهماله هذا ، فكان طبيعياً ان يحمل له الحقد وان يغلبه الحسد فيكثر استهزاؤه به وتحامله عليه . يقول البديعي : " . . . قال الوحيدى : كنت بمصريها ابو الطيب ، ووقفت من امره على شفا الهلاك ، ودعتني نفسي لحب اهل الادب الى ان احته على الخروج من مصر ، فخشيت على نفسي ان يشيع ذلك عني ، وكان هو مستعداً للهرب ، وانما فات اظاير الموت ، ومخالب المنية من قرب ، وهو جنى ذلك على نفسه ، لانه ترك مدح ابن حنزابة وهو وزير كافور ، والمقرب منه ، وهو مع ذلك من بيت شريف اهل وزارة ورياسة ، ومن العلم والادب بموضع جليل ، وهو باب الملك ، فأتى من غير الباب ، وانشد القصيدة الياثية ، واولها ما يتطير منه ، كيف لا وبراعتها : (يريد مطلعها) :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسَبَ الْمَنِيَا أَنْ يَكُنْ أَمَانِيَا
تَمَنِّيْتُهَا لَمَّا تَمَنِّيْتُ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًّا مُدَا حِيَا

قال الوحيدى : وهذا الابتداء مما تعجبه الاسماع ، فقيح ابن حنزابة اثره ، ثم لم يزل يذكر سواد كافور ، ووراءه من ينبه على عيوبه كقوله في قصيدته التي اولها :

١ . مندور ، ص ١٢٢ - ١٢٣ . وقد اخذ هذه الاخبار عن ابن خلكان الذى رواها بدوره عن التبريزى .

وَلَمَنْ يَدْنِي مِنَ الْبُعْدَاءِ

انما التهنئات للأكفاء

ومنها :

سُبْحَمَنْ مَنِيرَةٍ سَوَادٍ

تَفَضَّحَ الشَّمْسُ كُلَّمَا ذَرَّتْ الشَّمْسُ

فكان يقول ابن حنزابة انه هزى بكافور في هذه الابيات ، ويسهل على الناس امر لونه ويحسنه له . قال الوحيدى : كان المتنبي يعلم ان ذكر السواد على مسامع كافور امر من الموت . فاذا ذكر لونه بعد ذلك فقد اساء الى نفسه وعرضها للقتل والحرمان ، وكان من احسان الصنعة واجمال الطلب الا يذكر لونه ، وله عنه مندوحة ، ولكن الرجل كان سيئ الرأي ، وسوء رأيه اخرجته من حضرة سيف الدولة ، وشدة تعرضه لعداوة الناس ، وقد ذكر سواد كافور في عدة مواضع وكان اللائق الا يذكره (١) .

وتنبه ابن حنزابة الى مطلع قصيدة المتنبي واستكراهه له ، هو الذى حدا بالنقد اللاحق الى الوقوف عند هذا الابتداء الذى يتطير منه ، والذى لا يخاطب به ممدوح ، كان من كان . وذنب الشاعر انه عاد الى نفسه بصور قلقتها وأساها بعد مفارقة امير حلب ، مما لا يجوز في اصول المدح او في عمود القصيدة ، عند النقاد العرب . واهمال ابي الطيب لوزير كافور المقرب من ناحية اخرى حرى بهذا الحقد الذى ابداه ابن حنزابة ، ومعروف عن الشاعر ضعف الحيلة ، والدهاء السياسي ، والخبث الذى يرافق نفسيات الذين يترددون على اى امير او بلاط .

وحول هذا البيت الذى يعتبره البعض امير شعره ، جرت حادثة مع الوزير

وابن جني :

وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُعْرِى بِي

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي

ذكر ابن جني ، قال : حدثني المتنبي وقت القراءة عليه قال ، قال لي ابن حنزابة وزير كافور : اعلمت اني احضرت كتبى كلها وجماعة من اهل الادب يطلبون لي من

اين اخذت هذا المعنى ، فلم يطغروا بذلك ، وكان اكثر من رأيت كتباً . قال ابن جني : ثم اني عثرت بالموضع الذي اخذه منه ، اذ وجدت لابن المعتز مصراعاً بلفظ لين صغير جداً فيه معنى بيت المتنبي كله على جلاله وحسن تقسيمه ، وهو قوله : " فالشمس نعمة والليل قواد " . ولن يخلو المتنبي من احدى ثلاث : اما ان يكون الم بهذا المصراع فحسنة وزينه وصار اولى به . واما ان يكون قد عثر بالموضع الذي عثر ابن المعتز به فأرى عليه في جودة الاخذ . واما ان يكون قد اخترع المعنى ، وابتدعه وتفرده به ، ولله دره . وناهيك بشرف لفظه وبراعة نسجه . . (١) . ورغم قلة العنف ، والتسامح في اشارات ابن حنظلة النقدية ، بالنسبة لما يتوقع منه في حالة كهذه ، ترى ابا الطيب يعرض به بعد هروبه من مصر وهجائه كافوراً ، الذي لم ينل عنده ما اراد ، وذلك في المقصورة التي اولها (٢)
أَلَا كُلَّ مَا شِئْتَ الْخَيْزَلَى فِدَى كُلِّ مَا شِئْتَ الْهَيْدَبَى

بعد ان امتنع عن مدحه وكان اولى به ان يفعل ذلك .

وكل هذه الاشارات والمآخذ الجزئية التي حفلت بها المجالس والحلقات العلمية التي درست شعرا بي الطيب في مصر ، لا تميز لنفسها خطأ نقدياً واضحاً ، مع الشعراء وعليه ، اومع النقد كموضوعية فنية تأبى الميل وتتخطى الهوى . انها نظرات عاجلة في مجملها ، وبالمقدار الذي نعرفه عنها ، لا تتعدى المفاهيم النقدية الدارجة في حلقات كهذه ، او في بلاطات كبلاط كافور وسيف الدولة ، رغم نضوج وفاعلية الحركة الادبية ، وعظمة الاعلام في كلالا بلاتين . تبقى الرسالة النقدية الهامة التي كتبها ابن وكيع ، احد الادباء الشعراء في البيئة المصرية ، والتي اخطي* الظن فيها كثيراً ولم يدرسها على حقيقتها ناقد واحد للان ، قديماً كان ام حديثاً . انها المظهر

١ . البديعي ، ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

النقدى الوحيد في بيئة مصر آن ذاك ، لما سجلته من عمق النظرة ، وبراعة الكشف والاستقراء ، وفاعلية التعليل والموازنة والحكم معظم الاحيان . وهذه الرسالة تدخل ضمن حركة ردة الفعل في اشل وادق وابرز نماذجها ، مع رسائل الحاتمي والصاحب وغيرها في البيئة العراقية التي اوجت لها وساعدتها على التصدى الثابت الحق للشاعر الكبير .

ابن وكيع التنيسي صاحب "المنصف" (٣٩٣ هـ) (١) :

هو ابو محمد الحسن بن علي بن احمد بن محمد بن خلف الضبي التنيسي "شاعر الزهر والخمر" والناقد البار والعالم الجليل . اصله من بغداد ، ومولده ووفاته في تنيس بمصر . كانت في لسانه عجمة ، وله ديوان شعر جيد فيه كل معنى حسن كما يذكر ابن خلكان . وقد حقق الدكتور حسين نصار ما تبقى من شعره هذا وجمعه في ديوان اطلق على صاحبه اسم "شاعر الزهر والخمر" . وجاء في "معجم المؤلفين" للاستاذ عمر كحاله ان له منظومة في بحر الاوهام عدا ديوانه الشعري . ويدل شعره على انه كان على حظ كبير من الظرف وخفة الروح . وقال فيه صاحب "اليتيمة" : شاعر بارع وعالم جامع قد برع في ابانه ، على اهل زمانه ، فلم يتقدمه احد في اوانه ، وله كل بديعة تسحر الاوهام وتستعبد الانهام . وقد شارك ابن وكيع في الحياة العلمية والادبية في القرن الرابع الهجري فألف كتاب "المنصف للسارق والمسروق منه" في اظهار سرقات ابي الطيب المتنبي ، الذي يدل النقد الذي احتواه على ثقافة وسعة ، ومحفوظ غزير ، وعلم وافر ، وفضل كبير ، وتطلعات نقدية رائعة في محال المضمون الشعري والمعاني الادبية

١ . راجع ديوان ابن وكيع "شاعر الزهر والخمر" تحقيق الدكتور حسين نصار ، والاعلام للزركلي ، ج ٢ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ . ومعجم المؤلفين لكحاله ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ . وابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٧١ . واليتيمة ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

المتبعة والمبتدعة . ولدينا من كتاب "المنصف" هذا نسخة مصورة عن المخطوطة الوحيدة منه ببرلين . وفي المخطوطة خرم في باب السرقات المذمومة شمل القسمين الاول والثاني منها . وتبلغ هذه النسخة التي لدينا اكثر من ثلث الكتاب وصل النقد فيها الى اوائل السيفيات ، وشملت المقدمة النظرية الصفحات الاربع والاربعين الاولى منه . واستولى القسم التطبيقي على بقية الصفحات التي تبلغ في مجموعها مائتين وسبعين صفحة على الالة الكاتبة . وجل ما نعرفه عن هذه الرسالة ان المظفر بن الفضل العلوي الدمشقي قد لخصها في كتابه "نصرة الاغريض في نصره القريض" ، واسامة بن منقذ في كتابه "البديع في نقد الشعر" ، والشريشي في "شرح المقامات الحريية" ج ١ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٦ .

وسنتعرض بالتفصيل لنقد "المنصف" لنرى ما اذا كان ابن وكيع قد انصف السارق والمسروق منه " فخدم الادب والنقد ، ام انه حاف على الاثنين فابتعد "منصفه" عن الحق والانصاف كما اتهم .

٥ - "المنصف للسارق والمسروق منه" في اظهار سرقات ابي الطيب المتنبي ،
لابي محمد بن وكيع :

قال علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح : كان ابو محمد بن وكيع متأدبا ظريفا ، ويقول الشعر ، وعمل كتابا في سرقات المتنبي ، وحاف عليه كثيرا ، وسألني يوما ان اخرج معه ، واستصحب مغنيا وامره الا يغني الا بشعره فغنى :

لو كان كُلُّ عَلِيلٍ	يَزِدُّكَ مِثْلَكَ حَسَنًا
لَكَانَ كُلُّ صَاحِبٍ	يَوَدُّ لَوْ كَانَ مُضْنَى
يَا أَكْمَلَ النَّاسِ حَسَنًا	صَلِّ أَكْمَلَ النَّاسِ حَزَنًا
غَنَيْتُ عَنِّي وَمَالِي	وَجَّهَ بِهِ عَنكَ أَغْنَى

فقلت له : هل تثقل عليك المواءمة ؟ قال : لا • قلت : ان ابياتك مسروقة :
الاول من قول بعضهم :

لو كان المريض يزيد حسناً كما تزداد انت على السقام
لما عيّد المريض أذن وعدت شكايته من النعم الجسام

والثاني من قول روبة :

سلم ما انساك ما حييت لو أشرب السلوان ما سليت
مالي غنى عنك ولو غنييت

فقال : والله ما سمعت بهذا • فقلت : اذا كان الامر على هذا فاعذر المتنبي
على مثله ، ولا تبادر الى الحط عليه ، ولا المواءمة له ، والمعاني يستدعي
بعضها بعضا (١) .

الخطأ الفني لا يعذر صاحبه ، ولا يعتذر له • وسواء تساوت المعاني
او استدعى بعضها البعض ، فلن يقصر عنها النقد ان زلت ، او خانتها اللفظة
او الصورة الشعرية ، في اى شعر ، ومع اى شاعر كان • ابن وكيع اقل غفا من
الحاتمي ، واكثر وقوعا على الحسنة الشعرية ان كانت ، والطف مسلما ومنهجية ،
ورغم ذلك لم يعترف له النقاد بفضل ولا اقروه على انصاف • يقول فيه ابن رشيق
وقد اتكأ عليه الجميع فيما يظهر : " • • • • • واما ابن وكيع فقد قدم في صدر كتابه
على ابي الطيب مقدمة لا يصح لاحد معها شعرا لا الصدر الاول ان سلم
ذلك لهم ، وسماه كتاب المنصف " مثل ما سعى اللديغ سليما ، وما ابعد
الانصاف منه (٢) • وابن وكيع لم يقرر ذلك ، واغلب الظن ان ابن رشيق
لم يطلع الا على المقدمة ، كما اننا نعتقد انه استوحى تعليقه من عنوان الكتاب
للفصاحة والتطرف ليس الا ، لان الكتاب ليس بعيدا عن الانصاف كما يقرر
هو وغيره • يقول بروكلمان في كتاب " المنصف للسارق والمسروق منه " : وهو رد

١ • البديعي ، ص ٢٦٥ — ٢٦٦ •

٢ • ابن رشيق ، ج ٢ ، ص ٢٨١ •

على من يبالغ في اصافة شعر المتنبي للحسين بن علي التنيسي الوكيعي (١). وهذا التقدير على شي من الصحة ، واسلم من تصور بلاشير في الناقد المصري الخطير . يقول الاستاذ بلاشير : " . . . وتحت نفوذ الشخصيات المعادية كالوزير ابن حنظلة تكونت ايضا طائفة كارهة ، وكان اشهر ممثلي هذه الطائفة الشاعر العالم : ابن وكيع ، الذي الف دراسة سماها : " المنصف للسارق والمسروق من المتنبي " ، وهذا الكتاب خال من الجدة ، خلوا سمه من الصحة ، ويشبهه في كل شي " مصنف ابن عباد . هذا المصنف ذاتي صرف ، شأن غيره . ويعني بالجزئيات ، واحيانا يهتم بكلمة ، والمؤلف يكشف في كل شي " سرقة . هذا التصميم على القدر ، سيجعل فيما بعد احد نقاد مدينة القيروان ، وهو ابن رشيقي ، يقول : " ما ابعد كتاب المنصف عن الانصاف " ، وابن جني المعجب بالمتنبي لم يجد تعباً في ان ينقض حجج ابن وكيع ، في رسالة تنفيذية مفقودة اليوم (٢) . وسنرى كيف ان الاستاذ بلاشير امعن في الظن والخطأ ، حين تكشف عن مظاهر الجدة في رسالة ابن وكيع ، وابرز مثال على ذلك ، للان ، وقوفه على ابيات المعاني في شعراي الطيب بهذا الشكل المفصل الشامل الذي لم نعهده عند ناقد اخر . كما ان الكتاب لا يشبه في كل شي " مصنف ابن عباد ، ويكاد لا يشبهه بشي . اما كونه ذاتيا صرفا ، ويعني بالجزئيات ، ويهتم بالكلمة الفردية ، ويكشف في كل شي " سرقة ، فكلام مبالغ فيه بالاجمال . وعلى هذا الاساس الواهي بنى مندور وشعيب ، وهدارة وغيرهم من النقاد المحدثين ، اراءهم حول الكتاب الذي لم يقرأه كاملا احد منهم ، لينصفه وينصف النقد فيه .

١ . بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ، ص ٩١ .

٢ . بلاشير ، ص ٣١ - ٣٢ . وقد ذكر بلاشير مصنف ابن جني هذا ص ١٠ من كتابه عن الديوان ، مع ذكر رسالة اخرى في فنون المتنبي الشعرية ، والمصنفان مفقودان .

يقول ابن وكيع في مقدمته : " . . . فانه وصل الي كتابك الجليل الموضع ، اللطيف الموقع ، تذكر افراط طائفة من متأدي عصرنا في مدح ابي الطيب المتنبي وتقديمه ، وتناهيهم في تعظيمه وتفخيمه . وانهم قد افنوا في ذلك الاوصاف ، وتجاوزوا الاسراف . حتى لقد فضلوهُ على من تقدم عصره وابرعى قدره قدره . وذكرت ان القوم شغلهم التقليد فيه عن تأمل معانيه . فما ترى من يجوز عليه جهل الصواب ، في معنى ولا اعراب . وذكرت انهم لم يكتفوا بذلك حتى نفوا عنه ، ما لا يسلم فحول الشعراء من المحدثين والقدماء منه . فقالوا : ليس له معنى نادر ، ولا مثل سائر ، الا وهو من نتائج فكره ، وابوعذره . وكان لجميع ذلك مبتدعا ، ولم يكن متبعا . ولا كان لشيء من معانيه سارقا ، بل كان الى جميعها سابقا . . . (١) " . هكذا نخال حركة الفعل التي دارت حول شعرابي الطيب ، مع الناقد والشاعر المصري . تطرفت في الميل فغابت عنها سقطات الشاعر ، واقتنتت بروائع شعره فنسيت فاحش سيئاته . ثم انهم خصوه بكل ابداع فقد موه على القديم والحديث . والمراجع لنقد شعره لا بد ان يقتصر من الفريقين ، وكذلك شعره . ولعل اسلم حكم ، ان يراد ما يدعيه الوسط ، اذ لا يقصر الشاعر عن رتبته " ، ولا يعلو فلا ينتظمه شأو . حتى ابن وكيع نفسه لن يغيب عنه فضل ان حصل ، وان غاب عنه الكثير ، يقول : ان القوم لم يصفوا من ابي الطيب الا فاضلا ، ولم يشهروا بالتفريط منه خاملا . بل فضلوا شاعرا مجيدا ، وبلغا سديدا . ليس شعره بالصعب المتكلف ، ولا اللين المستضعف . بل هو بين الرقة والجزالة ، وفوق التقصير ودون الاطالة . كثير الفصول قليل الفضول . لكنه بعد هذا لا يستحق التقديم على من هو اقدم منه عصرا ، واحسن شعرا ، كأبي تمام والبحتري واشباههما . فأني لا ازال ارى من مسجلي الادب من يعارض شعريهما بشعره ،

ويزن قدريهما بقدره . من غير انتقاء للشعر استعمل فيه كد فكره ، ولا استقصاء نظره . وانما قلد الخطوة الرافعة والشهرة الذائعة . والنفوس مولعة بالاستبدال والنقل ، لهجة بالاستطراف والمثل . ولكل جديد لذة ، فلما كان شعره اجد منهم عهدا ، كانوا له اشد ودا . وهنا اغضينا لهم عن تفضيلهم اياه على من لا يشق غباره ولا يعسر مقداره . مع علمنا في ذلك ان مذهبهم اوضح فسادا من ان نطلب لهم المعارضة ، او نتكلف من اجلهم المناقضة . فكيف بالاغضاء عن نفهم عنه ما لا يسلم منه بدوى او حضرى ، جاهلي او اسلامي ، من استعارة الالفاظ النادرة او الامثال السائرة . واذا كانت الالفاظ مستعملة في اشعار جميع الناطمين ، من القدماء والمحدثين ، وسلمنا لهم نفهم عن ابي الطيب ذلك ، كنا قد سلمنا لهم انه افضل اهل الشعر ، في كل اوان وعصر . وهذه دعوى لا بد من كشف اسرارها واظهارها ، وهي بالعناية الاولى من الاولى ، لان تلك دعوى خست طائفة ، وهذه تعم جميع القائلين من الاولين والآخرين . ولقد ادعى قائلها افكا واسعا . وظل للحق فيه دافعا . لانه ادعى وقوع جميع الشعراء فيما سلم ابو الطيب منه ، ومقرهم الى ما غني عنه . وهذه صفة تتجاوز الصفات ، وتكاد تشبه المعجزات . ثم لا يرضى مقرض ابي الطيب حتى يدعي له السلامة الكاملة من عيب لم يتكامل فيه احد قط تكامله فيه . وانى له بالسلامة من ذلك وقد جاء على ساقه اهل الشعر بعد استيلاء الناس على حلو الكلام ومره ، ونفعه وضره . وهذا الظلم الواضح والافك الفاضح (١) .

كثير الفصول قليل الفضول ، ولكنه لا يستحق التقديم على الطائيين ؛ ابي تمام والبحترى . دائما نفس المشكلة : الصراع بين القديم والحديث . ابو تمام والبحترى ليسا افضل من القديم ، وابو الطيب يقصر عن هذين المحدثين ،

القديمين . فالالفاظ مستعملة في اشعار جميع الناظمين ، والمعاني اتى عليها القدماء ، او كادوا ، فما بال اصحاب المتنبي ينفون عنه كل ظن ويرفعونه عن كل خطأ ؟ لم يصل النقد العربي ، حتى في القرن الرابع ، الى مرحلة التخلص من عقدة الماضي القديم . كل تقدير لعمل فني يجب ان يسبقه هذا التصور . حتى ان الموازنة في ارقى نماذجها ، وقد يفترض فيها تثبيت هذا الصراع ، لم تستطع تركيز اصول علمية موضوعية لهذا النزاع ، كي يتخلص ، بأى شكل ، من انفعالية التشبث بالقديم وعفويته وسذاجته . نحن لا نقول بخرق ناموس التوارث والاستمرار ، ولكن لا نريد لاصحاب ابي الطيب ان يعزلوه عن كل قديم ، وشعره ينقض هذا الاعتقاد ، ولا لخصومه ان ينسبوا كل فضل اتاه الى القديم بشكل او بآخر . ابن وكيع يريد النصفه ، وقد فعل من ناحية ، توسط في التقرير ولكنه لم ينس تفرد القديم . وخير ما فعل للان تصوير اصحاب الفعل في نقد المرحل ابرع وادق تصوير .

موضوع الكتاب وغرضه وطريقته :

وسأدل اولا على استعمال القدماء والمحدثين اخذ المعاني والالفاظ ثم اعود الى سجل شعرا ابي الطيب ومعانيه ، وابيات ما اجدته فيه من مسروقات قوافيه . التي لا يمكن فيها اتفاق الخواطر ولا تساوى الضمائر . لان ذلك يسوغ في النزر القليل ، ويمتنع في المتواتر الكثير . وسأنصفه في كل ذلك :
فما استحقه على قائله سلمته اليه ، وما قصر فيه لم ادع التنبيه عليه . للا يظن بنا الناظر في كتابنا خورا في قصد او تقصيرا في نقد . وذلك يلزمنا الحاق ما فيه عيب غير السرقة بالمسروق ، خوفا من ان يقول قائل قد تجاوز عن اشياء

من الغنائات واللحون والمحالات ، كانت أولى من الذكر للمسارقات . هذا ان لم تعبرنا بالغفلة عنها لا لتجاوز لها . وينبغي اذا علمنا على تسليم ما له من السرقات اليه ، ورد المقصر منها عليه ، ان اثبت لك وجوه السرقات محمودها ومذمومها ، وصحيحها وسقيمها . واعرفك ما يوجب للسارق الفضيلة ، وما يلحقه الرذيلة ، ليكون ما نوره له وعليه مقيسا على اسس قد احكمناه ، ونهيج قد اوضحناه . وما غرضنا في ذلك الطعن على فاضل ، ولا التعصب لقائل ، وانما غرضنا افادتكم ما استدعيناه ، وكفايتك الفحص عما استكفيناه ، لتظهر على خصمك وتزداد قوة في علمك (١) .

السرقات في ابيات المعاني ، واقرار النصفة ان حسن الاخذ عوسوى ذلك من اللحون والغنائات والمحالات ، يلحق بالغرض الاساسي ، كي لا يظن بالناقد غفلة او ضعف او تسامح . " ولقبنا كتابنا " المنصف " لما قصدنا من انصاف السارق والمسروق منه (٢) . " وفي الحق ان ابن وكيع انصف ابا الطيب ، وكان اوفى واعدل من ابي علي الحاتمي الذي لم يعرف الانصاف ولا الاعتدال في " موضحته " ، وان تحرر في رسالته الاخرى دون ان ينسى انه تطرف فشد . وحين استطرد ابن وكيع الى غير السرقات تنبه فاعتذر ، وكان جل مقصده الفائدة سواء اطال ام اوجز . يقول : . . لان موضوع الكتاب الفائدة للقارىء ولنا نأمن عليه من الاكثار عاقبة الاضجار بمعنى واحد من السرقات ، فنريد ان ننقله الى استماع شعر مطرب او خبر معجب ، ليروح عن قلبه ويجلو صدى بما في الانتقال من حال الى حال من مداواة القلوب من الاملال . . (٣) . " او يستدرك مرة اخرى فيقول : . . . موضوع الكتاب الفائدة فان خرجنا عن الغرض وافدنا القارىء فيه ، فقد بلغنا

- | | |
|---|---------------------------|
| ١ | ابن وكيع ، ص ٣ . |
| ٢ | المصدر ذاته ، ص ٢٣ — ٢٤ . |
| ٣ | المصدر ذاته ، ص ١١ . |

المقصد المطلوب ، وجمعنا له المحبوب • وإيراد الخبر النادر والمعنى الباهر يؤمن قارئ الكتاب من الملل ، علما بمحبة النفس الاستطراف والنقل ، فهذا ما حقنا ان نعاب به •• (١) • فالواقع النقدي الذي التزمه ابن وكيع هو تغلية ابیات المعاني في شعراي الطيب لرصد المسروقات التي لا يمكن فيها اتفاق الخواطر ولا تساوى الضمائر ، والتسليم للشاعر ان استحق ما قاله على الذي اخذه • وموضوع ذلك الفائدة التي يدخل فيها الخبر النادر والمعنى الباهر ، لتتم للكتاب الغاية التي شاءها المؤلف ، ويقع ابو الطيب في مرتبته •

وسيكون استخلاص اى مذهب نقدي للمؤلف من خلال استعراضه للسراقات في المقدمة النظرية ، لان ما دار حولها من اعتبارات فنية وادبية اخرى ، جاء استكمالا لبحث ، او دفعا لملل ، او ردعا لظن كما قرر ذلك ابن وكيع نفسه • ولهذا سنعتقد طريقة المؤلف في عرض سرقات ابي الطيب لنكشف عن مذهبه النقدي ، وذلك لربطه بالحركة ككل ، ولتبيان اثره في مجمل النقد الذي دار حول شعر الشاعر الكبير ان ذاك •

المقدمة النظرية :

يقول ابن وكيع في باب وجوه السرقات : " •• ان مرور الايام قد انغد الكلام فلم يبق لمتقدم على متأخر فضلا الا سبق اليه ، واستولى عليه • فأخذق شعرائنا من يخطي المنظوم الى المنثور ، لان المعاني المستجادة والحكم المستفادة ، اذا وردت منشورة كانت كالنواذر الشاردة • وليس لها شهرة المنظوم السائر على السنة الراوين ، المحفوظ على قائله كالتدوين • فالعارف بأخذ المنثور قليل ، والجاهل

به كثير . وقد بقى قائل الحكم المنشورة لسارقها من فضيلة النظم ما يزيد في رونق مائها ، وبهجة روائها . فهي كالحسناء العاطلة حليها في نظامها ، فاذا جلاها النظم نسيت الى السارق واستحقت على السابق . والمعنى اللطيف في اللفظ الشريف كالحسناء الحالية ، فقد استوفى بالنظام غاية الحسن والتعام . فقد فاز قائلها بالخطين ، واستولى على الفضلين . فلا يشركه لسارق في فضيلته ، ولا البارغ في براعته ، الا بوجوه انا ذاكرها وهي عشرة اوجه (١) . ومسألة نفاذ الكلام على مرور الايام اعتقاد مشترك عند النقاد العرب لن نقف كثيرا عند سخافته وسذاجته وضعفه . والقول بان القدماء لم يبق فضل الا استبقوه واستولوا عليه : هاجس رافق المهتمين بالتراث العربي اذ ذاك ، فأنساهم كل فضل جديد او كاد ، فنظروا الى كل حديث من خلال قديمهم هذا او لم يستطيعوا الا ذلك .

اما وجوه السرقات العشرة المحفودة التي يشترك في فضيلتها الاخذ والمأخوذ منه ، والتي حددت مذهبها للنقدى عامة في رصد ابيات المعاني ، مع الوجوه العشرة الاخرى المذمومة ، والتي بنى عليها نقده التطبيقى فهي :

- الاول : استيفاء اللفظ الطويل في الموجز القليل .
- الثاني : نقل اللفظ الرذل ، الى الرصين الجزل .
- الثالث : نقل ما قبح مبناه دون معناه ، الى ما حسن مبناه ومعناه .
- الرابع : عكس ما يصير بالعكس ثناء ، بعد ان كان هجاء .
- الخامس : استخراج معنى من معنى احتذى عليه ، وان فارق ما قصد به اليه .
- السادس : توليد كلام من كلام لفظهما مفترق ، ومعناهما متفق .

- السابع : توليد معان مستحسنات في الفاظ مختلفات .
الثامن : مساواة الاخذ المأخوذ منه في الكلام ، حتى لا يزيد نظام على نظام ،
وان كان الاول احق به لانه ابتدع ، والثاني اتبع .
التاسع : مماثلة السارق المسروق منه في كلامه ، بزيادته في المعنى ما هو من
تمامه .

العاشر : رجحان السارق على المسروق منه ، بزيادة لفظه على لفظ من اخذ عنه .
فهذه وجوه تغفر ذنب سرقة وتدل على فطنته (١) . وهي وجوه معقولة
ومنطقية تشهد بدقة الملاحظة ، ووعي الالتفات ، وسعة العلم ، واستيفاء الغرض
وان كانت تقبل الزيادة والنقصان . وستقع بعض سرقات ابي الطيب الشعرية ضمن
هذه الوجوه فتكون لها الفضيلة كما لغيره . على اعتبار ما قرر المؤلف ، وما جاء له من
ان السرقة لا تبطل فضيلة الاحسان (٢) . وان ذمها البعض كسرقة اولا واخرا
وقد اورد ابن وكيع ، مقابل هذه السرقات المحمودة ، عشرة وجوه للسرقات
المذمومة والسقيمة — ضاع القسمان ، الاول والثاني منها ، بسبب خرم في
المخطوطة بعد الوجوه الاولى — ليتم بتحديد النوعين ، والتمثيل لهما باشعار
السلف ، " باب وجوه السرقات " ، فإلتفت المؤلف الى بعض القضايا البلاغية
والنقدية الاخرى وينتهي بذلك القسم النظري . وسيكون القسم النقدي العام من
الرسالة تطبيقا عمليا لما جاء في المقدمة النظرية ، واستعراضا واقعيا لوجوه
السرقات عند رصدها في ابيات المعاني للشاعر الكبير . وبهذا يكون ارتباط
القسمين — النظري والعملي ، ارتباطا عضويا متماسكا ، يكمل احدهما الاخر ولا
ينفصل عنه . وهذه الاقسام الثمانية الباقية ، على سلبيتها وامكانية تفرد ها ،
كادت تكون عكس الوجوه الاولى ، او ان ابن وكيع شاءها كذلك :

١٠ ابن وكيع ، ص ٤ — ٥ .

٢٠ المصدر ذاته ، ص ٢٣ .

- القسم الثالث : نقل ما حسن مبناه ومعناه الى ما قبح مبناه ومعناه .
- القسم الرابع : عكس ما يصير بالعكس هجاء ، بعد ان كان ثنا .
- القسم الخامس : نقل ما حسنت اوزانه وقوافيه الى ما قبح وثقل على لسان راويه .
- القسم السادس : حذف الشاعر من كلامه ما هو من تمامه .
- القسم السابع : رجحان كلام المأخوذ عنه على كلام الاخذ منه .
- القسم الثامن : نقل العذب من القوافي الى المستكره الجاني .
- القسم التاسع : نقل ما يصير على التفتيش والانتقاد الى تقصير او فساد .
- القسم العاشر : اخذ اللفظ المدعى هو ومعناه معا . (١)

وقد حدد المؤلف موقفه وغايته من هذا العرض النظري فقال :
 " . . . وقد عرفت ان وجوه السرقات ، محمودها ومذمومها ، لتسلم من الحيف عليه
 وتقضي في الحقائق بما له وعليه ، وما اوجبه حكم السرقات من الانصاف . . . وقد
 آن لنا ان نذكر ما قصدناه من اظهار سرقاته ، وان مربنا في اثناء ذلك معنى
 مستحيل ، او بيت لفظه غث ، او اعراب فاسد ، ذكرناه احتراسا من توهم الغفلة
 علينا . وما نأتي في كل ذلك الا ما ننسب به الى العدل ويقنع شاهد العقل .
 ولسنا نضمن ايراد جميع سرقاته وانما نذكر من ذلك ما بلغنا علمه من مأخوذه .
 ونحن نبرأ الى الناظر في كتابنا من ادعاء الاحاطة بجميع ما سلبه ، ومعرفة جملة
 ما اغتصبه . لاني لا ادعي رواية جميع الاشعار .

ولكل عالم زيادة على ما اوردت ، ان يورد منها ما اغفلت . غير
 طاعن علي ، ولا ناسب تقصيرا الي ، لاني حفظت ما لم يبلغه وحفظ ما لم يبلغني
 . . . على اني لا اقضي على ابي الطيب بان جميع كلامه مسلوب ، ولا كل فضله
 مغصوب . واذا جاء البيت الذي لم يبلغني من اين اخذه مما يستحسن سلمته اليه
 حتى يوجد له استخراج سرقة . . (٢) . لا مأخذ على هذا الكلام ، فالرجل

١ ابن وكيع ، ص ١٣ — ١٨ .

٢ المصدر ذاته ، ص ٢٣ — ٢٤ .

لم يدع الاحاطة بكل شيء ، ولا اغلق الباب امام غيره . وقد عرف ما بنفسه وما يجب ان يقال فارتأه واوضحه . يبقى هذا السؤال الرئيسي : هل ان الشاعر اعتمد هذه السرقات التي تنبه لها الناقد ؟ هل قصد اليها في التراث او في مخزونه الثقافي بوعي وارادة ؟ ام ان بعضها من هذا ، والاخر لا ارادة له فيه ، بتأثير عمل اللاوعي في حالات الخلق الغامضة المقلقة ؟ ابن وكيع يريد لها لحصولها في شعراي الطيب ، ولتنبيهه اليقظ الى معظمها ، ليس الا ، وليكن لغيره ان يضيف او يقول ما يشاء . وما اردف به " باب وجوه السرقات " في المقدمة النظرية ، وقوعه على نوع من الشعر سماه المحدثون : البديع ، وظنوا انهم اول من ابتدعه وهو للقدماء قبلهم . وقد قسموه اقساماً ونحلوه القاباً تدخل في اقسام الشعر التي هي عنده . مثل سائر او تشبيه باهر او استعارة لفظها فاخر (١) . ثم افرد لانواع البديع ومحاسنه تعريفات وتمثيلات لا تتعدى بمجملها ما قرره ابن المعتز في كتابه " البديع " ، وما تواتر فاصبح معروفاً في القرن الرابع الهجري عند الجميع ، وهي : الاستعارة والاشارة في الشعر ، وحسن المطابقة ، والمجانسة ، ورد اعجاز الكلام على الصدور والالتفات ، واعتراض كلام في كلام لم يتم معناه ، والتتبيح ، وحسن التضمين ، والتقسيم ، والمقابلة ، والتسليم ، والاشارة ، والايغال ، والاستثناء ، والاستطراد والحشد السديد في المعنى المفيد ، والغلو ، وحسن الخرج المليح الى الهجاء والمديح (٢) . والغاية من ايراد هذه الامور البلاغية التي تبعد عن النقد الذي يعتبره هو صيغة اخرى (٣) ، تدخل ضمن غرضه الاكبر في الرسالة كلها ، وقد حدد لها بنفسه فقال : " . . . وقد قدمت لك من هذه الاقسام ما تقوى به معرفتك بنقد الشعر فائقه ومقصره ، واطلعتك على سرائر ، ذله ومتخير ، لتفاضل

٠ ١ ابن وكيع ، ص ٢٤ .

٠ ٢ المصدر ذاته ، ص ٢٤ — ٤٢ .

٠ ٣ المصدر ذاته ، ص ٤٠ .

بين الشعراء بأصل وتنطق بعدل . . (١) . كل هذا قبل ان يبدأ بعرض طريقته في النقد ، واسلوبه الذي سيعتمده في شرح ما وعد به ، وما هدف اليه ، لتكون له النصفة ويبعد عنه الحيف . يقول : . . ثم قد حسن الان ان اورد ما قدمت الوعد به من شرح ما اخذه ابو الطيب ، ولا اشح الا ما يقع فيه المعنى الذي لو كان له ، وقع لمثله جماله وحسن به مقاله ، او ما قارب ذلك . فأما الابيات الفارغات والمعاني المكررات المرددات ، فأني لا اشتغل بايرادها ولا اطيل الكتاب باعتمادها . ولكي اخاف ان يظن بنا غفلة عنها لا التجاوز لها ، فاحتاج الى ايراد شيء من ذلك خوفا مما ذكرت لك ، ولا يكون في غاية الفراغ من معنى يتعلق به . فاذا كان ابو الطيب يسهل عليه اخذ غير فائق ولا رائق لم يغفل عما اهتم به . على اني لا اذكر المعاني التي قد كثرت الشعراء استعمالها ، وواصلت استبدالها ، وصار مورد ها قد حصل له اسم السارق ، ولم يظفر بمعنى فائق . وذلك كشبيه الوجه بالبدر ، والريق بالخمير ، والمسك والماء الزلال ، والقدر بالغص ، وما اشبه ذلك من المتكرر المتردد ، والمألوف المتعود . وانما اعذر سارق هذه الالفاظ المتداولة والمعاني المتناولة اذا زاد في معناها او تملح في الفاظها . . هذا وما اشبهه من الالفاظ المتداولة والابيات الفارغة فاذا رأيتني اغفلته فلا تحمدن حامد نفسه عندك استخراج سرقاتها ولا تظن بنا عجزا عما قدر عليه ، ولا جهلا بما وصل اليه . لكنا تركناه عمدا وحذفناه قصدا . ولولا خوفنا من ظنون هذه الطائفة لاوردنا المعنى الفائق واللفظ الرائق الذي يتجمل به اذا كان اليه سابقا ، ويقبح به اذا كان سارقا . وحذفه لما يكسب الاخذ فضيلة ويلحق الاخذ رذيلة ، ونحن نبدأ الان بشعرا بي الطيب من اوله الى اخره . . (٢) . ابيات المعاني هي التي سيشتملها شرح ابن وكيع كما قررر للان . اما قيمة الموازنة او

١ . ابن وكيع ، ص ٤٣ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٤٣ - ٤٤ .

العرض او النقد في هذه الابيات ، فسيقررها المؤلف كناقد يعتمد الذوق الفني بالدرجة الاولى ، والشاعر في طبيعة بيتا لشعري المعروض ، والمنطق السائد في طريقة واسلوب الرجل خلال العرض كله ، وغير ذلك من جزئيات العمل النقدي والشعري العام .

النقد التطبيقي في الرسالة :

ويبدأه بأول شعر قاله ابو الطيب ، يقول اول شعر قاله ابو الطيب

احمد بن الحسين المتنبى قوله :

يَا أَبِي مَنْ وَدِدْتَهُ وَأَفْتَرَقْنَا
وَأَفْتَرَقْنَا حَوْلًا فَلَمَّا التَّقَيْنَا
وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَاكَ اجْتِمَاعَا
كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

البيت الاول هو الفارغ الذي قلت لا التمس له استخراج سرقة . والبيت الثاني هو بيت المعنى ، وهو مأخوذ من قول ابي الحسن جحظه انشدني ابي رحمه الله :

زَأْتِرْتَمَّ عَلَيْهِ حُسْنُهُ
رَاقِبَ الْغَفْلَةِ حَتَّى أُمَكَّتَتْ
كَيْفَ يُخْفِي اللَّيْلُ بَدْرًا طَلْعَا
وَرَعَا الْحَارِسُ حَتَّى هَجَعَا
رَكِبَ الْاَهْوَالَ فِي زَوْرَتِهِ
ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّى وَدَّعَا

قال ابو محمد : ولا اعرف في بيت ابي الطيب زيادة يفضل بها من سرق منه . وهذا من مساواة الآخذ والمأخوذ منه في الكلام حتى لا يزيد نظام على نظام . فالسابق اولى ببيته . (١) . " السرقة ظاهرة والوجه الذي اوردته الناقد لها صحيح ، وقد ندخل هذا " المعنى " في الشائع المشترك فنعذر الشاعر ونعذر للناقد . وهذا مثال واضح لكشف المؤلف عن غرض رسالته الحقيقي وطريقته في ذلك ، يليه استعراض جانبي لغير السرقات كما وعد . يقول :

يتلو هذين البيتين ثلاثة ابيات اولها :

أَبْلَى الْهَوَىٰ أَسْفَا يَوْمَ النَّوَىٰ بَدَنِي وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ
فهذا فارغ لا ذكر فيه • وثانيه قوله :

رُوحٌ تَرَدَّدُ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ إِذَا أَطَارَتْ الرِّيحُ عَنْهُ الثُّوبُ لَمْ يَبِينِ
وانما ذكرنا لك هذا البيت لندكر استحالة لفظه • فأما معناه فمستعمل ولفظه
مستبذل لان تشبيهه جسمه بالخلال كثير جدا (١) • وبهذا يستطيع توفير بعض

ارائه النقدية ، وتحقيق بعض مشاكل النقد ، ومن خلال فهمه لابيائ المعاني
عند شرح سرقاتها ، يقول في المبالغة • وللشعراء مبالغات ممكنة ومستحيلة ،
والممكن احسن عند كثير من الادباء من المستحيل • فمن ذلك قول القائل :

مَنْعَتْ مَهَابَتُكَ الْقُلُوبَ كُلَّهَا بِالْأَمْرِ تَكْرَهُهُ وَأَنْ لَمْ تَعْلَمْ
فبالغ واحسن فادعى ممكنا في الهيبة ، واراد ابونواس المبالغة في

الهيبة فقال ما اسرف فيه وهو :

وَأَخَفَّتْ أَهْلَ الشَّرِّ حَتَّىٰ أَنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ (٢)

وقد ابدع ابن وكيع في تحليل بيت ابي نواس وتحقيقه ، مما يؤكد استيعابه
لمعظم حقائق النقد وقضاياها التي تعتمد على العلم والدرية بقدر ما تعتمد
على الذوق والحس الجمالي الاصيل • ومن جملة ما ادعاه على ابي الطيب

في ابيات المعاني — وطريقته في ذلك تدور حول استخلاص هذه الابيات من
قصائد يورد مطلعها ، وحسب ترتيبها التاريخي ، ثم يقف على ما يعتقد انه
سرقة منها فيحققه — هذا البيت من قصيدة سقط نصف مطلعها ، يقول :

ذَمُّ الزَّمَانِ إِلَيْهِ مِنْ أَجِبَّتِهِ مَا ذَمُّ مِنْ دَهْرِهِ فِي حَمْدِ أَحْمَدِهِ

١ • ابن وكيع ، ص ٤٥ — ٤٦ •

٢ • المصدر ذاته ، ص ٤٦ •

هذا البيت كما ترى كأنه رقية عقرب (١) . وقد تكلف بعض أدباء عصرنا تفسيره فقال : الهاء في " اليه " عائدة على العاشق ورواه " ما ذم من بدره في حمد احمده " والبدر هو معشوقه ، وصير المعشوق بدر الزمان مبالغة في حسنه ، و " احمد " يعني نفسه وجعل نفسه احمد الزمان ، اى ليس في الزمان احمد اخر مثله . والمعنى : ان هذا العاشق كان يذم من معشوقه الذى هو بدر الزمان جفاء . فاجتمع الزمان معه على ذم تلك الحال من معشوقه ، في حال حمد الزمان لاحمه ، اى فالزمان معه يذم هجر احبته ويحمد له لفضله ونجابتة . قال ابو محمد : وليس هذا المعنى مما يلتمس له استخراج سرقة ، وانما ذكرته لما اشترطته في ذكر غث كلامه . وقد تكلف المفسرون مشقة في تفسير غير مفيد ولا سديد . وهذا الكلام القليل الفصول الكبير الفضول البين التكلف ، المشبه الفاظ اهل التصوف (٢) . " بعض ادباء عصره " الذى تكلف تفسير هذا البيت تفسير جنى صاحب ابى الطيب ، وقد قلنا ان رسالة ابن وكيع سايرت من جهة موقف الحاتمي ، وردت من جهة اخرى على ابن جنى المفسر والنحوى . والذى لاحظناه ان ابن وكيع كغيره من النقاد العرب يلتزم ما تقرر لدى الادباء من اعتماد القديم — عمود الشعر وعمود القصيدة والذوق احيانا ، وغير ذلك من البديهيّات النقدية العامة — فيدل على ذلك بحس جديد . فألفاظ الشعراء غير الفاظ اهل التصوف وهذا يتفق عليه الجميع .

اما انه يتمتع بقدرة فنية فاعلة تصل الملاحظة الدقيقة بالغوص على دقائق المعنى ، والتحليل العميق ، والفهم القادر ، فواقع تفسره غالبية وقفاته عند ابيات المعاني للشاعر الكبير .

وقال المتنبي :

- ١ . استعمل هذا التشبيه قبله صاحب بن عباد في رسالته عن المتنبي .
- ٢ . ابن وكيع ، ص ٤٧ — ٤٨ .

قَفَا قَلِيلًا بِهَا عَلَيَّ فَلَا أَقْلَ مِنْ نَظَرَةٍ أُزُودُهَا

قال ابو محمد : معنى هذا البيت غير غريب ، ولكن ابا الطيب لا يحقر شيئا بل يأخذ الشعر الرفيع والوضيع .

... فيجب علينا الاهتمام بما اهتم به ... (١) . والذي يبطل هذه التهمة غالبا ترددنا امام عملية الاخذ ، ان كانت واعية معتمدة ، او العكس ، وانها تهمة باطلة من الاساس .

وهناك سرقة اتفق عليها الحاتمي وابن وكيع فأرجعاهما الى نفس الشاعر ، وهذا دليل اخر على كون " المنصف " صدى لما جاء في " الموضحة " ، وان ابا علي افاد ابا محمد كثيرا في تهئية هذا الجوال المعادي الطامع في تحصيل سرقات المتنبي بشكل مفصل وشامل ودقيق . جاء في " الموضحة " : فقلت له : افمن اختراعاتك قولك في صفة نعلك :

لَا نَاقَتِي تَحْمِلُ الرَّدِيْفَ وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمَشْغَرُهَا زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مَقُودُهَا

فقال : اليس هذا مخترعا ؟ فقلت : اجل ، وهو مخترع لابي نواس في قوله :
أَلَيْكَ أَبَا الْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى عَلَيْهَا ، امْتَطَيْنَا الْحَضْرَمِيَّ الْمَلْسَنَا
قُلَائِصُ لَمْ تَحْمِلْ حَنِينًا عَلَى طَلَا وَلَمْ تَدْرِمَا قَرْعُ الْفَنِيْقِ ، وَلَا الْهِنَا
وقولك : (ناقتي) من قول ابي نواس (قلائص) وقد زدت المعنى واشبعته في
البيت الثاني وتركت من قول ابي نواس . البيت الثاني . . وزدت انك لا تجهد بها
بالسوط . وان شراكها كورها ، وزمامها مشغرها ، والشسوع مقودها (٢) . وجاء
في " المنصف " قوله : وقال المتنبي :

-
- ١ ابن وكيع ، ص ٤٩ — ٥٠ .
٢ الموضحة ، ص ١٠٧ — ١٠٨ . قلنا ان ابن وكيع رد في " المنصف " ضمنا على ابن جني ، وأشار الى المهلب ، ص ٨٣ — ٨٤ ، ونقل عن الحاتمي كما تحقق لدينا من الشواهد المشتركة والحاصلة ، في رسائل هؤلاء .

تقبل

لا ناقتي / الرديف ولا بالسوط يوم الرهان اجهدها
شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها
اراد انه ركب نعله . فقصد الاغراب ، وقد سبقه الى هذا ابونواس فقال :
اليك ابا العباس من خير من مشى عليها امتطينا الحضري الملسنا
قلائص لم تعرف حنيننا على طلا ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا
فأغرب لمخالفتها حال القلائص في عدم الحنين على الطلا والجهل بقرع
الفنيق . وجاء به في احسن كلام واصح نظام ، فهو ارجح لفظا من ابي الطيب
واولى بما سبق اليه (١) . يجب الا نستغرب نقل ابن وكيع عن صاحب "الموضحة"
وقد كان لصدور مناظراتها وشهرتها في تلك الحقبة ما كان .
وقد ادخل ابن وكيع بعض ابيات هذه القصيدة في وجوه : فساد
الاقسام وضعف النظام ، وفي القسم الذي يضير على التفتيش والانتقاد الى تقصير
او فساد — وهذا القسم من مذموم السرقات — وفي قسم ما احتذى عليه وان
فارق ما قصد به اليه ، وقال فيها اخيرا : "واظن ان ابا الطيب استضعف نسج
هذه القصيدة فجعلها مما قاله في الصبي ليقدم عذره في ضعفها . (٢) ."
وهي قصيدة ضعيفة بالفعل ، رديئة الصنعة واضحة التكلف .

ابو الطيب بين الواقع والرفض :

ذكرنا سابقا ان الحاتمي هو اول من اثار قضية — او تهمة — انكار
المتنبي معرفته بابي تمام واخذ به عنه في النقد الذي دار حول شعره ، وذلك
في احدى مناظرات "الموضحة" كما مر . وقد تبعه في ذلك صاحب بن عباد
بعد ان وصل اليه ان ابا الطيب ادعى جهله بالطائيين وقد اخذ عنهما

- ٠١ ابن وكيع ، ص ٥٢ .
٠٢ المصدر ذاته ، ص ٥٦ .

الكثير . وكذلك فعل ابن وكيع الذي عرفه احد من يثق به من اهل الادب ان ابا الطيب قال الشعر ولم يعرف ابا تمام ، فكان ان عالج هذه القضية في "منصفه" بشكل نقدي مفصل ، ورزين . يقول في هذا البيت : ثم ختم القصيدة بقوله :

فَعَدَّ بِهَا لَا عُدَّتُهَا أَبَدًا خَيْرَ صَلَاتِ الْكَرِيمِ أَعُودُهَا

فبينما يخبر عن الممدوح لترديده صلاته اذ يسأله ان يعود اليها والعائد يكون بادئا . فكانه قد نسي قوله :

وَمَكْرُمَاتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الْبَرِّ إِلَى مَنْزِلِي تُرَدُّهَا

فقوله "فعد بها" ، "الهـا" "راجعة الى المكرمات والمردد لا تسأل عودته . فأما للمعنى في البيت فمن قول البيد :

فَعَدَّ أَنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادٌ وَظَنِّي يَا ابْنَ أُرْوَى أَنَّ تَعُودًا

وقال غيره :

بَدَأْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ فَأَتْنَيْتَ جَاهِدًا فَإِنْ عُدْتُمْ أَتْنَيْتُ وَالْعُودُ أَحْمَدُ

وقال ابو تمام :

بَدَأَ النَّدَى وَأَعَادَهُ فِينَا وَكَمْ مِنْ مُبْدِيٍّ لِلْعُرْفِ غَيْرِ مُعِيدٍ

وقال :

أَنَّ ابْتِدَاءَ الْعُرْفِ مَجْدٌ بَاسِقٌ وَالْمَجْدُ كُلُّ الْمَجْدِ فِي أَتَمِّهِ

ومعنى بيت ابي تمام ان ذكر ابتداءه وطلب عوده ، ولم يخبرنا بترديد ذلك وتكرره . وابو الطيب طلب المعاودة كانه مبتدى ، فما طلب بعد تكرير الممدوح وترديده . وفي لفظ بيت ابي تمام جزالة وفي لفظ ابي الطيب عذوبة واختصار يستحق المعنى به . هذا ان اسلم ابو الطيب معرفة لابي تمام ، فقد عرفني من اثق به من اهل الادب انه قيل له : انت تأخذ من شعراي تمام فقال : قلت الشعر وما اعرف ابا تمام . وهذا الكلام يحتمل الصدق لانه ذكر انه قال الشعر في الكبر وهو صبي ذو وفرة . وذلك قوله :

لا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى مَشْوَرَةُ الصَّغِيرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ
على فتنٍ مُعْتَقِلٍ صَعْدَةٍ يَعْلَمُهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السَّبَالِ

فغير منكرا ان يحركه طبعه على قول شي من الشعر وهو لا يعرف الشعراء ، ثم يعرفهم
ويأخذ من معانيهم فما في كلامه براءة مما اتهم به اذا توول على هذا التأويل .
فان جوز متعصب ان يكون معنى كلامه . قلت الشعر وما اعرف ابا تمام مذ قلته الى
وقتي هذا ، قلنا له : اذا تأولته على هذا المعنى كان اول كلام غث العبرة ،
لانه يخبرنا انه قال الشعر وهذا ما لا يجهل من امره ولا يتعلق بقوله ، وما اعرف
ابا تمام . وكان يكفي منه ان يقول : وما اعرف ابا تمام ، وانما ينبغي ان يكون هذا
جوابا لسائل لا يعرفه يقول : انت تقول الشعر واذا قلته اتسرق من ابي تمام ؟
فيقول عندها : قلت الشعر وما اعرف ابا تمام ، فيصح الكلام لا الدعوى في انكاره
معرفة ابي تمام . لان افكه في انكار مثله واضح . ودليل بهته لائح لامرين :
احدهما — ما اورده من المعاني الكثيرة التي اخذها من شعره لا يجوز
مع تواترها وتوافرها ان يدعى بها اتفاق الخواطر ولا تساوى الضمائر ، لان ذلك
كما قلناه ينساغ في اليسير ويمتنع في الكثير .

والاخر — ان ابا تمام قد اعطي من اشتهار الاسم في الخاصة مثل ما
اعطي من اشتهاره في العامة ، وهو اشتهار لا يجوز لمتأدب جهله . افترى ابا
الطيب ما جالس المتأدبين ولا دخل سوق الوراقين فيسمع خبره على اللسان
مشهورا وفي الكتب مذكورا . هذا خارج عن الحق مباين للصدق . ولو كان
قال (بدل) ما عرفت ما قرأت شعراي تمام لكان " قرأت " امكن من " عرفت "
لانه يمكن ان لا يقرأ ولا يمكن ان لا يعرف . وان ابا تمام معه مظلوم الاحسان
مجحود الامتان ، محتقرة منفعتة ، مكفورة نعمته . وسيمضي من اخذه عنه
ما يدل انه بهذه الصفة . ولو علم الراغب به عن سرقة شعراي تمام اني

سأورد من سرقاته ممن لا يعارض ابا تمام به ولا يوازن مقداره ولا يشق غباره من الشعراء المحدثين الذي (ليس) لهم صيت ابي تمام ولا صنعة ولا علمه ولا رفعة وهو نصر الخبزري لا شغل عن الانتصار له في ابي تمام ^(١) ورغم تواتر الرواية على لسان اكثر من ناقد ، وتوفر النقد الذي رفض هذا الادعاء ، يبقى الشك في امكانية صدور هذا الانكار عن ابي الطيب نفسه ، وبهذا الشكل بالذات ، ولو في ايام صباه . وكما قد المحنا سابقا الى انه من الممكن ان يكون الحاتي او غيره قد افعل هذه الرواية التهمة والصقها بأبي الطيب ، في الحملة التي استهدفت هدم شعر الرجل في بغداد اذ ذاك . لان قضية انكاره ابا تمام والبحترى باطلة اصلا ، يثبت ذلك الواقع الشعري والنقدي والروائي الذي تلتقها . فهناك شعره الذي اعتمد فعلا على بعض معاني الشاعر الطائي الكبير . وهناك النقد الذي تنبه الى هذا الشعر ومثل له ، وهناك الرواية التي تؤكد وجود ديواني الطائيين بين اوراقه ودفاتره عند مقتله . وفي ذلك يقول الاصفهاني : " . واخبرني الحلبي انه قيل للمتنبي معني بيتك اخذته من قول الطائي فاجاب المتنبي : الشعر جادة وربما وقع حافر على حافر . وكان المتنبي يحفظ ديوان الطائيين ويستصحبهما في اسفارهم ويجدهما ،

١ . ابن وكيع ، ص ٥٩ - ٦١ . وقد وعد بعد ذلك بأن يفلي سرقات المتنبي

من الخبزري . وعن الذين ينكرون هذا قال انهم عرفوا ابا الطيب بعد ان اشتهر فاستهجنوا اخذه عن هذا الشاعر المغمور . ثم اورد حادثة حصلت لشيخ مع ابي الطيب يعرفه علي بن حمزة البصري صاحب الشاعر ، تؤكد معارضة المتنبي للخبزري بقصيدة ذكر له بعض ابياتها . وقال ان عدم اشتغال العلماء برواية شعر الخبزري لدناءة صنعة لا يمنع اخذ المتنبي عنه ، فكيف بأبي تمام على شهرته وعظمة شعره . ص ٦١ - ٦٢ .

فلما قتل توزعت دفاتره فوقع ديوان البحترى الى بعض من درس علي وذكر انه رأى خط
المتنبى وتصحيحه فيه ٠٠ (١) * فقد كان الشاعر ، على الرواية ، يحفظ ديوان
الطائيين ويستصحبهما ، وهذا غير مستغرب ، ويؤكد بالوقت ذاته الشك في امكانية
نكرانه لهما ، على الواقع . اما انه كان يجحد هما ، فالحجد غير نكران المعرفة .
ولا يبعد ان يجحد فضلها اذا كان قد عيب او غير بذلك ، ولكن ليس الى حد
الانكار المطلق كما زعم الحاتمي وتبعه الآخرون . وهذا الضعف في نسج الرواية هو
الذى حمل ابن وكيع على تسخيفها وربطها بالواقع الشعري والعملي لدى الشعراء .
وجاء تحليله الدقيق ظاهرة " نقدية " رائعة ، تعتمد الموضوعية والمنطق والملاحظة
الواعية ، في وقوعها على الرواية ، والغوص على معناها ومغزاها . ولكن تسليمه
بخطأ الرواية لم يمنعه — اعتمادا على السببين اللذين فضح بهما ادعاء ابي
الطيب وهما شعره وشهرة ابي تمام — من لومه على عدم اعترافه بالسرقة من ابي تمام ،
يقول : ٠٠٠ وحكي عن اصحاب البحترى انه قيل انك سارق بهذا المعنى لانك
سرقت من ابي تمام فقال : العايب بأخذى من ابي تمام ، والله ما قلت شعرا قط الا
بعد ان اخطرت شعره على تفكيرى . ثم اسقط البيت بعد ذلك من شعره فلا
يكاد يوجد الا في اقل النسخ . قال ابو محمد : فليت حصل لنا من ابي الطيب
المتنبى ، الذى زعم انه قال الشعر وما يعرف ابا تمام ، من الاقرار باخذه عنه ، مثل
ما حصل لنا من البحترى ، مع كثرة اخذ ابي الطيب منه على قلة شعرا ابي الطيب
وكثرة شعر البحترى . وكان استعمال الصدق في من اراد ان يسرق النبوة احسن
به ٠٠ (٢) * يريد ان يعترف وهذا اخطر من الانكار . وهل اعتمد ذلك
ليعترف ؟ . ولم يرض ابن وكيع بهذا ، بل اوصل سرقات ابي الطيب من حبيب الى
اربعمائة سرقة او اكثر ، مقدار ما اخذ البحترى من ابي تمام على غزارة شعره (٣) .

١٠ الاصفهاني ، ورقة رقم ٣٠

٢٠ ابن وكيع ، ص ٣٨٠

٣٠ المصدر ذاته ، ص ٢٣٠

وعلى اهمية هذه القضية بالنسبة لشعر المتنبي والنقد الذى دار حوله من ناحية
الاصالة والابداع ، يبقى الواقع الشعرى والنقدى اسلم من الظن الدائم بصحة
الرواية او خطأها على ما فيها من تحامل وضعف . وكان ابن وكيع دائم التنبه
الى هذا فأثبتته عليه ، يقول : وقال المتنبي اثر هذا :
فالليل منذ قدّمت فيها ابيضُ والصبحُ منذ رَحَلَتْ عنها اُسودُ
قال ابوتام :

وكانتَ وليس الصبحُ فيها بأبيضٍ فعادَ وليس الليلُ فيها بأسودَ
فهذا اخذ فاضح وغصب واضح ، لا يليق بمن اخذه ان يقول ما اعرف ابا
تمام . وقد ساواه في المبنى والمعنى فالمسلوب اولى بسلبه (١) مثل هذا يدفع
الشك عن كل ظن وادعاء .

عود الى قضايا النقد الاخرى :

ذكر المؤلف ان القضية الاساسية التي وقف عليها رسالته كانت السرقات ،
وغير ذلك يدخل في ما نسميه : النقد الاحتياطي ، كي لا يظن به غفلة او تجاهل
او تجاوز كما كرر . ولكنه ما من مرة اساء الى طريقته في معالجة سرقات الشاعر ،
فان احسن الاخذ ذكر له ذلك وان اساء فضل عليه المسلوب . وقد ادخل هذه
المسروقات في الابواب المحموده والمذمومة التي قدم بها الكتاب ، واشهرها في
القسم الاخير من الرسالة : نقل اللفظ القصير الى الطويل الكبير او العكس وهذا
حسن ، او نقل العذب من القوافي الى المستكره الجافي ، او استعمال الارذل
في موضع الافضل وغير ذلك . الى جانب الاخطاء اللغوية والنحوية التي وردت
على سبيل الاحتياط . وقد تدخل ابن وكيع اكثر من مرة في تصحيح النظم (٢) .
كأن يقول : قال المتنبي :

١ . ابن وكيع ، ص ١٣٧ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ١٧٤ و ص ١٠٢ .

ترابُهُ في كلابٍ كَحَلٍّ أُعِينَهَا وسيْفُهُ في جَنابٍ يَسْبِقُ العَدْلَا

ولو قال :

أَحْسَانُهُ في كلابٍ غِيْثٌ مُجْدِبُهَا وسيْفُهُ في جَنابٍ يَسْبِقُ العَدْلَا

لصح التقسيم ، اذ ليس التراب ضد السيف (١) . وكان غالبا ما يستشهد بشعر له على سبيل التفاصح او غير ذلك (٢) . وقد وقف عند بعض الابيات التي عالجها الحاتمي والصاحب قبله ، فبينما ينتقد الحاتمي هذا البيت : . . . وان ظنوني في معاليك تظلع . . . على اساس الخطأ في الاستعارة كما مر ، يورده ابن وكيع على اساس انه سرقة لا غير (٣) . وعنده ان ابا الطيب اكثر الناس ركوبا للضرورات والمجازات (٤) ولهذا تكثر عنده الاخطاء الخطيرة والسخيفة على السواء . ومن اللحن التي يذكرها له والتي ستقوده الى تصريح خطير قوله : وقال المتنبي :

فروءى الرماح اذ هب للغياض ظروءى لغل صدر الحقود

فقوله : " اذ هب للغياض " لحن ، لانه يقال : ذهب به فأذ هبه ، فكان يجب ان يقول اشد اذ هابا للغياض ، او يقول اذ هب بالغياض ليسلم من الخطأ . ولكنه لم يفرق بين الامرين لضعفه في العربية . ومما ادلك على صحة ذلك ما حدثنا به شيخنا ابو الحسن المهلبى رحمه الله . قال : حضرته في مجلس لبعض الرؤساء وجرت مسألة في المذكر والمؤنث ، فقلت : قد يؤنث المذكر اذا نسبت بمؤنث . فقال : من قال هذا ؟ فقلت : قاله سيبويه واستشهد بقول القائل :

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَرَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ اعاليها مر الرياح النواصم

ومثل ذلك :

- ١ . ابن وكيع ، ص ١٧٤ و ص ١٠٢ .
- ٢ . المصدر ذاته ، ص ٥٥ مثلا .
- ٣ . المصدر ذاته ، ص ١٠٣ .
- ٤ . المصدر ذاته ، ص ١٢٦ .

وَيُشَرِّقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعَتْهُ كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَا قَرَمِنَ الدَّمِ
فقال : لا اعرف هذا ، ولعله مذهب للبصريين ولا اعمل على قولهم . قال : فقلت
له : هذا في كتاب ابن السكيت في المذكر والمؤنث ، فقال ليس ذلك فيه .
فأخرجته من خزانة الرئيس الذي كنا عنده فلما قرأه قال : ليس هذا بخط جيد ،
انا اكتب خيرا منه . فقلت : ما جلسنا للتخاير بالخطوط فانقطع عن يدي .
وقلت له يوما : كيف تصغر مختارا ؟ فقال : مختار لا يصغر . وقلت لهن مختارا وام
حنين لك العافية ، وهذا يشهد لك بما قلناه (١) . فتلهي المتنبي بحسن الخط
عن التعليق والاستجابة ، مبالغة اعتمدها المهلبى لتصديق روايته ، وهي غريبة
على المتنبي كما يعهد تاريخ الادب . فأما ان تكون الرواية مصنوعة ، وان
تكون قد حصلت بالفعل في صبا الشاعر حين كان يطلب اللغة والشعر ، فلا
يلازم اذا غاب عنه ما لا يتأتى تمامه لاحد في الصبا او في الكهولة . ويزيد الشك
في صنعة الحادثة ما يثبتته مؤرخوا بني الطيب من قدرته اللغوية ومعرفته
الواسعة بالعربية ، وربما يجوز للشاعر ان يقترح استعمالا كهذا . الا يستعملون
خيرا من وشرا من ؟ وكما يتضح تصنع المهلبى في اختراع الرواية ، يتضح حقد
ابن وكيع في تقرير ضعف الشاعر والتسليم لشيخه بصحة ما يقول دون تحقيق
ونظر ، ولاول مرة بهذا الشكل الجاف في " منصفه " . ومن اخطائه النحوية كما
يوردها ابن وكيع قوله :

كَيْفَ أَكْأَنِي عَلَى أَجَلٍ يَدٍ مَنْ لَا يَرَى أَنَّهَا يَدٌ قَبْلِي

لم يهمز " اكأني " على غير قياس ، وما اكثر ما يسقط الهمز من ابواب النحو ، وانت
تري ذلك كثيرا في شعره (٢) . ومثل ذلك ما جاء في هذا البيت :

هَذِي بَرَزْتُ لَنَا فَهَجَّتْ رَسِيمًا ثُمَّ انْصَرَفَتْ وَمَا شَفِيتْ نُسَيْمًا

١ . ابن وكيع ، ص ٨٣ - ٨٤ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٨٢ . وقد اورد له اخطاء في الهمز ص ١٦٠ .

حذف حرف النداء من المبهمات لحن عند البصريين لانه لا اعراب له يدل على ارادتك كما يدل قولك : زيد اقبل ، على المحذوف وهو في المبهمات التي لا اعراب لها لا يدل على مرادك الشكل ، ولا يجوز الا في رماية شاذة غير موثوق بها ولا معمول عليها (١) . ولحن اخر في الاعراب وقع في هذا البيت :

أَنْتَ يَكُونُ اَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمُ وَاَبوكَ وَالثَّقْلَانِ أَنْتَ مُحَمَّدُ

وقال ابو محمد : وفي البيت كلفة وليس بلفظ مطبوع ولا ملتذ المسموع .

وفي اعرابه مطعن وتقديره . كيف يكون آدم ابا البرية وابوك محمد وانت الثقلان .

فصل بين المبتدأ الذي هو ابوك ، وبين الخبر الذي هو محمد بالجملة .

هذا قول بعض النحويين ، ويجوز عندي ان يكون مراده : انى يكون ابا البرية آدم وابوك محمد ابتداء وخبر ، والثقلان انت عطف على المبتدأ . وهذه تقييدات يحتمل ورود مثلها لبدوى لا يعرف الاختيار ويستعمل وجوه الاضطرار . فأما المحدث المطبوع فلا عذر له في ان يأخذ من الكلام جوهره ويصطفي منه متخيراً (٢) .

ورغم انه يعتقد ان الدين بمعزل عن الشعر وان الصدق لا يلتصق من الشاعر (٣) ، فقد وقف عند ابیات ادعى ان فيها قلة ورع ورأفة ودين (٤) ، وهذا لا يؤخذ منه جدى لانه كاستعمال الشاعر لبعض الالفاظ العامية (٥) ، والفاظ المتصوفة والاحالات ، والاختفاء العروضية ، والنسج الضعيف والكثير غير ذلك ، اورده على سبيل الاحتياط وابعاد الشبهة .

- ٠١ ابن وكيع ، ص ١٥٢ .
- ٠٢ ابن وكيع ، ص ١٤١ - ١٤٢ . وقد انتقد هذا البيت الحاتمي والجرجاني في البيئة العراقية . كما ان صاحب " المنصف " وقف عند غالبية الابيات التي وقف عندها نقاد هذه البيئة مثل : احاد ام سداس لانك اسود في عيني من الظلم . اى محل ارتقى . فأرحام شعر يتصلن لدنه خف الله واستر ذاك الجمال ببرقع كأن الهام في الهيجا عيون ، وغير ذلك .
- ٠٣ المصدر ذاته ، ص ١٦
- ٠٤ المصدر ذاته ، ص ١٥٦ - ٢١٦
- ٠٥ لفظة مخشبا ص ٢٥٠

اما الموازنات التي جاءها فقد اكد فيها قدرة فريدة على المقارنة والتحليل ، والتحليق في المعنى الواحد يفليه فلا يخفى على عقله وذوقه كبير شي * ، وقد اكثر من هذه الموازنات وابدع في الجميع .
قال المتنبي :

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ الْفَهِمِ مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورُهَا لَا تُورِقُ

قال بعض البادية :

لَوْ أَنَّ رَاحَتَهُ مَرَّتْ عَلَى حَجَرٍ صَلَدَ لِأُورْقٍ مِنْهَا ذَلِكَ الْحَجَرُ

وقال مسلم :

لَوْ أَنَّ كَفًّا أُعْشِبْتَ لِسَمَاحَةٍ لَبَدَا بِرَاحَتِهِ النَّبَاتُ الْأَخْضَرُ

قال ابن الخياط في طاهر بن الحسين :

عَجِبْتُ لِخِرَاقَةِ ابْنِ الْحُسَيْنِ كَيْفَ تَعْمُ وَلَا تَغْرِقُ
وَيَحْرَانُ مِنْ تَحْتِهَا وَاحِدٌ وَمِنْ فَوْقِهَا آخِرُ مُطْبِقٍ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ عِيدَانُهَا وَقَدْ مَسَّهَا كَيْفَ لَا تُورِقُ

فتعجب ابو الطيب من ارض سحاب آلفهم فوقها لم لا تورق صخورها ، وخبر البدوي ان يد الممدوح لو مرت على حجر لا ورق ، فأخبر بإوراق الحجر ولم يتعجب من ان لا يورق ، فبيته ارجح وامدح وهو اولى بما قال . ومعنى بيت مسلم : لو كان ممكنا ان يعشب كف لا عشبتي يدك . خبر ان ذلك غير ممكن ، والاخبار بإوراق الحجر ابلغ في المدح من اعشاب الراحة بعد ما دل على ان ذلك لا يمكن فيها . وقد اشترك ابو الطيب وابن الخياط في التعجب ، ولكن الصخور ابعد من الاوراق وان كانت العيدان قد بعدت من امكان الاوراق فيها . ولكن ما يمكن ان تورق في حال اقل مبالغة مما لم يكن اوراقه على حال . فعلى هذا الترتيب فالبدوي احق بما قال ثم ابو الطيب

- ٤٩ - مندور ، محمد ، النقد المنهجي عند العرب ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ،
١٩٤٨ .
- ٥٠ - هدارة ، محمد مصطفى ، مشكلة السرقات في النقد العربي ، مكتبة الانجلو
مصرية ، مصر ، ١٩٥٨ .
- ٥١ - الواحدى ، ابوالحسن علي بن احمد ، شرح ديوان ابي الطيب المعتنبي ،
تحقيق فردريك ديتريشي ، طبع في مدينة برلين ، ١٨٦١ .
- ٥٢ - ياقوت الرومي ، شهاب الدين ابو عبدالله ، ارشاد الاريب الى معرفة الاديب
او معجم الادباء ، سلسلة الموسوعات العربية ، الطبعة الاخيرة ،
مكتبة عيسى البابا الحلبي وشركاه ، مصر ، سنة .
- ٥٣ - Trabulsi, Amjad , La Critique Poétique Des Arabes ,
Institut Français De Damas , Damas , 1955 .

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

The Criticism that was written on the Mutanabbi's
Poetry in the Fourth Century A.H.


by

Mr. Mansour Jurjus Ajami

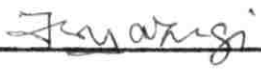
(Name of Student)

Approved:


Prof. M.Y. Najm


Advisor

Prof. Kamal Yazigi


Member of Committee

Prof. Fuad Tarazi


Member of Committee

Member of Committee

Date of Thesis Presentation: 20/9/1968.

واقصد القوم مسلم (١) . وليس ابلغ من رصد المعنى في متعدد نماذجه الشعرية ،
الا الموازنة الرائعة بين الجميع ، على لطافة الذوق وبراعة الحس وروعة الكشف
عن المعنى بكل تفاصيله ودقائقه . واذا كان التزام ابي الطيب سخيلا المعاني قد
الزم ابن وكيع الشغل به (٢) ، فقد كان على الناقد ان يستخف بعبقرية الشاعر
والا يثني عليه بكلمة لطيفة فيبعد عن الانصاف كما اتهم . ولكنه افرد لنقده
موضوعية " فذة " ورسالة علمية نقدية اجتنبت سخرية صاحب وعنف الحاتمي
وجرأته ، وجانب الحق والانصاف فما تغافلت عن فضل ولا تجاهلت حسنة اتاها
الشاعر في ساعات خلق راضية . . . وقد دل على جمال ذوقه واعتدال منطقته ،
بلطف اللهجة وبساطة العرض على غير انفعال وصخب ، واتزان التعليق والمقارنة
فابتعد عن جفاء اللفظ وثقله . وغابت عن النص الفاظ " السرقة " ومشتقاتها
وتوابعها كالاعتصاف والسلب والاغارة ، وجاءت الاشارة الى ذلك باللفظ ما يكون ،
كأن يقول : وهذا ينظر الى قول فلان ، او : يقرب من هذا قول فلان ، او : وهذا
معنى نبهه اليه فلان ، او : اشبه بهذا قول فلان . . . دون ان يغفل عن مدح
احسان الشاعر ان كان ، فلا يدل على نفسه بالحيف والتحامل والنقمة كما فعل
الحاتمي والصاحب بن عباد .

ونستطيع القول بحق ان ابن وكيع قد انصف ابا الطيب والنقد الذي دار
حول شعره كثيرا ، وسواء صح ما اعتمده ام لا فقد وفق فنيا الى ما اراد . وجاء
عرضه للسرقات وكشفه عنها في ابيات المعاني ، الى جانب اللحن والغثاءات
والمحالات والسقطات الاخرى التي لا يسلم منها شاعر ، راعيا بموضوعيته امينا
لا سلويه ومنهجيته ، معتدلا ، رزينا ، منصفا غير بعيد عن الحق الذي التزمه في كل
نص .

١ . ابن وكيع ، ص ٩٣ . ومن بديع موازناته ما ورد في صفحات : ٩٢ ، ١٠٩ ،

١١٠ ، ١٣٩ ، ١٧٢ و ١٩١ .

٢ . المصدر ذاته ، ص ٨٩ .

وقد افرد لنفسه بهذا المنطلق ارادة نقدية خاصة اخلصت للعمل الفني دون اعتبار كبير للوجهة التي اتفقت له ، اذ الاهم ان ينجح فنيا ، سواء لزم الشاعر ام عارضه ، وقد فعل . اما كون رسالته صدى للبيئة العراقية ، لانها واكبت حركة ردة الفعل من ناحية فسايرت الحاتمي والصاحب وردت بالوقت ذاته على كبير حركة الفعل ابن جني صاحب الشاعر ، وواسطة " لوساطة " الجرجاني ضمن هذه الحركة ، فلن ينزع عنها صفة الجدة والتفرد والامتياز . فهي الرسالة الشاملة الوحيدة التي الفت في نقد ابیات المعاني في شعراي الطيب ، والوحيدة التي انصفت سرقات الشاعر وبرزت معظمها ، وشهدت لصاحبها بالحسن والسبق ، والتي تميزت بلطف اللهجة ورصانة الاسلوب وروعة الموازنة ودقة الملاحظة والربط والاستجابة وغير ذلك . وبهذا اثبتت نفسها كمؤلف نقدي رائع في النقد الذي دار حول شعراي الطيب ، وفي نقد المعاني عامة ، في الشعر العربي . وليست آية ذلك في ابتداء مذهب نقدي مميز ، بل في سلوك منهجية معينة ، واعتماد صيغة اسلوبية خاصة تشمل خطرات المؤلف وآراءه واستجاباته لكل مؤثرات النقد وقضايا ومشاكله . فأبن وكيع ميز لنقده مذهباً خاصاً في السرقات واعتمده ، لانه اراد نقده لذلك . والذي استجد الى جانب هذا اغنى موقفه ولم يوهنه . ولا بد اخيراً من ان نعترف لابن وكيع بزعامة حركة النقد المعارض - والمنصف غالباً - في البيئة المصرية في القرن الرابع الهجري والتي استجابت لحركة ردة الفعل التي ثارت حول شعر المتنبي في البيئة العراقية ، فتأثرت واثرت . فنظر ابن وكيع الى الحاتمي ونظر الجرجاني اليه ، واهى للعميد في القرن الخامس الهجري ، في البيئة المصرية ذاتها ، باستئناف حركة العداء للشاعر الكبير الذي تكف النقد حول شعره ، فتكف النقد العربي عامة ، وانشغل القرن الرابع بحركته القوية التي مثلت الناموس الجمالي والاستجابة الفنية الدائمة بمظهرها الجدلي العام ، والممثل بالفعل وردة الفعل والوسط الذي يواكب الحق بعناد مستمر فيعتدل .

خاتمة

=====

لعل اوضح صورة لحركة النقد المثلثة ، الفعل وردة الفعل والوسط ،
التي دارت حول شعراي الطيب في القرن الرابع الهجري ، هي التي رسمها
النقاد انفسهم في كل من البيئات الثلاث التي تناولت هذا الشعر بالدرس
والتقييم . وهي التي عكفنا على تبين ملامحها وخطوطها العريضة في نتاج هؤلاء
وفي متعدد الحوادث والاخبار الادبية التي صدرت عن مثل هذه الاوساط .
فكان ان اتفق لنا نوع من القرابة النقدية يجمع رجال الخط الواحد في كل
وسط ، وفي المجموعة ككل تقريبا . وابرز مثال على ذلك نقاد الخط المعادي
للشاعر في كل من البيئة الشامية ، والعراقية ، والمصرية . على تميز الاهداف
والاساليب وتنوع الحالات والظروف . وقد رأينا كيف ان النقد في البيئة الاولى
اقتصر على الملاحظة الفنية العاجلة والانفعال السريع ، برغم رقي الذوق
الادبي ورهافة الحس الجمالي ، دون النظر الموضوعي الاصيل في الشعر
الواحد والتحليل الفني الواعي لمختلف صورته وحالاته . وهكذا تحقق لدينا
غياب النقد الحقيقي عن البيئة الشامية وبلاط سيف الدولة الادبي . فالنقد
هناك لم يكتب ولم تخصص له رسائل منفردة مميزة ، كما في البيئات والاوساط
الادبية الاخرى . وكذلك الحال في البيئة المصرية ، حيث كان ديوان
الشاعر يشرح وتعقد له الحلقات الادبية ، باستثناء مصنف ابن وكيع الذي
اعتبرناه صدى للبيئة العراقية " ولموضحة " الحاتمي على الاخص . وهو بهذا
المفهوم العام يكمل الخط الذي اعتمدته نقاد ردة الفعل المناهضة للشاعر
في كل من العراق وفارس . وتدخل محاولته هذه ضمن اطار السرقات الذي

حصر الحاتمي شعراي الطيب كمبدأ عام ، وبغض النظر مؤقتا عن المشكلات والموضوعات والمآخذ الاخرى التي تعرض لها كلا الناقدين في "نقد هما الاحتياطي" . ويبقى لكل ناقد تفرد الخاص وعبقريته المميزة ، ولكل عمل نقدي نوعيته ، وموضوعيته ، وقيمه الادبية اولا واخرا . والذي ميز برأينا هذه الحركة بشكلها الواقعي الواضح الجري ، هو النقد الذي خصص لهذا الشعر في البيئة العراقية بوجه عام ، والاثرا الذي تركه دفاع ابن جني عن الشاعر وتفسيره الخاص لديوانه ، والخط الموالي الذي تفرغ للشاعر يمجده حسناته ويعرض عن عديد سيئاته . واذا هناك ردة فعل صاخبة قام بها الخليفة والوزير والناقد والشاعر ، تميز عن تفاعلها مع الخط الاول ، الوسط المعتدل الذي اتاه القاضي الجرجاني في "الوساطة" ، فكان ما تصورناه وعرضناه في صفحاتنا السابقة . وقد امتد اثر هذه الحركة الى ما بعد القرن الرابع الهجري فانتهى شقها المعادي الى العميد في "الابانة عن سرقات المتنبي" ، ووسطها المعتدل الى الثعالبي في "يتيمة الدهر" ، وخطها الموالي الى ابي العلاء المعري في "معجز احمد" و"اللمع العزيزي" (١) والشيخ يوسف البديعي في "الصبح المنبي عن حيثية المتنبي" فيما بعد . هذا سوى الشروح المتعددة التي عكفت على ديوان ابي الطيب من جديد كشرح الواحدى والتبريزي والعكبرى واليازجي وغيرها ، والتي تميز كل منها بتطلعات جديدة ووقفات اشمل واجمع من التطلعات والوقفات السابقة . وكنا قد اتينا على ذكر معظم هؤلاء في تصويرنا للجوالادبي النشيط الذي تكف الاهتمام فيه بشعر ابي الطيب وصوره وانفعالاته . وكان تركيزنا دائما على البيئة العراقية التي تعزز فيها النقد على ايدي الحاتمي والصاحب بن عباد والجرجاني

وغيرهم ، مع تلمس ظروف كل ناقد وثقافته ومنهجه والعديد غير ذلك . اما كيف تم لنا ربط المقدمات العامة التي تناولت ابرز مظاهر شخصية ابي الطيب ككتمان نسبته وادعائه النبوة وثورته في بادية السماوة وعلاقته بالعلويين وغير ذلك — بالنقد الذى دار حول شعره ، وبطبيعة هذا النقد وظروف اصحابه ، فكان بوقوفنا المركز على تأثير هذه المظاهر في خلق وتكوين شخصيته الجديدة ، واستجابة الناس والنقاد السريعة لمؤثرات وسلوك هذه الشخصية ، عدا التقاء ظروف بعض النقاد مباشرة بتصرفات الشاعر ، وسرعة رد الفعل والانفعال بين الطرفين . وقد عالجنوا النقد على اساس البيئات لتتبع خط التأثير النقدي كما اسلفنا ، ولبيان تطور هذه الحركة وتساعدنا واستمرارها في مختلف هذه الاوساط ، وفي هذا القرن بالذات ، لنثبت لها اولويتها واتكاء النقد اللاحق على اصولها وخطوطها كما سبق .

هذا عدا الموضوعات النقدية الاخرى التي استجدت او فرضتها ابحاث النقاد انفسهم او شعرا ابي الطيب ذاته ، والتي اثبتناها او وقفنا على اطوارها عند استقراء الكتب النقدية وتحليل مذاهبها وغربلة نصوصها واشعارها . ولسنا ندعي في كل ذلك سوى الجهد الذى اتيناه ، والادراك الواعي لطبيعة العمل الذى اقترحت هذه الدراسة ، وفرضه تصور الموضوع بحد ذاته ، فكان ما اثبتناه ، او على الاقل ما شئنا ان نثبته ونتبيناه .

فهرس المصادر والمراجع

- ١ - ابراهيم ، طه احمد ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ٢ - ابن الاثير ، عز الدين ابي الحسن الشيباني ، الكامل في التاريخ ، دار صادر - دار بيروت ، المجلد التاسع ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ٣ - ابن جنى ، ابو الفتح عثمان ، ديوان شعراي الطيب احمد بن الحسين المتنبي ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، عن نسخة دار الكتب المصرية ، تاريخها او اخر ربيع الاخر من شهر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، كتبه ابو السعادات ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٤ - ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة السعادة بمصر ، القاهرة ، سنة .
- ٥ - ابن رشيقي القيرواني ، ابو علي الحسن ، العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، جزآن ، الطبعة الثالثة ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٦٣ .
- ٦ - ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الجزء الاول ، مطبعة السعادة بمصر ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ٧ - ابن طباطبا العلوى ، محمد بن احمد ، عيار الشعر ، تحقيق الدكتور طه الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٨ - ابن قتيبة الدينورى ، ابو محمد عبدالله بن مسلم ، الشعر والشعرا ، جزآن ، طبعة محققة ومفهرسة ، نشر دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤ .

- ٩ - ابن المعتز ، عبد الله ، كتاب البديع ، تحقيق ونشر اغناطيوس كراتشكوفسكي ، لندن ، ١٩٣٥ .
- ١٠ - ابن وكيع التنيسي ، ابو محمد الحسن بن علي ، شاعر الزهر والخمر (ديوان شعر) ، جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١١ - ابن وكيع التنيسي ، ابو محمد الحسن بن علي ، المنصف للسارق والمسروق منه ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، الجامعة الاميركية في بيروت ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ١٢ - الاصفهاني ، ابو القاسم عبد الله ، الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، مخطوط ، ٣٢ ورقة ، الطبعة الاولى ، المطبعة المنيرية بالازهر ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١٣ - الاصمعي ، ابو سعيد ، فحولة الشعراء ، تحقيق عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني ، الطبعة الاولى ، المطبعة المنيرية بالازهر ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٢٤ - الامدي ، ابو القاسم الحسن بن بشر ، الموازنة بين شعراي تمام والبحترى ، تحقيق السيد احمد صقر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ١٥ - الانباري ، ابو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ، نزهة الالباء في طبقات الادباء ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٥٩ .
- ١٦ - البديعي ، يوسف ، الصحيح المنبي عن حيشية المتنبي ، تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبد زياده عبده ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ١٧ - بروكلمان ، كارل ، تاريخ الادب العربي ، نقله الى العربية عبد الحليم نجار ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ (٣ اجزاء) .

- ١٨ - بلاشير ، ر . ، ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ، ترجمة
احمد احمد بدوى ، الطبعة الاولى ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ،
سنة .
- ١٩ - الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك ، يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر ،
المطبعة الحفنية بدمشق ، ٤ اجزاء في مجلدين ، سنة .
- ٢٠ - ثعلب ، ابو العباس احمد بن يحيى ، قواعد الشعر ، شرح عبد المنعم
خفاجي ، الطبعة الاولى ، مصر ، ١٩٤٨ .
- ٢١ - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان ، تحقيق وشرح الدكتور عبد
السلام هارون ، مكتبة مصطفى البابا الحلبي واولاده بمصر ، القاهرة ،
١٩٤٧ . (الجزء الاول والثالث) .
- ٢٢ - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام
هارون ، الطبعة الاولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة ، ١٩٤٨ . (٤ اجزاء) .
- ٢٣ - الجرجاني ، عبد القاهر ، اسرار البلاغة ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ،
١٩٤٨ .
- ٢٤ - الجرجاني ، القاضي علي بن عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ،
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، الطبعة
الثالثة ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ٢٥ - الحاتمي ، ابو علي محمد بن الحسن ، الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي
في شعره كلام ارسطو في الحكمة ، تحقيق ونشر فؤاد افرام البستاني ،
مجلة المشرق ، السنة التاسعة والعشرون ، اعداد سنة ١٩٣١ .
- ٢٦ - الحاتمي ، ابو علي محمد بن الحسن ، الرسالة الموضحة ، تحقيق الدكتور
محمد يوسف نجم ، دار صادر - دار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- ٢٧ - الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي ، تاريخ بغداد او مدينة السلام ،
الطبعة الاولى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٣١ .

- ٢٨ - عبد الرازق ، مصطفى ، فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابا الحلبي وشركاه ، مصر ، ١٩٤٥ .
- ٢٩ - الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، الطبعة الثانية .
- ٣٠ - السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تصحيح محمد امين الخانجي ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة بمصر ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ .
- ٣١ - شاكر ، محمود محمد ، ابو الطيب المتنبي ، عدد خاص من مجلة " المقتطف " ، سنة .
- ٣٢ - شعيب ، محمد عبد الرحمن ، المتنبي بين ناقديه ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٣٣ - صاحب بن عباد ، ابو القاسم اسماعيل ، الكشف عن مساوي المتنبي ، ملحقة بكتاب الابانة لابي سعد العميدى ، تحقيق ابراهيم الدسوقي البساطي ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٣٤ - الصفدى ، صلاح الدين خليل بن ايبك ، الوافي بالوفيات ، باعثناء هـ . ريتز وس . ديدرنغ ، ١٩٣١ .
- ٣٥ - طبانة ، بدوى ، دراسات في نقد الادب العربي ، المطبعة الثانية ، مكتبة الانجلومصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٣٦ - طبانة ، بدوى ، السراقات الادبية ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، مصر ، ١٩٥٦ .
- ٣٧ - طبانة ، بدوى ، الصاحب بن عباد ، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٣٨ - عزام ، عبد الوهاب ، ذكرى ابي الطيب بعد الفعام ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

- ٣٩ — العسكري ، ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل ، كتاب الصناعتين :
 الكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ،
 الطبعة الاولى ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابا الحلبي وشركاه ،
 مصر ، ١٩٥٢ .
- ٤٠ — العكبري ، ابو البقاء ، ديوان ابي الطيب المتنبى ، ضبط وتصحيح مصطفى السقا
 وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابا الحلبي بمصر ،
 القاهرة ، ١٩٣٦ .
- ٤١ — العميدى ، ابو سعد محمد بن احمد ، الابانة عن سرقات المتنبى ، تحقيق وشرح
 ابراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٤٢ — غومس ، اميليو غرسية ، الشعر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة
 المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٤٣ — قدامة بن جعفر ، ابو الفرج ، نقد الشعر ، عني بتصحيحه س. ا. بونيباكر ،
 طبع بمطبعة بريل بمدينة ليدن ١٩٥٦ .
- ٤٤ — القفطي ، جمال الدين علي بن يوسف ، انباء الرواة على انباء النحاة ،
 تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، الجزء الاول ، مطبعة دار الكتب
 المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ٤٥ — كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٩٥٧ .
- ٤٦ — المرزباني ، ابو عبدالله محمد بن عمران ، معجم الشعراء ، تحقيق الدكتور ف.
 كرنكو ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
- ٤٧ — المرزباني ، ابو عبدالله محمد بن عمران ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ،
 تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٤٨ — المرزوقي ، ابو علي احمد بن محمد بن الحسن ، شرح ديوان الحماسة ،
 نشر احمد امين وعبد السلام هارون ، القسم الاول ، الطبعة الاولى ،
 مطبعة لجنة التليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ .